محمد الغزالي

الإسلام

في وجه الزحف الأحمر

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة التاسعة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

بسم الله الرّحمَن الرّحيم

مقدمة

خامرنى إحساس بالوجل والضيق للرواج الذى لقيته الشيوعية فى الآونة الأخيرة .

لقد استولت على مساحات واسعة من الأرض ، وأعداد كبيرة من الناس ...

واستهوت لفيفاً من الشباب فى البلدان العربية والإسلامية من فارغى العقول والأفئدة ...

وأصبحت – على الأقل – وجهة نظر تعرض نفسها بين وجهات النظر الأخرى دون ملام أو خشية ...

بل أصبح أتباعها يؤملون أن تتدافع الأمور إليهم وتقع أزِمّة المجتمع كلها فى أيديهم ...

وغاظنى أن يرجع ذلك النجاح كله إلى نشاط العارضين لا إلى جودة السلعة !!

فإن الشيوعية لو عُرفت على حقيقتها العارية نظرياً وعملياً لولّى عنها الأنصار ، ولانصرفوا كارهين مُزرين ...

وغاظنى أن الفراغ الدينى الرهيب فى الأمة الإسلامية المترامية الأطراف هو أول ما يعين الشيوعية على خداعها ، ويوقع القاصرين فى حبائلها .. وهو فراغ لا يملأ جزءاً منه علماء الدين المحنطون فى معارفهم التقليدية الباهتة ، ولا رجال السياسة المنسلخون عن عقيدتهم وشريعتهم ، الحارسون لحكم مدنى ميت الروح وضيع الهدف !!

وقد كنا نتصور الشيوعية أمل الجياع الذين يريدون الشبع ، والمظلومين الباحثين عن العدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص ، والكادحين الراغبين فى وفرة الكرامة ، وأمان الحاضر والمستقبل ..

واستطعنا أن نُقدِّم هذا كله جزءاً لا يتجزأ من تعاليم الإسلام ، وعدداً يُحصى إحصاءً من شُعَب الإيمان !

وقلنا : فى الحق ما يُغنى عن الباطل ، وفى الدين ما يعصم من الإلحاد ...

غير أننا فوجئنا بطلاَّب الشيوعية يريدونها مذهباً يُجرِّد الحياة تجريداً تاماً من كل صلة بالله واليوم الآخر ، ويقصر النشاط البشرى كله على عبادة الأرض ، وتوفير القوت ، وتيسير بعض الملذَّات .. إن أمكن ...

ورأيناهم يحاكمون التراث الإنسانى كله إلى قضية الخبز ، ويتناولون بالمحو العاجل أو البطئ ما يخالف المنطق المادى ..

وأعانهم على هذه الفوضى الروحية والفكرية ما يُعانيه العالم العربى والإسلامى من ذبذبة وحيرة ، وما يرشح عليه من أرجاس الاستعمار الثقافى بعد الاستعمار العسكرى ...

لذلك رأيتُ أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية . وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه شفيق على أمته .

وأعرف أننى بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة .

ولكن بئست الحياة أن نبقى ويفنى الإسلام ... !!

إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد .. !!

وعلى بُعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام واقتسام تركته ... !!

وقد فرض الله على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مُرّاً ، وأن لا يخشوا فى الله لومة لائم ..

وعشّاق الحق لا بد أن يحيوا معه ، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها .

والأمة التى أعنيها ليست عشيرتى الأقربين ، ولا العرب أجمعين ، كلا ..

إننى أعنى الأمة الإسلامية حيث انتشرت فى الأرض ولمس ترابها جبهات الساجدين وكل منهم يهمس فى خشوع : « سبحان ربى الأعلى » .

هذه الأمة التى أحاط بها الطامعون والحاقدون هى التى أحذر عليها ، وأعمل لها ..

من أجلها أسوق هذه الحقائق علّها تعيها ، وتأخذ حذرها ليومها وغدها .

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [١] .

رجب سنة ١٣٨٦ هـ (أكتوبر سنة ١٩٦٦ م) .

محمد الغزالى

* * *

(١) غافر : ٤٤

الفصل الأول

بداية الصراع

نظرتنا إلى الشيوعية - كيف تسرّبت إلى البلاد العربية والإسلامية ، ومن المسئول ؟ - أثر المساعدات الروسية - لن نتخلى عن ديننا .

أكره الإلحاد بقدر ما أحب ربى .

وأستحمق أهله بقدر ما فى قلبى وعقلى من يقين ومعرفة .

لقد آمنتُ بالله عن استدلال وبصر ، وتطواف فى آفاق السموات والأرض ، وتفنيد للشبهات ونسف للريب ..

ومن هنا فإن غرور الجاحدين بما لديهم من ظاهر العلم لا يلقى لدىّ إلا الاحتقار والمقت .

وما أعد منكرى الألوهية إلا أشباه دواب مهما كانت حصيلتهم من العلوم ومكانتهم على هذا التراب ! !

وإذا كان الإلحاد عاهة تزرى بصاحبها على هذا النحو . فكيف إذا كان صاحبها داعية لجهالته متحمساً لها ؟

وكيف إذا نما هذا الإلحاد ، وتكاثف ، وأمست له دولة تفرضه بالسلاح ، وتوطئ له الظهور والأعناق ، وتنتمى له فى السر والعلن . وتريد به أن تُطفئ نور الله ، وأن تُمد ظلمته حتى تطوى أقطار الأرض إلى آخر الدهر ؟

إن ذلك بداهة أدعى لمزيد من الإنكار والبغضاء والمقاومة والغضب !!

من أجل ذلك قاوِمت وقاوَم كل مسلم الشيوعية العالمية واعترض زحفها ، وأبى بألف دافع من دينه أن يستكين لها ، أو يأذن بمرورها .. ! !

لكن ...

لكن إذا كان الأمر كذلك فكيف تسللت روسيا أم الشيوعية وحاميتها وحاملة لوائها إلى البلاد العربية والإسلامية ؟ وكيف قدرت على توطيد مكانتها هنا وهناك ؟ ؟

والجواب عند الصليبية الغربية التى أعمى الحقد والجشع قلبها ، وظنت أن الفرص مواتيتها لاجتياح الإسلام وأمته فى هذا العصر ..

ماذا أصنع إذا كنتُ فلسطينياً ورأيتُ الدول المسيحية الكبرى تقرر علانية ودون ذرة من وجل أو خجل تهويد بلادى وتجريدى من دارى ومالى ؟ ؟

* * *

ماذا أصنع وأنا أقاوم هذا الظلم الفادح فلم أجد إلا السلاح الروسى يوضع فى يدىّ لأُثَبِّت به حقى ، وأغسل به العار عن نفسى وبلدى ودينى ؟ ؟

وإذا كنتُ إفريقياً ورأيتُ الاستعمار الغربى أشد ما يكون حرصاً على تنصير شرق إفريقية وغربها ووسطها . وإقامة حكومات مسيحية تعمل جهرة على محو الإسلام فيها وقتل زعمائه وتدويخ شعوبه ؟؟

وأين يحدث ذلك ؟؟

بين شعوب كثرتها الكبرى مسلمة ، وقلتها وثنية ، وأقلها مسيحى .

فماذا أصنع إذا وجدت روسيا تحارب هذه الحكومات وتعرقل سياستها ؟

ألا أميل إلى الروس ؟ وأتمنى لهم تقدماً محدوداً أو مطرداً ضد هذا العدو المشترَك ؟

وإذا كنتُ فى مصر أُريد بناء وطنى ، وتحسين أحواله الاقتصادية ، ووجدتُ الدول المسيحية الكبرى تقبض يدها عنى ، وتتمنى الويل لى .

فماذا أصنع إذا رأيتُ العون الروسى يقترب منى ويعرض نفسه علىّ ؟ ؟

إن روسيا تسللت حقاً إلى البلاد العربية والإسلامية .

بيد أن هذا التسلل جاء نتيجة حتماً لطبيعة السياسة الغربية وكراهيتها الدفينة للإسلام والمسلمين .

إن الغرب الصليبى يُعد الأمة الإسلامية تركة لا صاحب لها .

وهو يتحكم فى علاقتها بدينها ، ويُرغمها على ترك ما يرى من شرائعه ، وإخفاء ما يكره من شعائره .. !!

وهو يُعطى نفسه حق محو الإسلام من أى بلد وتنكيس لوائه فى أى أرض ..!

وهو قد يُعامِل بعض الحكومات الإسلامية برفق فى نطاق ما يصون منفعته فحسب !

فإذا غاضت هذه المنفعة بدا ما كان مستخفياً من عداء .

وبديهى أن يحارب المؤمنون الأحرار هذا الاستعمار الحقود والخئون .

وما كان عليهم من حرج وهم يدافعون ظلماته أن يلتقفوا السلاح من أى يد ولو كانت يد ملحد لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ..

إن الغريق لا يُلام إذا تشبث بأى شىء يعصمه من الموت ويُتيح له النجاة .

ونحن المسلمين فى وضع شائك محزن !!

إنه يستحيل أن ننسى ربنا ، أو ندع ديننا ، أو نتخلى عن توصياته فى شتَّى المواقف .

وحين نقبل العون الروسى مادياً كان أو أدبياً فلكى نستبقى أنفسنا وتراثنا ضد من يبغى العدوان علينا .

أى أننا نريد استدامة وجودنا الأصيل بكل ما يتضمنه هذا الوجود من حقائق وشارات .

فحين نُعيد فلسطين مرة أخرى ، ونكسر القوى التى تُقيم إسرائيل على صعيدها . فذلك لكى تعود الأرض المقدسة إلى عروبتها وإسلامها لا غير ..!!

وحين نهزم الاستعمار الكالح المتعصب فى إفريقية وآسيا ، فذلك كيما تعود حرية الضمير ، وتنحسر أمواج الفتنة ، وتتنفس الجماهير المسلمة المضطهَدة فى جو خالٍ من الغشم والصَغار .

إن السفاهة بعينها أن يظن أحد بنا أو يرتقب منا أن نتحوّل إلى الشيوعية لأن الاستعمار الغربى أكرهنا على التعاون معها وقبول نجدتها .. ! !

كلا . لن نُفرِّط أبداً فى إسلامنا ، وسنظل ما حيينا أوفياء لله ورسوله . مستمسكين بعروة الأخوة الجامعة التى تربطنا بالمسلمين فى أرجاء الدنيا .

* * *

وإذا كانت المصالح السياسية المجردة تجعل المتناقضين يلتقيان فى ميدان ما ، فتلك ضرورات تُمليها ظروف خاصة ولا تعنى بتة أن يتنازل أحد عن مقوِّماته ومشخصاته ! !

ولعل إنجلترا والولايات المتحدة أعرف منا بذلك .

فهما فى الحرب العالمية الأخيرة تحالفتا مع روسيا ضد ألمانيا .

وقال فى ذلك تشرشل : إنه مستعد للتحالف مع الشيطان ضد خصومه .

وهكذا تعاونت الرأسمالية الغربية والشيوعية الشرقية على الكفاح معاً ضد عدو مشترك ، واختلطت الدماء المراقة لبلوغ غاية محدودة .

هل كان معنى ذلك تخلّى أحد الفريقين عن مبادئه وعقائده ؟

كلا ...

لقد كان الروس عون الأمريكان مع أن الغرض البعيد للروس هو القضاء على الرأسمالية التى تعتبر أمريكا قاعدتها الكبرى .

وفى ذلك يقول ستالين نقلاً عن لينين : « إن النصر لا يتم لنا إلا على أيدى من يُحسنون تخير الطرق للهجوم والتقهقر على السواء .

إن الحرب للقضاء على « البرجوازية » الدولية ستكون حرباً طويلة شعواء تتضاءل أمامها أهوال الحروب التى تنشب بين بعض الدول وبعضها الآخر .

ومن الخرق أن نتنحى فى سبيلها عن سلوك أى طريق من طرق المناورة كأن نضرب أحياناً مصالح عدو بمصالح عدو آخر !! أو نُبرم اتفاقات مؤقتة نعرف لها عدم الدوام والثبات ! !

فإننا برفضنا هذا المسلك نكون كمن يريد تسلق جبل منحدر مجهول المسالك ويتمسك بادئ ذى بدء بالامتناع عن الصمود فى خط متعرج أو الرجوع أحياناً بضع خطوات إلى الوراء أو العدول عن الاستمرار فى الطريق المختار والبحث عن طريق أسهل منه لإتمام الصعود » .

بهذا الأسلوب المرن يخدم الشيوعيون قضاياهم . فهل من ضير على المسلمين أن يلجأوا إلى هذا الأسلوب نفسه فيضربوا مصالح عدو بمصالح عدو آخر ؟ ؟

المهم ألا يفقدوا أنفسهم ، وألا ينسوا غايتهم فى خلال هذا المعترك المعقد وما يفرضه من كر وفر وابتسام وعبوس .

بل إن خطة المسلمين ستكون أشرف لأنهم – ببواعث من دينهم – لن يغدروا فى عهد ، ولن يكفروا نعمة ذى نعمة ، ولن يقلبوا المنكر معروفاً ولا المعروف منكراً ...

بيد أن خطة ضرب عدو بعدو ثم الخلاص بالإسلام وأمه من شتّى المآزق ليست بالأمر السهل .

إنها خطة تحتاج بعد عناية الله إلى ساسة أوفياء لدينهم وتاريخهم .

لهم فى الدعوة الإسلامية رسوخ وبصيرة ..

وحولهم شعوب تتحمل أعباء الجلاد وطول المقاومة ، وتعرف نهاية الطريق وإن اختلفت الوسائل .

وهذه الشروط لم تتوفر للأسف فى عصرنا .

ونشأ عن فقدها كلاً أو بعضاً أن الروس وأضرابهم لما عرضوا عونهم على ضحايا الاستعمار الغربى وخصومه جاشت فى صدورهم الآمال أن تجد الشيوعية قبولاً حسناً بين العرب والمسلمين ... !!

وهى آمال لها ما يُسوِّغها بل لها ما يُقوِّيها .

فإن الروح الدينية عراها ضعف شديد خلال عشرات السنين أو مئات السنين التى اضمحلت فيها الأمة الإسلامية الكبرى وسقطت بقضِّها وقضيضها فى براثن الغزو الأجنبى المُنساب من كل ناحية .

ثم إن القصور الذى غلب على ألوان الثقافة الإسلامية جعل كفَّتها تطيش أمام فنون التقدم العقلى المقبل مع الحضارات المادية الجديدة ....

ومن ثَمَّ فإن أعداداً من الناس - قلَّت أو كثرت - استهواها هذا المذهب الجديد ، ولم تر حرجاً - إن لم تدخل فيه - أن تواليه وتنحاز إلى جانبه .

وهكذا تحوَّل الوجود الروسى إلى دعوة فعَّالة بعيدة الأثر للشيوعية العالمية ، وأصبح الاسلام يواجه خطرين لا خطراً واحداً .

خطر الزحف الأحمر الجديد الذى إن تمكن دمر الإسلام كله أُصولاً وفروعاً .

وخطر الصهيونية والاستعمار اللَّذين حكما علينا بالإعدام ، وشرعا فى التنفيذ لولا بعض العقبات الطارئة ... !!

على أن ازدواج الخطر يُفزع الجبناء وحدهم .

أما المؤمنون بالله المتوكلون عليه فإن مضاعفة الخطر تزيدهم اعتصاماً بالله وجهاداً فى سبيله ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٧٣

ونحن نهيب بالمسلمين حيث كانوا أن يستميتوا في حماية دينهم وبلادهم ، وأن يذودوا الشيوعية والصهيونية والصليبية عن تراثهم المهدَّد ، وأن يتواصوا خلفاً عن سَلَف بأداء هذا الواجب .

فإما عاشوا سعداء ، وإما ماتوا شهداء ...

إن الغرب يريد بعد سحق الشيوعية أن يفرض علينا نفسه وما يدين .

وإن الشيوعية تريد هى الأخرى بعد سحق الغرب أن تفرض علينا نفسها وكفرها .

ومن أشنع الجرائم أن يشعر مسلم بالتبعية لهؤلاء أو أولئك .

إن الإسلام نمط فى الحياة متميز بعقائده وشرائعه وفضائله ..

ونحن مستعدون أن نُعلِّم الجاهلين بالإسلام ، ومستعدون كذلك لمقاومة الجاحدين المُرتدِّين .

وفى جو الإسلام الصحيح يستحيل أن تجد الشيوعية مجالاً تنتشر فيه . . بل حيث تسود العدالة الاجتماعية قلما تلقى الشيوعية لها مكاناً .

وقد بُحَّتْ أصوات الدعاة إلى الشيوعية فى انجلترا وغيرها من البلاد المماثلة، فما انقاد لهم من يُؤْبَه له ...

ولذلك نقول فى يقين : إنه حيث يوجد الإسلام فقهاً وتطبيقاً فهيهات أن تجد الشيوعية موضع قدم لها فى بلاده .

لأنه عقيدة يُدَعِّمها العقل ، وشريعة ينسجها العدل .

وفى ظلاله يسود الأمن والشبع وتنمو الحريات والحقوق .

وقد كانت الشيوعية تُحارَب بعنف أيام العهد الملكى السابق .

فهل كانت مخاصمتها لوجه الله وحماية الإسلام ؟ كلا ...

لقد حُوربت حماية لسرقات الملوك ومظالمهم ، وتمشياً مع سياسة الغرب الذى كان يناوئها يومئذ .

أما الإسلام نفسه فإن دماءه كانت تنزف تحت وطأة الاستعمار الخارجى والداخلى على سواء .

ومن الخطأ تصور أن الإسلام يحارب الشيوعيين بالسجن ، ويطارد الشيوعية بعصا القانون ، تاركاً الدنيا تموج بالتفاوت الجائر والمكاسب الحرام !!

هذا التصور أحمق .

وقد أشبعنا الموضوع بحثاً وعرضاً فى كتبنا التى ظهرت من ربع قرن على عهد الملكية نفسها ...

وهدفنا الأوحد أن يقوم مجتمع إسلامى يستند إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله . ويستمد حصانته ووجاهته من العافية التى يُقدِّمها للناس فى أرواحهم وأبدانهم.

لكن الشيوعية تريد بناء كيان لها داخل البلاد العربية والإسلامية ، وهى تستغل - كما أتينا - حاجة العرب والمسلمين إلى عونها السياسى والعسكرى كى تصنع الأسس لهذا البناء .

ولنعترف بأن هناك شيوعيين عرباً يعملون - مخلصين أو أجراء - لتحقيق هذه الغاية .

ولنعترف أيضاً بأن من الجنون هزم إسرائيل ومَنْ وراءها بغير السلاح الروسى.

وإلا فمن أين نجىء به ؟

وتحت ضغط هذه الظروف تُرِك للشيوعين أن يتحركوا .

ولكن - والحديث هنا عن الجمهورية العربية المتحدة - بعد إجراء تغييرات اقتصادية تجعل دعايتهم ضعيفة الأثر فى نظر رجال الدولة أو تُبقى البلاد مربوطة بالإسلام المشوَّه المنقوص الذى تمخض عنه الغزو الفكرى الحديث .

وشرحاً لذلك كله يقول الكاتب المعروف محمد حسنين هيكل :

« قد آن الوقت لكى ينظر المجتمع المصرى إلى الشيوعية والشيوعيين نظرة

عادية ، وأن يستمع إليهم - إذا أراد - كما يستمع لأى فكر يعرض نفسه بغير حساسية خاصة وبغير تشاؤم وبغير تطير !!

لقد فات - فى ظنى - الوقت الذى كان المجتمع المصرى فيه لا يملك بإزاء الشيوعية والشيوعيين إلا الوسائل العسكرية يردهم بها ويرميهم وراء قضبان السجون .

ولقد تجاوز المجتمع المصرى - يقيناً - هذه المرحلة ووصل فى تجربته الذاتية ونُضجه السياسى إلى الحد الذى يجعله قادراً على مناقشة كل فكر ، قادراً على فهم العقائد وفرزها ، قادراً على أن يقبل ما يريد ويرفض - أو يلفظ - ما لا يريد وعياً واقتناعاً فى الحالين !

وفى المجتمعات التى بلغت سن الرُشد ، بل فى تلك التى تتمسك بالنظام الرأسمالى ، نراهم لا يواجهون الشيوعية والشيوعيين بالسجن والقمع ، لكنهم يتركونهم فى بحر المجتمع الواسع وعلاقاته المتشابكة وظروفه التاريخية كلمة بين الكلمات ورأياً وسط الآراء .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا - مثلاً - أحزاب شيوعية يسمح القانون بوجودها دون اعتراض ، ويتركها المجتمع تؤدى دورها بلا خشية ولا خوف يستوجبان ملاحقة الشرطة أو تدخلها .. تلك علامة من علامات النضج وهى أيضاً من علامات الديمقراطية . وأقول على الفور : إننى لا أرى للشيوعية أو للشيوعيين مستقبلاً فى مصر ولا فى العالم العربى - الكلام لا يزال للأستاذ محمد حسنين هيكل - ولستُ أقول بذلك لمجرد خلافى مع الشيوعية والشيوعيين وإنما أقول به نتيجة لنظرة - أعتقد سلامتها - إلى الواقع العربى كله وإلى مسيرته التاريخية من الماضى إلى المستقبل .

لكن ما أراه فى الشيوعية والشيوعيين ومستقبلهم شىء ، ومقاومتهم بالشرطة والسجون شىء آخر يختلف عنه تماماً .

وليس معنى ذلك أننى اليوم أطالب للشيوعية والشيوعيين بحزب فى مصر تمثلاً بما يحدث فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى بريطانيا ، وإنما الذى أقول به

وأعلنه محدداً وواضحاً هو أنه لم تعد هناك ضرورة ولا قيمة لأى إجراء تقوم به الشرطة تجاه الشيوعية والشيوعيين . أعنى أنه قد جاء الوقت فى ظنى لكى نتركهم يقولون ما عندهم وليستمع المجتمع بقدر ما يريد وليرفض وليلفظ كل ما يجده متعارضاً مع إرادته ، وفوق ذلك فإنه ما زالت هناك حالات يتحتم فيها على القانون - وعلى الشرطة إذا اقتضى الأمر - ضرب الشيوعية والشيوعيين - وذلك إذا ما أقدموا على عمل يتعارض مع المبادئ الأساسية التى أعلنها النضال الوطنى ميثاقاً له .

من ذلك مثلاً أن تحاول الشيوعية والشيوعيون تكوين حزب سياسى علنى أو سرى فى مصر . فإن ذلك مخالف لإجماع الإرادة الوطنية الحرة .

على أن العمل السياسى فى المرحلة الحاضرة يكون كله تحت قيادة تحالف قوى الشعب العاملة وداخل منظمتها القائدة وحدها وهى الاتحاد الاشتراكى العربى .

مثل هذه الحالة خروج على الميثاق وعلى الدستور ، وبالتالى يحق - بل لا بد- للقانون أن يتدخل وأن يضرب .

ومن ذلك - أيضاً - أن تحاول الشيوعية والشيوعيون أن يمسوا الدين رسالة وجوهراً ، فإن ذلك مخالف للعقيدة الإنسانية والأساسية الأولى التى يؤمن بها مجتمعنا ، ذلك المجتمع الذى يُقَدِّس أديانه ويتمسك - قبل أى شىء - بقيمها الروحية ويحميها بكل قوانينه بل يفتديها بما هو أقوى من القانون وأحكامه » .

* * *

وهذا الكلام دفاع ماهر عن ترك الدعاية الشيوعية تنطلق فى جَوِّنا وتعرض نفسها كيف تشاء . لكنه كلام كثير الثغرات أمام التأمل العادى .

والرد عليه ميسور لكل بصير بطبيعة الشيوعية وطبيعة الأمة الإسلامية فى هذه الحقبة من تاريخها .

فالزعم بأن الشيوعية تنفك عن الإلحاد كالزعم بأن الرأسمالية تنفك عن حرية التملك ، وبأن الاشتراكية تنفك عن تأميم المرافق العامة .

فلا المذهب الشيوعى من الناحية النظرية يقوم على إيمان ما .

ولا هو من الناحية التطبيقية فى بلاد الله كلها احترم إيماناً ما .

ولما كانت الدولة هى المشرفة على التعليم فى روسيا وغيرها ، فإن تنشئة أجيال تجحد الله كل الجحد جزء من عمل الدولة ... !!

نعم .. قد تحترم أيام الآحاد لتكون عطلة وراحة ، وقد تحترم بعض الكنائس لتكون متاحف أو مثابة يُلقى فيها العجزة وسقط المتاع فى المجتمع .. !!

أما أن يُسمح للدين بأن يكون عقيدة إيجابيه تمحو وتثبت فهذا مستحيل فى ظل النظام الشيوعى .

لقد تعلمت الشيوعية من تجاربها الطويلة مع الدين أن تقوم بحركة التفاف حول مواريثه ، وأتباعه ، يختنقون داخلها حتى تدركهم الوفاة الطبيعية ... !!

ومن ثَمَّ ربما مكر بعض الشيوعيين فعرضوا من الشيوعية جانبها الاقتصادى. وسكتوا . دون أن ينكروا جانبها الإلحادى .

لكن هذا المكر قد يروج فى مجتمع هندوكى يُقَدِّس البقر ، وليس له تعليمات سماوية ترسم له وجهته ، وتشرح له : كيف يحيا ، وكيف يتعامل ؟

وقد أفلح الاستعمار الغربى فى خلق أجيال تجهل دينها .

لكننا لا ننجرف مع هذا الجهل وسنبقى على النهج المشرق الذى أفدناه من ثقافتنا الإسلامية الصحيحة نقرر أن الإسلام إيمان ونظام أو - بتعبير المحدثين - دين ودولة .

وقد شرحنا فى عشرات الكتب التى ألّفناها معالم المجتمع المسلم وأركان الدولة التى تقوم عليه .

وواضح أن هناك تعارضاً تاماً ، وتناقضاً ممتداً بين الشيوعية والإسلام على أن الشيوعيين لا ينقصهم الدهاء ، فقد انطلقوا خفافاً إلى أهدافهم دون أن يجمعهم حزب مُعلن ، ودون أن يصطدموا بالدين اصطداماً صارخاً ، واتجهوا

إلى وسائل الإعلام يطوِّعونها لبلوغ مآربهم ، فإذا الكتب والصحف والصور والروايات التمثيلية والتعليقات الخاصة والعامة تملأ الجو العربى بهذا اللّون الداكن .

الله ليست له حقوق تُرعى . فلا إلزام بالصلاة والصيام والزكاة والحج ... !!.

والروح واليوم الآخر بقايا ماض يجب أن تزول ، فليُسحب ذيل النسيان على هذه الأمور .. !!

التفكير المادى البحت فى تصور الأشياء والحكم عليها أكمل ما بدأه الاستعمار الغربى من طى فضائل الإسلام وشرائعه وحدوده ، واستعاض عن ذلك كله بمفاهيم مستوردة جعلت المنكر معروفاً والمعروف منكراً !!

وصوت الإسلام يُسمع من أناس مهزولى الهمم ، مشلولى الفكر ، كأنما جىء بهم لتنهزم على أيديهم معالِم الفطرة وشُعب الإيمان .

إن عوامل التعرية - كما يقول الجغرافيون - تنحت الدين نحتاً فى هذا الجو وتجعل الأجيال الجديدة تنشأ مبتوتة العلائق بالدين معزولة القلب عن تُراثها ، سيئة الظن بماضيها الإسلامى كله .

ومن حقنا أن ننتصب لمقاومة هذا الباطل ، وكسر غروره ، وكشف أصحابه ، وحماية العرب والمسلمين من غوائله .

إن الأهرام - كبرى الصحف فى القاهرة - ترى على لسان محررها أن ينظر المجتمع المصرى إلى الشيـوعية والشيوعيين نظرة عاديـة ، وأن يستمع إليهم - إذا أراد - كما يستمع لأى فكر يعرض نفسه .

ونحن نرى ضرورة كشف القناع عن هذا الفكر الخادع ، وبيان الزيف فى دعاواه العريضة ، ومبلغ الخطر فى تركه يتسرب هنا وهناك .

فليست الشيوعية نظرة اقتصادية تُقاوَم بإصلاح اقتصادى ..

إن الشيوعية مذهب فى الحياة يُغيِّر كل شىء ويُقيم عالماً جديداً على أنقاض عالم بائد .

ومن أبجدياته صرف الناس عن تعاليم الله كلها . ما كان منها قيماً روحية - بتعبير العصر - وما كان منها تفصيلاً للمعاملات والنظم والقوانين المختلفة .

وما أكثر قوانين الإسلام وأرحب دائرتها .

إننا نُقَدِّر مساعدات روسيا لنا .

بيد أن يدنا فى هذا الموضوع ليست السُفلى ، فالأمر يقوم على تبادل المصالح ونحن ندفع ثمن كل عون يُقدَّم لنا ، وفى الوقت نفسه نأبى أن تكون بلادنا قاعدة لضرب الشعب الروسى .

وكل جميل يُسدَى إلينا فنحن نعرف حقه .

ونحن نعرف أن الشعب الروسى تلقى فى الحرب الماضية عوناً هائلاً من الغرب ، وأن الغرب لم يُكلِّفه بإزاء ذلك أن يترك مبادئه ولا أرسل رجاله لصرف الروس عن مذهبهم !!

ومن ثَمَّ فكل محاولة لنشر الشيوعية بيننا يجب أن تُمنع بإباء ظاهر ورفض شديد.

إننى أخط هذه السطور وأنا أقرأ فى الصحف أخبار المولدات الكهربائية القادمة للسد العالى وأخبار طائرات « الميج » السورية وهى ترد عدوان إسرائيل وتُغرق زوارقهم فى بحيرة « الحولة » وتواجه الأسلحة الصليبية التى يحملها اليهود .

وإننى لمقدِّر قيمة السياسة التى ربطتنا بالروس فى المجالَين السياسى والعسكرى .

وماذا نصنع بإزاء الضغائن الخسيسة التى تكنّها لنا الدول المسيحية الكبرى.

ومع هذا كله فلستُ الذى يُبدِّل استعماراً باستعمار ...

ومن المستحيل أن أفقد ذاتى وتاريخى ورسالتى وأنا أستعين بالسلاح الشيوعى لردع عدوًى .

وقد أشعر بالحزن العميق لوضعنا المُحرِجِ نحن المسلمين !!

إن تخلفنا العلمى والصناعى يخفض الرؤوس .

لكن لماذا هذا الأسف المُخزى ؟

إن الدنيا انخفاض وارتفاع ، وتقدم وتقهقر ...

وقد هبطنا حيناً ، ونوشك أن نأخذ طريقنا مصعدين ...

وفى طريق الصعود نريد أن نزداد علماً بما لدينا وما لدى غيرنا من مبادىء.

ولذلك أرى الحاجة ماسة لإلقاء ضوء قوى على الشيوعية العالمية التى شاءت الأقدار أن نحتاج إلى دولها والتى طُلِب إلينا ألا نتجهم لمبادئها وهى تسير بيننا ...

وسنرى أن الذين يطلبون منا عدم المبالاة يعملون وفق خطة طويلة الأجل لاجتثاث الإسلام من جذوره ، وجعل شعوبه الكثيفة نهباً للإلحاد على اختلاف ألوانه ومذاهبه ...

* * *

الفصل الثانى

الشيوعية والدين

الإلحاد جزء من مفهوم الشيوعية - ضرورة نشره مع التفكير الاقتصادى - موقف الشيوعية من الإسلام والنصرانية - مسألة فصل الدين عن الدولة بين الشرق والغرب - رأى زعماء الشيوعية فى الدين والأسرة والأخلاق - الشيوعية فى مصر .

يعتقد الشيوعيون أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض هى الوجود البشرى كله ، وأنه كما جاء الإنسان من عدم فهو صائر إلى عدم .

وأن فترة الإحساس من المهد إلى اللّحد هى وحدها فترة العمل والجزاء ثم يتحول الكيان الآدمى كله إلى ذرات أخرى متلاشياً إلى غير عودة .

ويتبع هذه العقيدة أنه لا ألوهية بتاتاً ، وبالتالى فلا توراة ولا إنجيل ولا قرآن ، وليست هناك تعاليم تصح نسبتها إلى السماء .

ومن ثَمَّ فالوحى كله خرافة لا أصل لها !!

والأنبياء عصابة من الكَذَبة !!

ولا مكان فى الفكر الشيوعى بداهة لصور العبادات ، ولا لمعانى الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة كما يقررها الدين ..

كلا . ليس لهذا الوجود صاحب ولا من ورائه هدف !! .

لقد تَخلّق تلقائياً ، ومضى إلى مستقبله المجهول عشوائى الخُطا معدوم الوجهة !!

لكن كيف يقوم المجتمع البشرى وكيف يتعامل أبناؤه ؟

يقول الشيوعيون : لقد نظرنا إلى تاريخ العالَم من قديم ، فوجدنا أنه شقى بانقسام الناس إلى ملاّك متسلطين وعمال وفلاحين مُتعَبين .

والخطة المُثلى فى هذا العالَم الذى لا رب له ، ولا غاية ينتهى إليها أن يُحظر مبدأ التملك الفردى !!

فكل شىء فى الحياة يملكه المجتمع العام ، والناس جميعاً أُجراء فى هذا المجتمع يأكلون بقدر ما يعملون !!

وكما لا يملك أحد الهواء والضياء ، يجب أن يُولد البشر ويحيوا وهم شركاء متساوون فى سائر المرافق لا ميزة لأحد على أحد !!

ولا بأس فى أن يتفاوتوا بعد فى دخولهم المالية ، ودرجاتهم الأدبية حسب كدحهم وجهدهم !!

على هذا الأساس وحده قامت الشيوعية الحديثة ، وأنشأت شبكة من القوانين والتقاليد لا تعدو هذا النطاق المادى المحدَّد !! .

والشيوعيون يرون أن هذا التفكير ليس شعاراً محلياً حسبهم أن يعيشوا فى ظله ، كلا !!

إن هذا التفكير هو الحقيقة الوحيدة التى يجب أن يعيها الأحياء فى المشارق والمغارب خصوصاً الطبقات العاملة !!

كفى ما ساد العالَم من ضلال وظلم فى ماضيه القريب والبعيد !!

يجب أن تندلع الثورة الحمراء حتى تشمل القارات الخمس وتسود مبادئها الحاضر والمستقبل !!

وعلى الدول الشيوعية الكبرى - وفى مقدمتها روسيا [1] - أن تُعِد نفسها

---

(١) يقول لينين : « نحن لا نعيش فى دولة واحدة بل فى عالم من الدول ، وإن بقاء الجمهورية السوفييتية وبجانبها عدد من الدول الاستعمارية أمر لا يمكن أن يدوم طويلاً ، بل لا بد أن ينتهى بتغلب أحد الفرقين على الآخر .

سياسياً وعسكرياً لبلوغ هذا الهدف . فلا يبقى هنالك إلا لون الحياة الشيوعية التى محت ما عداها من أفكار أرضية أو سماوية ...

ولم يختلف اثنان فى أن الإلحاد جزء من الشيوعية ، كما لم يختلف اثنان فى أن الشيوعية ترفض رفضاً باتاً أى تنظيم دينى للمجتمع الإنسانى .

وإنكار الشيوعية للدين يكبر ويصغر بمقدار تدخل الدين فى المجتمع .

فإذا كان الدين يكتفى مثلاً بالجانب التعبدى والأخلاقى ، فإن الشيوعية -مع كفرها به - تراه عدواً محدود الخطر ...

أما إذا تدخل فى المعاملات العامة والخاصة واستكثر من الشرائع التى تضبط المجتمع على نحو معين ، وتسوقه إلى وجهة بيِّنة ، فإن العداوة هنا تمتد وتشتد .

لذلك لا تطيق الشيوعية الإسلام لأنه - مع شبهه للأديان الأخرى فى الاعتراف بالألوهية واحترام الوحى - يمتاز بهيمنته على أزِمَّة الحياة النفسية والاجتماعية ، ومزجه التام بين أحوال القلب وأحوال الدولة .

فالشرك بالله كفر .

والحكم بغير ما أنزل كفر .

وجحد الصلوات المكتوبة كفر .

ورفض نظام المواريث المقسَّمة فى القرآن كفر ... إلخ .

وقديما قاتلت الدولة الإسلامية فى جبهة واحدة صنفين من الناس :

أتباع الأنبياء الكذبة الذين زعموا أن بعد محمد نُبوَّة .

= وإلى أن يأتى هذا اليوم لا مفر من وقوع مصادمات غاية فى العنف بين الجمهورية السوفييتية والدول البرجوازية » .

وقد صرَّح « ستالين » بما يؤكد هذا المعنى وما يدل على أن الشيوعية لا تطيق بقاء نظام مضاد لها فى هذا العالم .

ومانعى الزكاة الذين صدّقوا ببعض تعاليم الدين ونكلوا عن بعضها الآخر .

لقد عدّهم المسلمون مرتدين جميعاً ، وخارجين على الإسلام أصلاً وفرعاً .

ذلك أن الإسلام يمزج مزجاً تاماً بين ما نُسميه فى عصرنا « قيماً روحية » وبين أركان الشريعة وفروعها المتشعبة فى المجتمع تشعب الجهاز الدورى فى الجسم الإنسانى .

أياً ما كان الأمر فقد تواترت التصريحات على أفواه زعماء الشيوعية كلهم أن الدين لا مكان له فى العالم الذى يبنونه ، وأن الأوّلين إذا كانوا من الغباء بحيث قبلوه فإن التقدم العلمى جدير فى هذا العصر بأن يأتى عليه من القواعـــد ... !!

فالدين يُحارَب أولاً لأنه خرافة تستحق الزوال !!

ثم لأنه يُشكّل المجتمع بطريقة فاسدة ، ويضع له قوانين وأعرافاً يرفضها الفكر الشيوعى !!

ودين كالإسلام يُعد النظم المالية والسياسية جزءاً من كيانه يستحيل أن يتلاقى مع الشيوعية فى ميدان الحياة العملية استحالة التقائه بها فى ميدان العقيدة القلبية .

وقد واجهت الشيوعية يوم ظهرت فى روسيا أكثر من مائة مليون مسيحى وقريباً من خمسين مليون مسلم ، وكانت الحالة الدينية بين الفريقين معاً لا تسر.

فالمسلمون - كما سنشرح حالتهم فى الفصل التالى - كانوا مُستذَلين مغلوبين على أمرهم معزولين عن الكتلة الإسلامية الكبرى ، دائخين تحت استبداد القياصرة ...

وأما المسيحيون فمع ارتباطهم بكنائسم فإن النصرانية كانت تترنح أمام التقدم العلمى والأفكار الحديثة .

وزاد الطين بَلّة أن بعض رجال الدين الكبار أثرت عنه مسالك شائنة مما أوهى مكانة الدين نفسه وجرأ خصومه على النَيل منه .

ومع انفجار الثورة الحمراء أخذ الثوار يكيلون ضرباتهم للدين ، ويهدون سلطانه الموروث .

ولكن هذا الصراع المر كان ولا يزال كثير المغارم متقلب المراحل ، ومن الواجب أن نتأمل أدواره منذ بدأ إلى يومنا هذا .

يقول الشيخ عمر السكندرى رحمه الله :

فى عهد الحكومة القيصرية كان القيصر منذ حكم بطرس الأكبر هو الرئيس الأعلى للكنيسة الروسية التى هى فرع من الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية . فكانت الكنيسة بما لها من كبير النفوذ بين الشعب أداة قوية فى يده ، يُغدق عليها فينال منها نظير ذلك الولاء والمعاونة الصادقة .

لذلك كله كان من الطبيعى أن يُوجس الشيوعيون خيفة من الكنيسة وأن يجعلوها فى مقدمة الأهداف التى يَصوِّبون إليها ضرباتهم . فبادروا باصدار مرسوم ٢٣ يناير سنة ١٩١٨ المشهور معلناً فصل الكنيسة عن الحكومة وفصل المدارس عن الكنيسة .

وأدمجوا ذلك فى دستور سنة ١٩١٨ وفى تعديله الصادر عام ١٩٢٥ بالنص الآتى :

« ضماناً لحرية الضمير لدى العمال تُعَد الكنيسة منفصلة عن الحكومة ، والمدارس منفصلة عن الكنيسة . ولكن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع » .

وفى تعديل سنة ١٩١٩ للدستور أبدلت عبارة « حرية الدعاية الدينية واللادينية » بالنص الآتى : « حرية إقامة الشعائر الدينية وحرية الدعاية اللادينية مكفولتان لجميع المواطنين » .

وقد احتُفظ بمثل هذا النص فى دستور « ستالين » لسنة ١٩٣٦ الذى لا يـزال قائماً .

والعبارة بالضبط كما جاءت فى المادة ١٢٤ من الدستور الحالى هى : « لكى يستمتع المواطنون بحرية الضمير تُفصل الكنيسة فى الاتحاد السوفييتى عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ويُكفل لجميع المواطنين حرية العبادة الدينية كما تُكفل لهم حرية الدعوة ضد الدين » .

وهذه الصياغة الماكرة تظهر لأول وهلة وكأنها تنازل من الشيوعية عن بعض مبادئها ، بل قد تُحسب خطوة إلى الحرية بمعناها المألوف فى أقطار الغرب .

والأمر غير ذلك يقيناً ، فإن الذى أذنت به الشيوعية بقايا تدين يُتيح للإنسان أن يدخل الكنيسة أو المسجد أحياناً ولا مجال لتدين بعد ذلك .. !!

على أن هذا المرء المتدين يُعتبر شخصاً متخلفاً ، أو منحرفاً ، ويستحيل أن يكون له فى الدولة أو الحزب مكان .. !!

كما أن هذا المتدين لا يجوز له بتة أن يُعلِّم ابنه إيماناً أو صلاة فذلك محظور.

أجل ذلك محظور ، مع أن وسائل الإعلام - وهى جميعاً فى يد الدولة - تعمل علاً متواصلاً على سحق الدين ، واجتثاث جذوره ، وذلك يقع بعد التخرج من مدرسة غرست الإلحاد فى دمه ، وجرّأته على احتقار كل ما يتصل بالسماء...

وتنص المادة ٥٨ من قانون الاتحاد السوفييتى على أمور ذات بال .

إن هذه المادة وضعت جميع المتعبدين تحت باب « أعداء الثورة » وأباحت لرجال الشرطة فى شتّى الظروف السياسية أن يقتحموا بيوت هؤلاء المتعبدين ، ويتولّوا أمورهم بطريقتهم الخاصة .

وتنص المادة ١٢٢ من قانون الجنايات المذكور على تحريم تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية سواءً فى مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المختلفة . وجعلت كل مخالفة فى هذا الشأن جريمة تستوجب الحبس الاصلاحى مع الأشغال مدة لا تزيد عن سنة .

ويقول الأستاذ محمد سامى عاشور :

إن هذا الاضطهاد قائم رغم ما جاء فى الدستور السوفييتى بشأن الحرية الدينية ، لأن هدف الشيوعيين الذى لا يحيدون عنه أن يُحرموا الدين من أسباب الحياة ، وأن يدعوه يذبل وينتهى وكأنه مات ميتة طبيعية .. !!

* * *

قد يقول قائل : إن الشيوعية لم تصنع أكثر مما صنعته دول أوروبا الحديثة التى عزلت الدين عن الدولة وجعلت الكنيسة بعيدة عن المجتمع والسياسة !!

ونحن نُسارع إلى دحض هذه الشُبهة وبيان الحق فى موقف الدول الغربية عموما من المسيحية .

إن هذه الدول تَخلّصت من سلطان رجال الدين ومن كهنوت الكنيسة المُفعمَ بالمآسى التاريخية .

أما الكنيسة نفسها ، أما المسيحية ذاتها ، فإن هيمنتها الروحية والاجتماعية على أوروبا وسياستها لا يُنكرها إلا أحمق ! بل أستطيع القول : إن المسيحية الآن فى عصرها الذهبى .. !!

لقد احتلت الدول الغربية أقطاراً فيحاء من الأرض فبنت فيها ألوف الكنائس، ونصرّت ألوفاً مؤلّفة من الخَلق ، وأقامت حكومات شديدة التعصب للنصرانية فى إفريقية وآسيا ، حكوّمات أثخنت الإسلام بالجراح ، وأرهقته من طول الكيد...

إن دول الغرب لم تتنكر فى سياستها الداخلية والخارجية للديانة المسيحية إلا فى أمور لا محل لشرحها هنا .

وأمامى الآن تحقيق [1] صحافى كبير كتبه الأُستاذ على حمدى الجمّال عن أحوال هولندا الداخلية نقتطف منه هذه المعلومات :

---

(١) الأهرام فى ١٩٦٦/٧/١٧

قال : فى مؤسسة العمل سألتُ دكتور « بلس » السكرتير العام للمؤسسة عن النظام المتبع فى وضع السياسة العمالية فقال لى :

هناك اتحاد للعمال وآخر لأصحاب الأعمال وكل منهما مُقَسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها يضم الكاثوليك - والثانى البروتستانت - والثالث الذين لا يؤمنون بالاعتراف أمام الكاهن .. !!

وهما ممثلان أمام المجلس الاقتصادى الذى يضم الخبراء من الأساتذة ... إلخ.

قال الأستاذ الجمَّال : وسألتُ هل هناك مشروع تنفذونه لتنظيم الأسرة ومواجهة الزيادة فى عدد السكان ؟

وكان الجواب : نعم .. سوف نشجع كل الوسائل تنظيم الأسرة ، ولكنا لم نبدأ هذا المشروع بعد !!

والعقبة التى تواجهنا هى أننا نمنح العاملين علاوات حسب عدد المواليد ولا ندرى كيف نواجه المشكلة [1] .

كذلك فإن الكاثوليك يعترضون على تحديد النسل .

والدين هنا - كما أظنكَ قد لمستَ - له أثر كبير على تصرفاتنا .

قال الأستاذ الجمَّال : وهذه حقيقة لا جدال فيها ... !!

إن الأديان فى هولندا بل فى أوروبا كلها لها وضع غريب يُحدِّد كل مجالات الحياة فيها وعلى الأخص السياسية ، فالأحزاب تقوم على أساس المذهب الدينى . بل إن اللَّون الدينى رجع على وحدة المهنة ، فهناك حزب الكاثوليك ، وحزب البروتستانت ، وحزب الأحرار ، والحزب الشيوعى ، بين أصحاب الحرفة الواحدة ...

---

(١) أى أنهم لم يصنعوا شيئاً قط لتحديد النسل الذى حرص الصحافى المصرى على الانتفاع برأيهم فيه ... ثم عجز للأسف .. !! وقد جُنَّت صحافتنا أياماً طويلة بالدعوة إلى تحديد النسل ، وأسفَّت فى مهاجمة الذين سكتوا أو اعترضوا ، وذلك سر سؤال الصحفى المصرى للهولنديين ، وقد رأيتَ بِمَ أجيب ؟؟

قال : ولم أسع إلى مقابلة أحد من أحزاب اليمين فآراؤهم معروفة ، وتزمتهم ليس موضع نقاش ، وتفكيرهم لا يقبل جدلاً !!

قال : وشجعنى على عدم الالتقاء بهؤلاء قصة سمعتها من شاب هولندى رواها لى فى معرض الحديث عن الأحزاب السياسية .

فإنه عندما كانت أندونيسيا تكافح لنيل استقلالها وكانت الأحزاب المختلفة تتنافس فى إبقاء الاستعمار الهولندى بها وقف أحد النواب فى البرلمان وقد أمسك بيده نسخة من الإنجيل وقال : إن فى هذا الكتاب المقدس فقرات تثبت حقنا فى احتلال أندونيسيا .

قال الشاب الهولندى المتحرر : ولم يقف نائب واحد من أى حزب ليعترض على هذا السخف !! [١] .

نقول : ونحن نعرف مدى تعصب الغربيين ، وطالما ندَّدنا به وحذَّرنا منه .

ولكن سياسة وأد الإسلام التى اختطها الإنجليز فى هذا الوادى البائس ، جعلت لفيفاً كثيفاً من حملة الأقلام يناوئنا باسم انفصال الدين عن الدولة .

والدين عندنا هو الإسلام ..

وباسم إبعاد الدين عن الدولة بدأت حملة خطيرة لتزييف التاريخ فى الماضى والحاضر ، ودحرجة الحقائق المقرَّرة ...

فقيام إسرائيل على أساس دينى ، وفى أحضان التعصب المسيحى غير صحيح !!

الصحيح أنه استعمار فقط !! لا صلة له بيهودية ولا نصرانية ... !

والحروب الصليبية التى كان الدين نافخ نارها ، ومُجرى دمائها ليست حروباً دينية ... !!

---

(١) الدين بأسوأ معانيه يكمن وراء سياسة الغرب بإزاء الاسلام والمسلمين ، ذلك فى الذى تبتعد فيه السياسة العربية عن الدين ، لأنها سياسة عصرية !!

الصحيح أنها حروب استعمارية فقط ، لا صلة للصليب بها . !!

والهدف من هذا الكذب ؟

إبعاد الدين – أى الإسلام – وحده عن الميدان ... !!

وإبعاد الإسلام عن ميادين الحياة كلها هدف يتضافر عليه الرأسماليون الغربيون والشيوعيون الشرقيون على سواء .

ونخلص من هذا الاستطراد إلى أن الحالة الدينية فى ظل الشيوعية لا تُشبه أبداً وضع الدين فى الغرب . فإن المجتمع الشيوعى يقوم ظاهراً وباطناً على الكفر المطلق .

وهو قد يأذن أن يهمس رجل بينه وبين نفسه أو بينه وبين صاحب له باسم الله وقد يتركهما – مع إزرائه عليهما – يدخلان بيتاً لله .

أما أن يكون لله فى المجتمع نفسه اسم أو أمر أو نهى فذاك مستحيل .

والشيوعية لم تسمح بهذا القَدر الحقير من التدين الفردى إلا بعد عراك هائل.

أما موقفها من الدين نفسه ابتداءً فهو الإنكار والخصام .

يقول « كارل ماركس » فى « المانفستو » الذى أودع فيه مبادئه وجادل فيه خصومه : « أما ما وُجهَّ للشيوعية من تهم دينية وفلسفية وأخلاقية فلا يستحق بحثاً عميقاً ... !! » .

عجباً .. إن الشيوعية متهمة بإنكار الله والرسل والحلال والحرام والبعث والجزاء ، فهل هذه القضايا كلها لا تستحق بحثاً عميقاً ؟

ذاك ما يراه هذا الـ « كارل ماركس » !!

ما الذى يتسحق إذن عمق البحث ؟ لقمة الخبز فقط .. ؟

أكل ما يتصل بالإنسانية الرفيعة نلقاه بقلة الاكتراث وهز الرأس ، ولا يشد انتباهنا فقط إلا رغيف الخبز ؟؟

ثم يمضى ماركس قائلاً : « هل يخفى على ذى بصيرة أن آراء الناس ومداركهم ومشاعرهم كلها تتغير بتغير أحوالهم المادية وعلاقاتهم الاجتماعية ونظام معيشتهم » ؟

نقول : هذا باطل .

فإن الإنسان قد يتغير تقديره لبعض الأمور أو إحساسه بها لتفاوت ظروفه النفسية أو الفكرية أو البدنية .

أما أن جميع الحقائق تتبع – تصوراً وتصديقاً – الأحوال الاقتصادية فكلام فارغ .. !!

فكم من حقائق صلبة لا يغيرها اليُسر والعُسر ، ولا الذكاء والغباء ؟

ولكن ماركس يمضى فى لغوه فيقول فى جزم : « وهل من شىء أكثر وضوحا فى تاريخ تطور الأفكار من أن الانتاج الفكرى يتغير فى نوعه بنسبة تغير الإنتاج المادى ؟

إن الآراء التى سادت فى كل عصر كانت دائماً آراء الطبقة الحاكمة . فعندما كان العالَم القديم يلفظ أنفاسه الأخيرة أخذت الديانات القديمة تنهار أمام المسيحية .

وبمثل ذلك انهارت الآراء المسيحية أمام حرية الفكر وحرية الضمير فى القرن الثامن عشر عندما أسفرت المعركة الأخيرة بين المجتمع الإقطاعى والبورجوازية الثائرة عن القضاء على العهد الإقطاعى » .

سيُقال رداً على ذلك : إن الآراء الدينية والأخلاق والفلسفة قد تغيَّرت كلها بلا شك خلال التطور التاريخى . ولكن لا يزال توجد ديانة وأخلاق وفلسفة وعلوم سياسية وقانون ، وهناك فوق ذلك عناصر أزلية للحقيقة مشتركة بين جميع أطوار المجتمع كالحرية والعدالة وغيرها ، ولكن الشيوعية تريد القضاء

على الدين والأخلاق بدلاً من إقامتهما جميعاً على أساس جديد ، فهى لذلك تخالف جميع السنن التاريخية السابقة .

ويسمع ماركس هذا الاعتراض الصادق ثم يراوغ بل يفر من الإجابة عليه ويقول فى صفاقة واستهزاء : « فما قيمة هذه الاعتراضات ؟

إن تاريخ المجتمع فى جميع أطواره السابقة إنما هو تاريخ تطور النضال الطائفى ، ذلك النضال الذى اتخذ أشكالاً مختلفة فى العصور الأولى ، ولكن مهما اختلفت هذه الأشكال فإن حقيقة واحدة كانت عاملاً مشتركاً بين جميع العصور التى ظهرت فيها . هى استغلال جزء من المجتمع للجزء الآخر .

فلا عجب إذا كان الوعى الاجتماعى فى العصور الماضية رغم تعدد صوره ومظاهره قد سار دائماً داخل نطاق مشترك وعلى أساس قضايا معينة لا يمكن زوالها جملة إلا بزوال النظام الطائفى نهائياً » . ويستطرد كارل ماركس فيقول :

« إن الثورة الشيوعية هى أنجع استئصال لعلاقات الملكية التقليدية فلا عجب إذا كان تطورها يقتضى قطع كل صلة بالآراء التقليدية » .

ويقول الشيخ عمر السكندرى رداً على هذا اللغو : « لقد بدأ « المانفستو » المحاجة فى هذا الاعتراض كما رأينا بقوله : إنه « لا يستحق بحثاً عميقاً » فهل إنكار الأديان لا يستحق بحثاً عميقاً ؟

إن ردنا على ذلك أن هذا الكلام هو الذى لا يستحق بحثاً عميقاً .

أين برهانكم المادى معشر الشيوعيين على أن لا حقيقة للأديان ، وأنها جميعاً من وضع البشر ؟

لقد قيل عنكم - بنص كلامكم - إنكم تريدون القضاء على الدين والأخلاق . فكل جوابكم على ذلك : « وما قيمة هذه الاعتراضات » ؟ وتعودون إلى الكلام عن تطور النضال الطائفى واستغلال جزء من المجتمع للجزء الآخر !!

إن هذا فرار مكشوف من مواجهة الحق والسير معه » .

والحقيقة أن كفر الشيوعيين بالله ليس إلا ترديداً لزيغ بعض القدماء الذين قالوا : إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يُهلكنا إلا الدهر .

والشيوعيون لم يأتوا بدليل جديد لهذا الباطل القديم .

ولم يثبت قط في معامل الكيماويين ولا في مراصد الفلكيين أن الدين خرافة.

بل الراسخون في العلوم الحديثة يؤكدون انبثاق العالم عن رب بديع حكيم مقتدر قيوم .

والجديد الذي وسّع به الشيوعيون ميدان الإلحاد هو استغلال الاضطراب الاقتصادي لإنكار الألوهية ، واستغلال انحراف بعض رجال الدين لإنكار الدين نفسه !!

مع أن الإسلام ندّد بهذه الآفات وعمل على إزالتها وهو يقيم الدين الحق . وذلك في قول الله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

وشيء آخر ابتدعه الشيوعيون لدعم الإلحاد ... وهو إثارة الحقد الطبقي ، ثم استغلال سلطة الدولة في فرض الكفر بالسلاح .

ولو أن الشعوب ملكت أمرها واستمتعت بحريتها الطبيعية لأرست قواعد الإيمان بينها وأحلّت الدين أرفع المنازل .

والواقع أن الدولة في النظام الشيوعي تفرض وجودها داخل البيت ، وتجعل صلة المرأة بالرجل ، وصلتهما معاً بالأولاد في إطار الفلسفة المادية السائدة ..

ومن الإنصاف أن نعترف بأن المدنية الحديثة في الشرق والغرب هوّنت جريمة

(١) التوبة : ٣٤

الزنا ، ويسَّرت اللّقاء بين الذكر والأنثى ، وعدّت ذلك استجابة عادية لنداء الغريزة الجنسية المِلحاح ..

وفي وسط هذا البحر الموّار من الاستباحة العامة قد يختار رجل أنثاه أو تختار أنثى رجلها .. وتُولد أسرة ويُوجد أولاد .

وربما اصطبغت الأُسرة بالطابع الديني في الغرب المسيحي .

وربما استطاعت السير وسط الأنواء الجنسية سليمة أو معطوبة ..

وقد يحدث شيء شبيه بهذا في العالَم الشيوعي فتتكون أسر بادية الترابط تحت ظروف خاصة ..

غير أن الشيوعية ترفض بحسم جو الأُسرة الموروث من قديم ، والمشاعر التي تمزج بين رب البيت وأولاده وامرأته ..

وقد جاء في الأبجدية الشيوعية لماركس : « حين يقول الوالدان : هذا ابني وتلك ابنتي لا تعني هذه الكلمات وجود آصرة أبوية فحسب ، بل تُوحي بأن للأبوين حقاً في تربية أولادهم من وجهة نظرهم كما يريدون ، والاشتراكية تأبى الإقرار بهذا الحق للآباء ، لأن الفرد ليس ملك نفسه ولكنه ملك للجماعة ، بل هو ملك للبشرية كلها ...

ولهذا يجب أن ينتمي الطفل للمجتمع الذي يعيش بين ظُهرانيه ، والذي جاء إلي الحياة بفضله .. »

وكلام ماركس في سلخ الأولاد عن التأثير المادي والأدبي للبيت ، وتمكين الدولة من مد رواقها عليهم ، هو جزء من فكرته المطلقة في فرض الشيوعية على الحاضر والمستقبل ، وتذليل كل عائق أمام هذا الهدف ..

* * *

والأُسرة في نظر الدين كيان تطرد به مواكب الحياة باسم اللّه ، وعلى هُداه ..

إنه لا نزاع في وجود الشهوة لدى الجنسين ، بيد أن لقاء الرجل بامرأته - وهو اللّقاء الوحيد الذي يقبله الدين - لا يتم إلا بعَقد تُستحل فيه الفروج بكلمة الله وإذنه ...

فإذا تكوَّنت الأسرة على هذا الأساس الفذ ، تعاون أفرادها من بعد على طاعة الله وإرضائه ، وكان من الطبيعي أن ينشأ الأولاد على دين أبويهم ، وأن يُقيموا شعائر الدين منذ نعومة أظفارهم ..

والشيوعية ترفض هذين الأمرين معاً ، في قيام الأسرة في وظيفتها .

لأن الالحاد - كما يقول لينين في كتابه عن الدين - جزء طبيعي من الاشتراكية ، بل هو شطر لا انفصام له عن الاشتراكية نظرياً وعملياً ..

ويقول ماركس في أبجدية الشيوعية : « لا غناء في الوقت الحاضر عن شن أشد الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته » !!

ومع إنكار وجود الله يفقد نظام الأسرة دعائمه ، ويصبح الزنا عملة رائجة ، وتصبح تربية الأولاد مهمة حقيرة وتافهة .

ودعاة الشيوعية إلى يومنا هذا حراص أشد الحرص على زلزلة كيان البيت ، وعلى تنمية العلاقات الآثمة بين الذكور والإناث .

وقد لاحظنا في القاهرة أن الشيوعيين المصريين يعملون بقوة على اشاعة هذا الرجس ، إذ نشرت مجلة الهلال (في ١٩٦٦/١/١) مقالاً ضد الزواج طافحاً بأوسخ الأفكار ..

وقد شاء رئيس التحرير - واسمه كامل زهيري - أن يجعل هذا المقال صدر مجلته ، وأن يُعلن عنه وحده على غلاف العدد .

وهذا العدد من مجلة الهلال عدد ممتاز يتضمن « موسوعة الجيب الاشتراكية .. من الاشتراكية الخيالية إلى الواقع المعاصِر » .

وفي هذا المقال عَرْضٌ لكتاب « سيمون دي بوڤوار » عن « الجنس الثاني ».

وسيمون هذه لا توارب ولا تلف في ذكر أفكارها ، فهي ترى أن الزواج الذي قرَّرته الأديان شيء سخيف . وأن من حق المرأة أن تُعاشر مَنْ تُحب ، وإذا كانت متزوجة فلا يسوغ إكراهها على الرضا بشخص واحد .. وإذا كان زوجها يضيق بحملها من شخص آخر فإن العلم تغلَّب على هذه المشكلة بحبوب منع الحمل !!!

والمقال مشحون بالدفاع عن الزنا وإعطاء الرجل والمرأة معاً الحرية المطلقة في إشباع الغريزة الجنسية .

لأى رجل أن يفترش أى امرأة ما دام الحب التلقائي هو الباعث !!

وكذلك يتقرر هذا الحق لأى امرأة !!

وقد طبَّقت سيمون دي بوڤوار هذا الكلام على نفسها فعاشت عشيقة فقط لجان بول سارتر ، لا زوجة .

وظاهر أننا أمام مومس مُوغِلة في الإجرام ..

وظاهر أنه لا يرضى بكلامها السابق إلا ديُّوث أو قوَّاد ..

ومع ذلك الدنس المفضوح فإن الشيوعيين المصريين رأوا استقدام هذه المومس وعشيقها إلى القاهرة كيما يتحدثا إلى المثقفين في الجمهورية العربية المتحدة !!

إن المهم عند هؤلاء ليس توطيد الجانب الاقتصادي من الشيوعية العالَمية ، بل يجب أن يسير معه وفي ذات الخط توطيد الجانب الاجتماعي .

وذلك بِدَكِّ أسوار الدين ، ومحو معالم العقيدة ، وتمزيق شمل الأسرة ، وجعل « العشق » علاقة محترمة تتيح لأصحابها اقتحام أعلى الأماكن !! .

وبوغتنا بأسرة تحرير الأهرام : محمد حسنين هيكل ، ولطفي الخولي ، ولويس عوض يستضيفون العاشقَين ..

ثم أخذت أبواق الدعاية تُدير الأدمغة من شدة الطنين .

فإذا الندوات تُعقد والمحاضرات تُلقى ، والراديو يتحدث ، والتليفزيون ينشر المشاهد والمحاورات ..

وإذا الجامعة الكبيرة ، جامعة القاهرة ، تُحشد أساتذة وطلاباً للاستماع إلى بطل الوجودية الملحدة ، وهو يكذب على الله والحقيقة ...

وإذا دار الأهرام تحج إليها السيدات للالتقاء بالمومس الوقاح وهي تناقش وتُوجِّه وتُشير ... !!!

ونظرتُ إلى هذه الزوبعة المفتعلة المتعمدة ، والغليان المكتوم يكاد يصدع قلبي !!

وأدركتُ أن الشيوعية لا تريد أن تُفرِّط في شيء من تعاليمها مهما كانت طبيعة البيئات التي تحاول أن تتغلغل فيها ..

أو أن الشيوعيين المصريين وهم يحاربون الفقر وتفاوت الفرص – كما يزعمون – لا ينسون أن يحاربوا الله والشرف والفضائل والعبادات ..

إنها جبهة واحدة يقاتِلون فيها عدواً مشتركاً !!

أترى هؤلاء اليساريين العرب خالفوا إخوانهم الماركسين الذين ظهروا منذ قرن؟

كلا .. إن المشرب واحد ، والسيرة واحدة ، وتلك طبيعة الشيوعية .

ونشرت صحيفة « تن بات باو » في هونج كونج في عددها الصادر في ١١ أكتوبر الماضي منشوراً وجهه الحرس الأحمر في الصين للمسلمين جاء فيه :

« يا رجال الحرس الأحمر المقاتِلين : إنكم تقومون بعمل حسن . واصلوا عملكم . وأنتم مكافحون ضد « البورجوازية والإقطاعيين » الذين مصُّوا دماءنا وأكلوا لحمنا وعظَمنا ، والآن جاء دورنا لامتصاص دمهم وأكل لحمهم .

« يا رجال الحرس الأحمر : لا يمكن أن ندع عدواً من أعدائنا يهرب ، وعلينا من الآن فصاعداً أن نهاجم أكثر الأعداء تخفياً – المسلمين – الذين يقومون بنشاط ضد الحزب وضد الصينيين تحت قناع الدين المزعوم .

ويختبىء أولئك المسلمون في الجوامع وبتوجيه من الاستعماريين .

كما تسيطر عليهم الدول الأجنبية ضد بلادنا وشعبنا العظيم وزعيمنا الجزيل الاحترام الرئيس ماو ...

من الآن فصاعداً لن يُسمح لكم بأن تضعوا قناعكم الديني على وجوهكم ، سنطردكم ونُدمِّركم ، ومن اليوم فصاعداً لن يسمح لكم بأن تأكلوا لحم الأبقار لأن الأبقار تخدم الشعب .. يجب أن تأكلوا لحم الخنازير ...

ولا يمكنكم من الآن فصاعداً أن تُضيِّعوا وقتكم في الصلاة .

يجب ألا تتكلموا اللُّغة العربية التي هى ضد اللُّغة الصينية .

ولن يُسمح لكم بأن تقرأوا ما يُسمى بالكتاب المقدَّس « القرآن » .

اسمعوا أيها المسلمون .... دمِّروا جوامعكم !! حلوا المنظمات الإسلامية ، أحرقوا القرآن ....!

الغوا الحظر الذي وضعتموه على الزواج المشترك .. كُفوا عن الصلاة .. ألغوا الختان .. ادرسوا أفكار ماو ...

إذا لم تندموا سنطردكم ونُدمِّركم .. يجب أن نسحق جحور الجرذان الدينية ، ونُدمِّرها معكم .

فلتحيا الثورة الثقافية الكبرى .

فليحيا طويلاً طويلاً الرئيس ماو » .. [١] .

إن هذه الحملة المسعورة على الإسلام وأهله ليست مُستغربة .

وما يُنتظر غير ذلك يوم تستولى الشيوعية على مقاليد الأمور .

ولكن الذي ألفتُ إليه الأنظار أن الشيوعية لما دخلت الصين دخلتها بشقيها الاقتصادي والإلحادي معاً ، فما من سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر ..

---

(١) عن مجلة الوعي الإسلامي .

وعبارة « الزواج المشترك » التي وردت في بيان الحرس الأحمر هى التعبير الملطف الذي وضعته المدنية الحديثة للزنا ..

فاتصال المرأة بجملة رجال زواج مشترك ، واتصال الرجل بجملة نساء متزوجات أو غير متزوجات كذلك .

والمطلوب من المسلمين أن يرفعوا الحظر الذي فرضوه على هذا الزواج كى يرضى الحرس الأحمر !!

والموضوع كله يتصل بكيان الأسرة من أساسه وبوظيفة الأسرة الاجتماعية .

وقد رأينا الشيوعيين وأذنابهم في القاهرة نفسها يتابعون سادتهم في سياسة هدم الأسرة .

ما نشرته مجلة الهلال لتلميذة سارتر الأولى ، أيّدته ووسّعت مجاله جريدة الأهرام ، قبل وبعد استضافتها لسارتر ..

ثم زادته توكيداً بما نشرته من مقالات متتابعة « لبرنارد رسل » الإنجليزي اليسارى الملحد .

ومحنة الفكر الديني في مواجهة هذا البلاء تستحق النظر ..

فإن الشيوعية في نقضها للإيمان ، وهدمها لآثاره تستعمل الختل والمراوغة حيناً ، وتلجأ إلى القوة والإبادة حيناً آخر ..

وهى لا تنسى أبداً أن الوحى السماوي يجب أن يزول وتزول معالِمه على ظهـــر الأرض ..

ومع هذه الغاية المُبيِّتة فإن الأستاذ هيكل لم ير حرجاً أن يقول : إننا سنخاصم الشيوعية إذا هاجمت الدين .

وفي الوقت الذي كتب فيه هذا الكلام ، أو بعده بقليل ، كان يُمهِّد الطريق بقوة لضرب الدين في صميمه .

وقد فعل في هذا السبيل ما لم يفعله أحد ، إذ استقدم سارتر وسيمون - ممثلي الإلحاد السافر والانحلال العفن - ليُوجها المجتمع العربي كله بفلسفتهما .. !!

وأسرة الأهرام - وجلُّها من الشيوعيين - إذ تفعل فعلتها هذه تُزيح القناع عن غرضها القديم يوم دعت إلى ترك الشيوعية تسير ..

وليس هذا النفاق مثار شكوانا .

إن مثار الشكوى هو تعجيزنا عن الرد والمقاومة في ميدان الفكر المفتوح ..

ولو كان صوت الإيمان يملك نصف القوى التي يملكها صوت الإلحاد لتلاشى الزيغ من بلادنا .

لقد اجتمع نفر من رؤساء الجماعات الإسلامية في المركز العام للشبان المسلمين وتشاكوا بينهم حالة الدين والخلق ، وأبدوا مخاوفهم من أمواج الفسق التي ترش أكناف الحياة عندنا .

وكانت وسائل الإعلام يومئذ تُرحِّب في حرارة هائلة بقدم العاهرة سيمون دي بوڤوار وعشيقها سارتر ..

ولهذا الترحيب دلالته في هزيمة الشرف ، واستخذاء الإسلام ، وانهيار الصفوف المؤمنة ..

وتحدثتُ في وفود الجماعات الإسلامية التي تلاقت لمواجهة هذا الموقف ..

وأذكر أنه كان بين الحضور المجاهد الاسلامي اللواء الركن محمود شيت خطاب الوزير العراقي السابق .

وانتهي المؤتمر بضرورة تكوين لجنة دائمة بالمركز العام للشبان المسلمين تصد هذا السيل المُدمِّر ..

ولم تمض إلا أيام قلائل حتى صدر قرار بحل مجلس إدارة الشبان المسلمين ، وتعيين رئيس جديد للجماعة .

وانتهى هذا النشاط المحذور .. !!

واستقر في الأذهان أن نقد سارتر وعشيقته مجلبة للسخط والشتات .

لماذا ؟ لأن مخاصمة جريدة الأهرام مخاصمة للاتحاد الاشتراكي !! .

وهذه مخاصمة للدولة والشعب جميعاً .. !

وتدحرجت الأمور إلى أسفل وأسفل ، فلم تُبق للدين ولا للأعراض قداسة بعد هذه الحفاوة الرسمية بالرجل الذي يحتقر الدين . والمرأة التي تزدرى الزواج .. !

وبلغتني قصة مؤسفة من صحن الأزهر الشريف ...

فقد ذهب سارتر وعشيقته ومعهما لويس عوض وتوفيق الحكيم لزيارة الجامع الشهير ..

ورأى الطلاَّب المرأة التي تقود دعوة عالَمية للبغاء ، والرجل الذي يستهزىء بالألوهية ، وينشر الوجودية الملحدة ..

فتغيَّرت وجوههم وسرى الهمس بينهم عن ضرورة إعلان غضبتهم .

ورأى المراقب المسئول هذا التنمر المقلق فصاح محذِّراً الطلاَّب : إن لدىَّ أمراً من مشيخة الأَزهر بتمكينهم من التجوال فيه ..

ولكن همسات الغضب بدأت تعلو فقال المراقب محذراً : إنكم بهذا الموقف تعملون على إلغاء الأزهر .. !!

وحضرتُ أنا نفسي في أعقاب هذا الحوار وكان الركب المشئوم قد خرج مسرعاً ، وقلتُ للمراقِب : كيف سمحتم لهذا الصنف من الناس أن يدخل الجامـع الأزهر ؟

فقال : أمر المشيخة !!

قلت : أى مشيخة ؟ ان الذي أصدر هذا الإذن لا يدري ما يفعل مهما كانت مكانته .

وقلتُ موجهاً خطابي للطلاّب : لقد أحسنتم في إظهار احتقاركم لهؤلاء الزوّار الصغار ، إن الأزهر لا يُلغي باستنكاركم لدخول هؤلاء فيه ، انما يُلغى الأزهر بسكوتكم ونكوصكم ، ولعنة اللّه على شيوخ لكم اتخذهم الباطل مطايا له ..

وعدتُ إلى نفسي أتساءل : أبَلَغَ من هوان الأزهر أن يُلغي لأنه اعترض على دخول مومس في ساحته يصحبها نفر من قادة الفكر الملوّث ؟

ثم تذكرتُ ما حدث لجماعة الشبان المسلمين فغُصتُ في بحر من الحيرة .

إن استضافة هذين الشخصين المريبين دلالة صارخة على أن الشيوعيين في القاهرة لا يُفرِّقون بين الدائرة الاقتصادية والدائرة الاجتماعية ..

بل لعلهم أشد حرصاً على دَكِّ قواعد الإيمان في الميدان الاجتماعي ومحو آثاره في العلاقات الجنسية . فإن ذلك يُهوِّن عليهم بقية برنامجهم ...

ومن إذلال الدعاة إلى الإسلام وتحقير شأنهم أن تقوم هذه الضيافة على أنقاضهم فيُغلق كل فم ويُنَكّس كل رأس .

وفي سبيل هذه الاستضافة الفاجرة تُنوسى أمر فلسطين ومنطق الدفاع عنها فإن سارتر وعشيقته أعلنا قبل المجيء إلى القاهرة أنهما سـوف يذهبان إلى تـل أبيب !!

وقد ذهبا ، وصرّحا هناك بأن دولة إسرائيل يجب أن تبقى وأن عداوتها حماقة !!

ومع هذا الميل إلى الصهيونية فإن أُسرة جريدة الأهرام لم تتنازل عن إعجابها بمن أعانها على تحقيق بعض أهدافها في تحقير الدين والأُسرة ..

لقد رأيتُ نساء وُلّين أعظم المناصب في بلادنا يجثون في المحراب الخسيس الذي نصبته جريدة الأهرام للقدّيسة سيمون دي بوڤوار ويقدمن لها الحساب عن حالة المرأة في مصر .

لمن يُقَدَّم الحساب ؟

للمرأة التي تقول : « إن مبدأ الزواج مبدأ فاضح ناب !! لأنه يُحوِّل إلى حق وواجب ما هو بحكم الطبيعة تبادل حر ، ينبغي أن يقوم على الباعث التلقائي » [1] !!

هذا العهر هو الذي تعمل جريدة الأهرام على بعثرة بذوره وتعميق جذوره ..

وعلي غرار الأهرام عشرات من العصابات العاملة في ميدان الإعلام ..

انها تعمل لسحق الإيمان وإشاعة العرض بأسلوب ملتو أو صريح ..

أو كما يقول الدكتور لويس عوض ، كاتب الأهرام الكبير :

« فكرة الزواج على المشاع فكرة تصدم الشعور ، ولكن اذكروا أنه لا شعور في القلم . ثم إن بعض الفلاسفة المثاليين المحترفين من أمثال « أفلاطون » دعوا إليها ، و « أفلاطون » في الجمهورية أوصي بتطبيق الزواج المشاع بين طبقتين في المجتمع ، الطبقة الحاكمة وطبقة الجنود ليكون النسل أبناء الدولة بالمعنى الحَرفي لا بالمعنى المجازي » .

وهكذا يقول الدكتور لويس عوض في كتابه « المحاورات الجديدة » الكتاب الذهبي لدار « روز اليوسف » .

مسكين هذا الجيل الجديد ..

إنه بهذه التربية الماجنة سيكون أحقر جيل وُلِدَ في مصر منذ سبعين قرناً خلت ..

وأريد هنا أن أنكر بعض التقاليد الدينية في الزواج وتكوين الأُسرة لأن مجافاة هذه التقاليد للفطرة كان من الأسباب الأُولى لوقوع الآثام وتوهين الصلة بالله .

إن الزواج هو الحل الفذ لتفجر الغريزة الجنسية وتطلعها الدائم .

---

(١) الهلال في العدد الممتاز : قاموس الاشتراكية ١٩٦٦/١/١

وهو الجو الصحو لإنشاء أجيال زاكية تعرف ربها وتستقيم على أمره وتنضبط بوصاياه ..

ومقتضى ذلك أن يتم الزواج بسهولة ، وأن ينزاح من وجهه أي عائق ..

وقد جعل النبي ﷺ ، المهر خاتماً من حديد ، أو تعليم شيء من القرآن ..

والمجتمع المسلم المقدّر لحدود الله يجعل تيسير الزواج كتوفير الطعام ، وينظر إلى الرباط بين الرجل والمرأة على أنه واقع محترم محتوم .

بيد أن تقاليد الرياء والفخر ، وحب الظهور وعقدة الضعة ، ومشاعر أخرى منكودة عسّرت الزواج وأقامت دونه المصاعب الجسام ، فكانت النتيجة التي لا محيص عنها أن انتشرت المعصية بين الكبار والصغار ، وتنفس الناس في الحرام لما عَزَّ عليهم الحلال ..

والسر في هذه المأساة كبرياء بعض الأفراد والأسر ، والتقاليد التي أقاموها وعبدوها من دون الله ..

وقد ظهرت أعراض الزنا وغيره في أمم إسلامية كثيرة .

أما في الغرب فإن الزنا وباء عاصف ..

والولوغ في عِرض حرام ليس نقيصة تجرح الضمير ، إنه - كشتّى الضرورات أو المرفهات - مسألة رغبة ورضا وحسب !!

وهذا الحال جعلت الشيوعيين يتناولون مبدأ الزواج وعلاقات الأسرة بأسلوب يتسم بالسخرية والاستهزاء .

قلنا : إن من حق الناس ألا ينتظروا من الشيوعيين حفاظاً على عرض ، ولا ضبطاً لغريزة ، ولا احتراماً لحدود الله في صلة الذكر بالأنثى ، لأنه لا إله ، ولا تعاليم مقدسة في هذا المجال الجنسي !!

إن منطق الغريزة هو الذي يسود . ولا مكان أمام تيارها لسدود أو قيود ، إلا ما يتواضع عليه الشيوعيون من عند أنفسهم حفظاً للصحة ومنعاً للاشتباك ، والشجار !!

ويتبع ذلك أن روابط الزواج والأمومة والأبوة تُوزَن بموازين جديدة غير ما ألفت الأمم في تكوين الأسرة ، وحضانة الأولاد ، وغرس التكامل والحنان بين أفرادها .

ولقد قيل للشيوعيين على عهد ماركس : إنكم تريدون القضاء على الأسرة ، وهدم أقدس العلاقات العائلية بإحلال تربية المجتمع للأطفال محل تربية المنزل !!

تُرى ماذا يجيب ماركس عن هذا التساؤل ؟

إن الزاوية التي ينظر منها الرجل إلى هذا الموضوع تُثير في أفئدتنا الدهشة والحيرة . وهاك جوابه :

« إن « البورجوازيين » يتهموننا معشر الشيوعيين بأننا نريد شيوع المرأة ..

إن البورجوازي يرى في زوجته مجرد أداة للإنتاج ، وهو يسمع أننا سنحوِّل أدوات الإنتاج إلى ملكية شائعة ، فيصل بالطبع إلى نتيجة واحدة بالنسبة للنساء . وهو أنه سيسري عليهن أيضاً نظام الشيوع . ولا يخطر له ببال أننا نريد أن نحول دون جعل النساء مجرد أدوات للإنتاج .

أما فيما عدا ذلك فمن أكبر المضحكات أن يثير سخط البورجوازية مايزعمونه من أننا نريد إعلان شيوع المرأة رسمياً . فإن الشيوعيين لا حاجة لهم بابتداع شيوع المرأة لأن هذا الشيوع حاصل فعلاً من مدد مديدة !!

إذ أن البورجوازيين لا يقنعون بوجود زوجات العمال وبناتهم تحت تصرفهم . فضلاً عما هو أمامهم من ميدان البغاء الرسمي . بل يجدون سروراً عظيماً في إغواد بعضهم لزوجات بعض . فنظام زواجهم إنما هو تزويج النساء للجماعات لا للأفراد .

وغاية ما يمكنهم اتهامنا به . أننا نريد أن نستبدل بشيوع المرأة المستتر وراء النفاق شيوعاً علنياً مشروعاً » .

شيوعاً علنياً مشروعاً !!

أهذه هي التهمة التي تسكت عليها وتستريح إليها ؟

نعم . وماذا ترجو من رجل يجحد اللّٰه ؟

إنه ما يتحرّج من إتيان أمه ، وما يضيق بمجتمع من الناس يتسافدون كلما حلا لهم ، أو كلما تحركت شهواتهم .

ونحن نعرف أن الفساد الجنسي منتشر في أرجاء الحضارة الغربية وإن كان ليس عدواناً من أرباب الأموال على زوجات العمال كما يقول ماركس .

إنه عدوان على حدود اللّٰه في نطاق لا أول له ولا آخر ، فالأغنياء والفقراء سواء في اقتراف الآثام ..

وبعيد في حضارة الغرب أن يكتفي الرجل طول حياته بامرأة واحدة أو تكتفي المرأة برجل واحد ..

وهذه الشيوعية في الأعراض لم ينزعج لها قادة الغرب ، وهنا موضع الغرابة !!

فإن النصارى لديهم من بقايا الوحي السماوي ما يُحرِّم عليهم الزنا ، وما يحظر التبرج والاختلاط المؤديين إليه .

فكيف سكت القُسس على هذه المناكر ، بل على ما تفرّع عليها من ألوان الشذوذ ؟

إن الإسلام لما أباح لأبنائه التزوج من اليهوديات والنصرانيات دون الوثنيات والمجوسيات فعل ذلك لأن المفروض في نساء أهل الكتاب إحصان الفروج حسب تعاليم موسى وعيسى ، وبالتالي تنهض الأُسرة على أعمدة من الشرف والتصون ، ويُرَبّى الأولاد في جو من العفاف والاستقامة ..

وهنا نتساءل : هل انعدمت الفروق بين الشرق الشيوعي والغرب الصليبي فيما يتصل بالغريزة الجنسية ومساربها المعوّجة .. ؟

يبدو أن هنالك فروقاً طفيفة ، فالمرء في الغرب بعد الشرود الطويل قد يعود إلى بقايا دين ..ثم هناك خيوط واهية تُبقي شكل الأسرة ومعنى الأبوة والأمومة..

أما في البلاد الشيوعية فقد حكى صاحب كتاب « آثرت الحرية » أن الحزب الشيوعي الروسي فصل واحداً من أعضائه لأنه تزوج داخل الكنيسة !!

إن المعنى الديني لتكوين الأُسرة لا يُعترف به أبداً .

ورباط يُولد بعيداً عن عناية السماء بهذه الصرامة ما تقول فيه وفي ثمراته ؟؟

* * *

وحكمت الشيوعية روسيا وأخمدت أنفاس الدين وإن استبقت نفراً من المتدينين المغموطين التائهين .

وشرع زعماء روسيا الشيوعية في إنشاء الأجيال التي تعتنق فكرتهم وتحيا بها وتعمل على نشرها . وكان الشباب الغض هو العنصر الذي يعتمد عليه الشيوعيون في إقامة فكرتهم ودولتهم .

فلنستمع الى « لينين » يُحدِّد واجبات جمعيات الشبان أو منظمات الشباب في الخطاب الذي ألقاه بالمؤتمر الروسي لاتحاد الشباب الشيوعيين في ٢ / ١ / ١٩٢٠ . ففي هذا الخطاب أكد كفر الشيوعية بالله . وأن لها أخلاقاً غير ما تَنزَّل من وحي السماء .

يبدأ لينين خطابه هكذا :

« أيها الرفقاء . يسرني أن أبحث معكم اليوم في موضوع الواجبات الأساسية لاتحاد الشبان الشيوعيين . وأن أتوسَّع فأبحث بوجه عام في كيف تكون منظمات الشبان إطلاقاً في جمهورية اشتراكية . ومما يزيد في أهمية درس هذه المسائل أن الشباب هم في الحقيقة الجيل الذي سيحمل العبء الأكبر في انشاء صرح المجتمع الشيوعي ، الذي لم يقم جيل العمال الحاضر بأكثر من وضع أساسه » ..... إلى أن قال :

« وهنا يأتي السؤال الهام : كيف يكون تعليم الشيوعية ؟ وما هي الأساليب الخاصة التي يجب أن تمتاز بها طرقنا في التعليم ؟

إن أول ما أرى إيضاحه لكم في هذا الصدد هو دستور الأخلاق الشيوعية .

قد تتساءلون : وهل هناك شيء يُسمى الفضائل الشيوعية ؟

الجواب : نعم . كثيراً ما اتهمت البورجوازية الشيوعيين بأنهم لا يعبأون بالأخلاق وأنهم ينكرون أي مبادىء لها . إن إلقاء الكلام بهذا الشكل إنما هو من قبيل ذر الرماد في عيون العمال والفلاحين .

وإنما الحقيقة عن إنكارنا قواعد الأخلاق أننا ننكر ما تدعيه البورجوازية من أن مبادىء الأخلاق هى أوامر من عند الله ، فنحن بالطبع لا نؤمن بالله . ونعلم تمام العلم بأن القساوسة والملاك والبورجوازية نسبوا الأمور إلى هذا الاسم « الله » لتحقيق مآربهم الاستغلالية » ...

ويواصل « لينين » خطابه فيقول :

« ونحن ننكر كل أخلاق لا يكون مصدرها المدارك الإنسانية ، ونجاهر بأنها جميعاً مجرد غش وخداع وكبت لعقول العمال والفلاحين .

وإن القوة التي تسيطر على أخلاقنا هى مصلحة طائفتنا ، فدستور أخلاقنا مستَمد من حركة كفاحنا العمالية .

لقد كان المجتمع القديم قائماً على أساس ظلم الملاك والرأسماليين للعمال والفلاحين ، لذلك وجب علينا نسف هذا الأساس . ولكي يتسنى لنا ذلك لا بد لنا من الاتحاد ، وأن نوجد هذا الاتحاد بأيدينا فإن « الله » لن يخلقه (نعوذ بالله من هذا الكلام !) إنما الذي يستطيع خلقه هم « البروليتاريا » وحدهم » .

إلى أن قال : « من ذلك ترون أن كفاحنا لم ينته بعد ، ومن هنا نشأت الحاجة إلى نظام الحكم الذي نسميه « الديكتاتورية العمالية » التي لا بد منها لمنع عودة الاستغلاليين القدامى ولتوحيد صفوف تلك الجموع المبعثرة من الفلاحين الجهلاء .

وإذا كان كفاحنا الطائفي لا يزال قائماً ، فواجبنا الأول هو أن نُخضع لمستلزمات هذا الكفاح كل شيء عندنا ، ومن ذلك أخلاقنا الشيوعية .

فالأخلاق عندنا هي أن نعمل كل ما يساعد على هدم المجتمع الاستغلالي القديم وجمع كل صفوف الأيادي العاملة حول البروليتاريا القائمة بإنشاء المجتمع الشيوعي الجديد ... يتكلم الناس أمامنا عن مبادىء الأخلاق . فنقول لهم : إن الأخلاق عندنا معشر الشيوعيين ليست سوى النظام الموّحد والتكتل اليقظ لمكافحة الاستغلاليين .

نحن لا نعتقد في الأخلاق الأزلية . ونُعد كل الأقاصيص الخرافية التي ترمي إلى غرض أخلاقي قولاً هراء . ولا نعرف الأخلاق إلا بصفتها عوناً للمجتمع على الرفع من مستواه والقضاء على كل عمل استغلالي .

لذلك لا تكون تربية النشء الشيوعي بإلقاء دروس الوعظ والخطب الأخلاقية ، بل بإشراكهم في الميدان العملي القائم لتشييد وتدعيم صَرح الشيوعية » .

* * *

أظنه قد وضح من إعلانات زعماء الشيوعية كلهم أن مذهبهم مادي صرف ، وأن تعاليمه - جوهراً ومظهراً - تقوم على أن الألوهية خرافة ، والوحى هراء ، والحياة الأخرى اختلاق .

كذلك .. وهناك ألوف من الإباحيين في الشرق والغرب القديم والحديث يُبطنون أو يُظهرون هذا الكفر . فلِم الدهشة والاستغراب ؟

ثم إن القرآن سبق أن ناقش هؤلاء الملحدين ووصف مذهبهم بدقة : ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُواْ ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ... ﴾ [1] .

---

(١) الجاثية : ٢٤ - ٢٥

ونُجيب بأن ما حدث في هذا العصر لم يُسبق له نظير فيما سَلَف من الزمان . فإن الإلحاد قد يوجَد على أنه عوج فكري ، أو خلل نفسي ، أو انحراف فردي ، أو جهل موقوت ، أو غفلة عامة على أسوأ الأحوال .

أما الإلحاد الأحمر في عصرنا هذا فهو ثورة على الإيمان تبغي قطع دابره ، واجتياح أهله ... !

هو ثورة تتحقق وراء أسباب اقتصادية خطيرة ، وتستظهر بعصبية قوية من العامة المحتاجين والمتطلعين ... !

إن هذا الإلحاد ليس شبهة توشك أن تلحقها الأدلة فتتلاشى .

لا . إنه الواقع وغيره الباطل !!

إنه الجد وغيره الهزل !!

إنه الجدير بالحياة وغيره الجدير بالفناء !!

إن الشيوعية ليست لدى أصحابها رأياً اجتماعياً يمكن أن يُعايش الآراء الاجتماعية الأخرى .. لا .

إنها الرأى الأول والأخير في نظام الحياة الإنسانية ولا مكان لرأى آخر أبداً .

وعلى الشيوعيين أن يتذرعوا بالعنف ما أمكن لهدم الطبقات المناوئة وإخفائها تحت الثرى فلا تبقى على وجه الأرض حياة تتصل بالله .

* * *

نحن المصريين شعب مؤمن يُغالي بإيمانه ولا يُفرِّط فيه أبداً ، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً .

وقد جرى علينا القَدَر الذي جرى على مجموعة البلاد الإسلامية فسقطنا في قبضة الاستعمار عشرات السنين ..

ولم نستنم لهذا المصاب الفادح ، وما زلنا نكافحه حتى أنقذنا الله منه بعد شهداء كثيرين ومغارم ثقيلة .

وكان النظام الملكي السابق ظلاً لهذا الاحتلال الأجنبي أو عوناً له أو بديلاً عنه ولذلك لم يبق طويلاً بعده ...

وكانت أبرز جرائم الملك فاروق في اشتباكه مع الأمة الثائرة عليه قتل الشهيد حسن البنا زعيم جماعة الإخوان المسلمين .. كما كان تنكره للنظام الدستوري وولوعه ومَنْ معه بالمال الحرام سبباً في إطباق الجماهير على إقصائه أملاً في نظام أفضل يُتيح للأمة ما تصبو إليه من إيمان وعفة وحرية وعدالة ..

وقد استطاع الجيش صيف ١٩٥٢ أن يتحوَّل عن الملك بعد ما كان سِناده وأن ينضم إلى الأمة التي رأت في ثورته إنعاشاً لآمالها بعد طول كفاح ..

ولا مكان هنا للحديث عن صلة الإخوان بالثورة ، ولا عن ماضي أبرز زعماء الثورة في جماعة الإخوان وتشكيلاتها السرية ...

وإنما يهمني هنا القول بأن الثورة - يوم قامت - كانت تُحَدُّ بإطار إسلامي خالص ، وأن أحداً من رجالها لم يُعرف في سره أو علنه بلون أحمر ...

وقد كان في مصر شيوعيون مستخفون قبل الثورة وبعدها ..

ولا شك أن نمو العلاقات الاقتصادية والعسكرية مع روسيا مكنَّ الشيوعيين المصريين من التكاثر والعلانية ..

بيد أنهم قلة قليلة إلى يومنا هذا وإن ارتفع صوتهم واتسع سلطانهم ..

ولما كانت العدالة الاجتماعية علاجاً ماساً لمتاعب المصريين المادية والأدبية فإن الاتجاه إلى التنظيم الاشتراكي كان جزءاً من برنامج الثورة ..

والشيوعيون أسرع الناس انتهازاً للفرصة ، وقد أوجس المخلصون خيفة من أن يندسوا بين الصفوف ويُحوِّلوا الاشتراكية إلى شيوعية .

من أجل ذلك جاء في التقرير الذي وضعته لجنة الميثاق هذا التحذير تحت عنوان « حماية الاشتراكية العربية من الانحرافات المذهبية » :

« إن لاشتراكيتنا العربية خصائصها المميزة ، وعلى ذلك لا يصح إطلاقاً أن نفسرها في ضوء أى مذهب اشتراكي آخر !!

إن علينا أن نحمي اشتراكيتنا العربية من أن يستغلها البعض فينحرف بمفاهيمها إلى مفاهيم مذهبية غريبة عنها !!

إن على القيادات الشعبية والفكرية وعلى أجهزة الدولة أن تقوم بحماية اشتراكيتنا من مثل هذه الانحرافات التي يعمل لها الانتهازيون والعملاء » .

ولكن هذا الكلام طُوى للأسف مع تقرير الميثاق كله (ص ١٥٣ من الميثاق وتقريره في ١٩٦٢/٦/٣.) مع أن هذا الكلام كان تعبيراً أميناً عن رأى الأمة المصرية ، وكذلك كان ترديداً لتصريحات قادة الثورة أنفسهم عن موقفهم من الشيوعية وبُعدهم عنها ..

ربما قيل : إن تغلغل الروس في شئوننا وحاجتنا الشديدة إليهم لنقاوم الصهيونية والاستعمار هما السبب في تغيير الرأى والموقف !!

والجواب ... لا .

لقد قلنا وما زلنا نقول : إن التعاون مع روسيا لا يعني التعاون مع الشيوعية ولا فتح القلوب لها .

وقد كتب قادة الثورة كلاماً في الشيوعية وحقيقتها نحب أن نُذكِّرهم به وأن نحاكمهم إليه فهو كلام لا يُنسي بسهولة ، ولا يُسترضى به الشعب حيناً ، ويُستغفل عنه حيناً آخر ...

في مجموعة كتب « اخترنا لك ... » كتاب سطّر مقدمته جمال عبد الناصر، وخطّ فصوله رجال مسئولون بعضهم مات ، وبعضهم ما زال يشغل منصبه الوزاري .

والكتاب في « حقيقة الشيوعية » ننقل منه هذه الكلمات المبينة ، وما تضمنته من حقائق لا تغيرها ظروف ولا ملابسات ، يقول المؤلفون :

« ... وفي فلسفة الشيوعية أن ليس هناك حقيقة سوى المادة ، ولكن هذه المادة ليست شيئاً مجرداً . وإنما هي تشمل الإنسان وأعمال ، ويتكوّن التاريخ من عمل الإنسان في المادة وتأثير المادة في الإنسان ، وبين الإنسان والمادة تأثير متبادل ، فالمادة تُغيِّر من الإنسان ، والإنسان في دوره يُغيِّر في المادة لتلائم حاجاته وتقضي لُباناته ، وعلاقة الإنسان بغيره أساسها الإنتاج والاستهلاك ، وهذا باعث الحركة الديالكتيكية التاريخية وصراع الطبقات ، وتقضي الحركة الديالكتيكية بأن يظل الصراع قائماً بين الفقراء المستعبَدين والأغنياء المستغلين، حتى تحدث الثورة ويُحطِّم العمال النظام الرأسمالي ويتحقق الفردوس الأرضي ، ولا مكان للروح في مثل هذه الفلسفة ، وإنما يمتاز الإنسان عن الحشرات والسائمة بقدرته الفنية ، وليست هناك حياة أخرى ولا عالم روحي ولا حرية ، لأن الإنسان خاضع للضرورات المادية ، وأما الآداب والأخلاق فليس لها مصدر عُلوي ، وإنما هي وسيلة لحفظ المجتمع ، ومن أقوال لينين في ذلك : « علينا أن نكون مستعدين لكل لون من ألوان التضحية ، وإذا استلزم الأمر ، فإننا نمارس كل شيء ممكن ، فالحيل وفنون المكر وكل الأساليب غير الشرعية جميعها مباحة ، وكذلك السكوت وإخفاء الحق ، وموجز القول إننا نستخلص الآداب من مصالح حرب الطبقات » .

ويقول أحد الشيوعيين في تقديمه لكتاب لينين عن الدين : الإلحاد جزء طبيعي من الماركسية لا ينفصل عنها .

وفي برنامج المؤتمر السادس الدولي الشيوعي الذي عُقدَ في سنة ١٩٣٨ ما يأتي : الحرب ضد الدين – أفيون الشعب – تشغل مكَاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية ، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظَّمة ، وحكومة العمال تعترف بحرية الضمير ، ولكنها في الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التي تملكها للقيام بدعاية ضد الدين وتنظيم التربية على أساس التصور المادي للدنيا .

ويقول لينين في فصل له عن « الاشتراكية والدين » : الدين يُعلّم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم في الفقر الاستسلام والصبر في هذه الدنيا ، ويُغريهم بالأمل في المثوبة بالعالَم الآخر .

ويضرب لينين على هذه النغمة في فصل له آخر عن موقف حزب العمال من الدين فيقول : قال ماركس : إن الدين هو أفيون الفقراء ، وهذا حَجر الزاوية في الفلسفة الماركسية جميعها من ناحية الدين ، وتعد الماركسية الديانات الحديثة جميعها ، والكنائس ، وكل أنواع المنظمات الدينية ، آلة لرد الفعل البورجوازي الذي يستهدف الاستغلال بتخدير الطبقة العاملة !!

وفي كتاب أرسله لينين إلى الكاتب الروسي الكبير ماكسيم جوركي يقول لينين : إن البحث عن الله لا فائدة منه ، ومن العبث البحث عن شيء لم يُخبأ ، وبدون أن تزرع لا تستطيع أن تحصد ، وليس لك إله لأنك لم تخلقه بعد ، والآلهة لا يُبحث عنها وإنما تُخلق !! .

فالشيوعية تعادي الأديان جميعها ، وتعدها دليل الرجعية والرغبة في مقاومة النظام الشيوعي ! . وهي تخالف مبادىء الإسلام الأساسية ، لأن أساس العقيدة الإسلامية أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، واعتبار القرآن وحى الله للنبي محمد ﷺ ، وكذلك الإيمان بالحياة بعد الموت والجزاء والمثوبة والعقاب ، وهذه المبادىء جميعها تنكرها الشيوعية وتُشكِّك فيها وتحاربها ...

وقد لقى الشيوعيون عناءً في تحويل ولاء المسلمين الخاضعين للاتحاد السوڤيتي للإسلام إلى الولاء للشيوعية ، وقد اضطهدوا المسلمين لتعلقهم بالعقيدة الإسلامية واستمساكهم بها وإيثارها على الشيوعية .

وكان الشيوعيون في بعض الأحيان يُغيِّرون سياستهم تبعاً للظروف ويهادنون المسلمين ويلينون معهم ، حينما كانت تقتضي السياسة الخارجية ادعاء العطف على المسلمين والتظاهر بمسالمة الإسلام ، فيكفُّون عن اضطهادهم ، ويُظهرون لهم

حسن النية والتسامح ، فإذا استدعت الأحوال العدول عن تلك السياسة عادوا إلي مذهبهم الأصيل في اضطهاد الأديان جميعها والعمل على إزالتها ومحوها ...

* * *

ويقول المؤلفون في الصلة بين الشيوعية والدين :

« ... بين الشيوعية والدين عداوة شديدة وحرب لا هوادة فيها ولا مهادنة ، وهذا أمر طبيعي ، فإن الشيوعية نظام مادي يستمد فكرته من نظرية فلسفية ملحدة تزعم أن كل ما يقع في التاريخ من حركات فإن مرجعه إلى الأسباب الاقتصادية ولا مرجع له غيرها ، وما دامت الأسباب الاقتصادية - دون غيرها- هى التي تُملى على التاريخ حركته وتُسيِّره حيث تشاء ، فلا مجال هناك للاعتراف بإله خالق أو قوة وراء الغيب تُوجِّه البشر إلى مصائرهم بقدرة وإرادة » !!

والشعور الديني عندنا وعند كل ذي دين في الأرض ، هو إحساس طبيعي في الإنسان يُشعره بأن من فوقه قوة عُليا تُوجِّهه ، وتُسدِّده في طريقه ، وتعصمه من اليأس في ساعات الحرج والشدة ، وتمنحه العزيمة والقوة على اقتحام المصاعب ، وتمنعه من الاستسلام لنزعات الشر والسوء أو للشهوات والنزوات والمطامع الفردية ، وتربط البَشر بعضهم إلى بعض بروابط تجمعهم على الأخوة الإنسانية المتعاوِنة من غير انتظار لجزاء مادي أو غير مادي يلقاه الإنسان على الأرض . فهو إذن شعور مثالي لا يتم تمام الإنسانية إلا به ، ولا يتحقق السلام على الأرض بغيره .

ولكن الشيوعيين - ومن قبلهم الماركسيين - لا يرون في الدين هذا الرأى ، فليس الدين عندهم إلا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية ، وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البالية ، ولوناً من الخداع صنعه بعض الناس ليستعبدوا به كل الناس ، فهو عندهم مظهر جهل ووسيلة استغلال وحيلة مخادع ، ومن واجب الشيوعيين أن ينبذوه ويتحللوا من قيوده ويبرأوا من كل آثاره .

كذلك يقول الشيوعيون ويُلقِّنون أتباعهم بصراحة مكشوفة وبلا مواربة ..

وهذا الاختلاف في أمر الدين بين الشيوعيين وغيرهم هو الحد الفاصل بين الشيوعية وغيرها من مذاهب الرأى أو من نظريات الحكم ، فالشيوعي الكامل عندهم هو الذي ينبذ دينه ويتبرأ منه ويقطع كل صلة تربطه به في كل شأن من شئون حياته ، في العمل وفي غير العمل ، وفي الزواج والطلاق ، وفي الأبوة والأخوة والأمومة ، وفي كل ما جَلّ أو قَلّ من علاقاته العامة وشئونه الخاصة ، وهم لا يكتفون من الشيوعي بأن يبرأ من الدين بقلبه ولسانه ، بل يريدونه أن يعمل ما وسعه الجهد لرد المؤمنين بالله عن دينهم ، ليكون الناس جميعاً شيوعيين على دين ستالين ولينين وكارل ماركس لا على دين نبي من أنبياء الله ورسله ، وقد كان من الجرائم العظمى بروسيا في يوم من الأيام أن يُضبط روسي متلبساً بجريمة الصلاة أو العبادة في كنيسة أو مسجد ، وقد هُدمت المساجد والكنائس جميعاً في روسيا منذ سنين بعيدة ، وحُوِّل كثير منها كمتاحف تمثل عهد الرجعية الاستغلالية البائد !

ومسلم الأمس في روسيا – ومثله مسيحي الأمس – لا يُباح له أن يتخذ زوجة يرتبط إليها وترتبط إليه ارتباط الزوجين في كل بلد من بلاد المسلمين أو من بلاد المسيحيين ليكونا أسرة ذات كيان وقومية صغرى ، وإنما هما رجل وامرأة كذكر الحيوان وأنثاه ، ليس بينهما إلا صلة الفراش المشترك حين يبدو لهما أن يشتركا في فراش ، بعقد موقوت أو بغير عقد ، ثم يذهب الرجل الى حيث شاء وتذهب المرأة ، فهى أنثى من إناث الدولة الشيوعية وهو رجل من رجالها ، وللدولة أبناؤهما وبناتهما جميعاً ، ينتسبون اليها وحدها انتساب ولد الحيوان إلى جنسه لا إلى أبيه وأمه ..

وقد رأينا في بعض قضايا الشيوعية بمصر واحدة من « زوجات الدولة » هؤلاء ، اسمها « ميري روزنتال » وكان لها في مصر زوجان تختلف إلى كليهما وتقاسم كلا منهما الفراش حين تشاء أو حين يشاء هو ، ولا تُنكر هى

أنها « زوجة » لكل منهما ، ولم يُنكر أحد منهما أنها « زوجته » ولم تر أو ير أحدهما في ذلك عيباً ، لأنهم جميعاً « شيوعيون » !

وكلمة « زوج » أو « زوجة » التي يُعبِّر بها عن مثل هذه العلاقات الفاحشة بين الشيوعيين ونسائهم ، ليس لها إلا هذا المدلول في دين الشيوعية !!

وقد جاء في المقدمة التي كتبها جمال عبد الناصر لهذا الكتاب :

إن الشيوعية حين أصبحت نظاماً للحكم انقلبت الى شيء آخر غير ما كان يأمله دُعاتها - وما أكثر النظريات التي تفتن وتخدع - حتى إذا دخلت في دور التطبيق العملي انحسر عنها لثامها وأسفرت عن حقائقها الأليمة .

كل ما كسبه الشيوعيون من شيوعيتهم أنهم صاروا آلات في جهاز الانتاج العام ، وكانوا بشراً ذوي إرادة .

قد كفروا بالدين لأن الدين في عُرف الشيوعية خرافة !

وكفروا بالفرد لأن الفرد في دين الشيوعية لا كيان له ولا حقيقة لوجوده ، وإنما الكيان للدولة !

وكفروا بالحرية لأن الحرية نوع من إيمان الفرد بذاته ، وليس للفرد في النظام الشيوعي ذات ولا إرادة !

وكفروا بالمساواة في نظام الدولة ، لأن الدولة في دستور الشيوعية طبقات تنتظم في هرم يتربع على قمته فرد ويحتشد ملايين الشعب في القاعدة !

ألا ما أبعد واقع الشيوعية عن دعوة دعاتها !

ونحن المصريين ...

نحن العرب ...

نحن المسلمين والمسيحيين في هذه المنطقة في العالم ....

نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ...

ونؤمن بأن لكل عامل جزاء عمله ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ونؤمن بأن لكل فرد في جماعة كياناً في ذاته ، وكياناً في أهله ، وكياناً في قوميته العامة وفي بلده ...

ونؤمن بحرية العمل ، وحرية الكسب ، وحرية النفقة فيما لا يعود على المجموع بمضرة ...

ونؤمن إلى كل ذلك بالأخوة الإنسانية ، وبالتكافل الاجتماعي ، والإيثار القائم على الاختيار لتوثيق الروابط الإنسانية .

ونؤمن بأن لكل فرد في الدولة حقاً وعليه واجباً يكافىء هذا الحق .

وأن على الدولة لكل فرد فيها واجباً ولها عليه حقاً يكافىء هذا الواجب .

فهي تبعات متبادلة بين الحكام والمحكومين ، ليس فيها قهر ولا إذلال ولا تسلط ولا طبقات قليلة العدد من السادة وطبقة ضخمة من العبيد !

هذا ديننا وذاك دين الشيوعية ...

فلتؤمن الشيوعية بما تشاء وتكفر بما تشاء ، فليس يعنينا ما تؤمن به وما تكفر.

وإنما يعنينا أن نؤكد إيماننا بديننا الذي ندين به لله ، ونترسم دستوره فيما نعمل لأنفسنا ولقومنا ...

كل ما بيننا وبين الشيوعية في مذهب الحكم أو في مذاهب الحياة ، أن للشيوعية دين ... ولنا دين .

ولسنا تاركين ديننا من أجل دين الشيوعية .

ونحن نُصدِّق من كل حرف في هذه المقدمة .

ولكن وسائل الإعلام لدينا لا تُنفِّذ منه حرفاً ، بل هي دائبة علي خلق أجيال تكفر بالله وتنكر وحيه . أجيال تهش للشيوعية وتستروح لمبادئها !!

* * *

الفصل الثالث
الشيوعية والحريات

حكم فردي صارم وشعب مسير صامت - الشــيوعية تخشى اطلاق الحريات لتستديم وجودها - الثورة الصينية وظروفها - سير الشيوعية بين بيئتين - تقرير من داخل روسيا - الجاســوسـية والتعذيب - معنى الحرية فى المجتمع الشيوعي .

طراز الحكم في البلاد الشيوعية معروف الشكل والموضوع .

إنه حكم فردي أو طائفي يفرض نفسه على كل شيء ، ولا يسمح بتة بمعارضة أو تذمر ، ولا يأذن بميلاد فكرة مخالفة بله حزب يمثل وجهة نظر مغايــرة ... !

وأسلوب العيش في ظل هذا النظام يجعل الطعام اليومي للأفراد والأسر ماراً من تحت يد الحاكم ومن ثَمَّ فلا مجال للإفلات من قبضته ... !!

ولم تعرف الدنيا في تاريخها الماضي ، ولن تعرف في تاريخها المقبل ، حكماً ممدود الرهبة ، مشدود الوثاق ، يُحوِّل البلاد إلى سجن كبير ، ويُحوِّل أهلها إلى قطعان مسيَّرة مثل ما عُرِف في الأمم الشيوعية .

والغريب حقاً أن ذلك كله يقع باسم الشعوب ... !!

باسم الشعب تختنق الآراء ، وتُخمد الأنفاس ، وتُذل النفوس الكبار ، ويُقدس اسم واحد أو عدة أسماء !!

والشعب ليس إلا ستاراً تختفي وراءه حفنة من الناس تملكتها رغبة مجنونة أن تفرض تفكيرها ومذهبها على الآخرين ولو كانوا كارهين .

وهذا الشعب الذي تُفعل باسمه العظائم يحيا على الضياع والبأساء ، إنه يشبه الخليفة في بغداد يوم قيل فيه :

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً   وما من ذاك شيء في يديه

ومن المقطوع به أن الشيوعية في أى بلد وفي أى زمان لا يمكن أن تصل الى الحكم عن طريق انتخاب شعبي حر ...

وإذا حدث لأمر ما أن استولت الشيوعية على الحكم بفوز شعبي جزئي ، فإنها لا تبقى في الحكم فترة قصيرة حتى ينصرف الجمهور عنها فلا تعتمد في بقائها إلا على السياط والرماح ...

إن سيادة الحرية في الأرض تعني زوال الشيوعية منها ، فما تقوم حكومة شيوعية الآن إلا في غيبة الشورى ، ويأس الجماهير من التغير .

والأمر لا يحتاج إلى لف أو دوران .

إن الناس يرضون عن الحكومة يوم تكون مصالحهم في ظلها مكفولة نامية ، ويوم تكون عقائدهم وآراؤهم محترمة مصونة ..

فإذا نظر إنسان فرأى الحكم الشيوعي قد قلّل دخله ، وضيّق عيشه .

وإذا نظر فرأى أنه قد أهان دينه ، وصادر حريته .

فما الذي يحمله على الرضا بذلك الحكم المشئوم ؟ !

ومن الذي يسره أن يخسر دنياه وآخرته على هذا النحو الذليل ؟!

إن ساسة الشيوعية أعرف الناس بهذه الحقيقة ، ولكنهم أصحاب عقيدة يريدون بكل وسيلة أن يفرضوها ، وأن يُزيحوا العوائق من أمامها .

وقد خاضوا في سبيل ذلك لُججاً من الدماء المُراقة ، والكرامات المُستباحة وهم ماضون في طريقهم ما بقيت في أيديهم السطوة والسلطة .

والحكم الشيوعي يعتمد في الداخل على شبكة من الجواسيس تُحصى على الناس أنفاسهم ، وتكاد تُطلعه على خطرات قلوبهم ، كما يعتمد على سلطان مطلق فى الخفض والرفع والحياة والموت . !!

فمن أيسر الأمور أن يكون المرء وزيراً اليوم ، ثم يُعزل غداً ، ثم يُرمى في السجن ، ثم يُقتل لأنه خان الحزب ..

وذلك كله في ظل قضاء طيّع ، وصحافة خرساء ، وجمهور مستكين ، ونفر من المتطلعين يشقون طريقهم إلى مستقبلم على أنقاض غيرهم .

ويتم ذلك كله باسم الفلاحين والعمال !!

ولقد تتبعتُ أقوال ماركس وأنجلز وتصرفات لينين وستالين فرأيت أناساً مملوئين من نواصيهم إلى أقدامهم بالفكرة التي يعتنقونها ، سكرى بخمرتها فما يُفيقون أبداً منها ، يظنون العالم كله مبطلاً وهم المحقون .

ثم رأيتُ بعض الشباب الذي افتتن بهؤلاء وتبعهم ، فرأيتُ أناساً أضراهم الحرمان أو التطلع ، يحسبون أن الشيوعية ستحولهم إلى ملوك بين عشيّةٍ وضُحاها ، فهم ينصرونها بكل ما في غرائزهم من قوة ونشاط .

وقد تكون الشيوعية ملتقى الأماني الجائعة ، والخيالات الرائعة !

بيد أنها عندما تلتقي بالواقع وتمشي على الأرض تتكشف عن فراغ وخداع لا آخر لهما ..

وعندئذ ينصرف عنها من اغتر بها ، ولا يتعصب لها إلا من يريد عن عمد الإلحاد والعبودية بين الناس ، باسم مناصرة العمال والفلاحين .. !!

* * *

وقبل أن أتعرض لمأساة الحرية في الثورة الروسية أسوق مثلاً قريباً من الثورة الشيوعية الأخيرة في الصين .

لقد جاء « ماو تسي تونج » يقود جحافل الشيوعيين .

جاء في أعقاب حكم ساقط حافل بالفوضى والرشوة والفساد ، تبرأ منه الأمريكيون أنفسهم وهم الذين طالما أغدقوا عليه وأيّدوه !!

وانتصار الشيوعية غالباً يتم في هذا الجو المليئ بالضيق والإنكار .

وشرع الحزب الشيوعي يُنفِّذ برنامجه الإصلاحي المستمَد من تعاليم ماركس ولينين .

وكان « ماو تسي تونج » كبير الأمل في اجتذاب الأُلوف حوله ، والإفادة من الأخطاء الفادحة التي خلّفها الحكم السابق .

ولم تكن هناك حاجة للاستبداد ومصادرة الآراء الأُخرى .

كان يبدو أن الحرية مأمونة العاقبة !!

ولكن أبواب الحرية ما كادت تُفتح حتى هبَّت منها رياح تريد اقتلاع الشيوعية من أُصولها ، كأنما كان الناس في لهفة للخلاص منها ...

وهنا أسرع « ماو تسي تونج » إلى إغلاق الأبواب بقوة وندم ....!!

يقول الكاتب محمد عودة :

في بداية عام ١٩٥٦ أعلن « ماو تسي تونج » شعاراً : « دعوا مائة زهرة تتفتح ، ودعوا مائة مدرسة مختلفة تتصارع » وأصدر بحثه المشهور عن الطريقة الصحيحة لمعالجة المتناقضات في صفوف الشعب .

وبعد ذلك بقليل انعقد المؤتمر العشرون - الشهير - للحزب الشيوعي السوفييتي ...

وقال كثيرون : إن ما أعلنه من خطوات جريئة وتحررية هو من تأثير الصين الشعبية ، وأن هناك مرحلة تحوُّل تاريخية في آراء وسياسات المعسكر الشيوعي كله .

ولكن انتهت هذه المرحلة فجأة وتحوّلت الصين الشعبية من النقيض إلى النقيض ، وأسدل الستار على « المائة زهرة والمائة مدرسة مختلفة » وبدأ خط جديد في الداخل والخارج .

وقيل في تفسير هذا التحوُّل المفاجئ والمناقض لطبيعة الثورة الصينية وتطورها حجج وأسباب كثيرة ربما كان أقربها إلى المنطق هذه الحجج :

إن تطبيق الحرية الفكرية على النطاق الواسع الذي طُبِّقت فيه خلال عامي ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ في الصين قد كشف للحكومة الصينية عن قدر كامن كبير من المعارضة الهدّامة .

وهى المعارضة التي لا تريد النقد ، ولا تريد تدعيم وتلافي نقائص النظام ، ولكن تريد التشكيك في أسسه الفلسفية والعقائدية ، وفي نظمه وسياساته ، وتريد بذلك تقويض دعائمه ...!!

وقد خرجت في هذه الفترة أصوات كثيرة وقوية ومن جهات لم يتوقعها أحد تضع موضع التساؤل والاستنكار الفلسفة الماركسية وقيادة الحزب الشيوعي ومشاريع التنمية والإصلاح .

وقد وجدت هذه الأصوات فرصتها كاملة على صفحات الجرائد والمنابر الصينية ، وتركت مرارة عميقة في نفوس القادة الصينيين وصدمتهم صدمة استخلصوا كل مغزاها ...

وكان الشيوعيون الصينيون قد استولوا على كثير من أجزاء الصين بغير قتال . ونتيجة لتخلي الشعب كله عن حكومة « تشيانج كاي شيك » التي وصل فسادها وخيانتها إلى حد تخلي الأمريكيين - وهم حلفاؤها وسندها - عنها .

وأدرك القادة الصينيون أن رواسب التربية والعقلية الإقطاعية والبورجوازية لا تزال قوية راسخة في أرجاء كثيرة من الصين .

وأن فترة طويلة من التصفية العقلية والروحية لهذه المخلّفات لا بد أن تقوم [١] .

والحجة الثانية هى أن عملية البناء الاشتراكي في بلد مثل الصين والانتقال من اقتصاد استعماري إقطاعي في أشد مراحل التخلف إلى اقتصاد اشتراكي صناعي حديث . هذه العملية في شعب تعداده ستمائة مليون ويزداد بنسب مخيفة أقنعت القادة الصينيين أنه لا بد من تعبئة حازمة صارمة لكل الموارد الاقتصادية والبشرية ، وأنه لا يمكن قطع الخطوات السريعة التي تريد الصين قطعها للحاق بالدول المتقدمة بغير التقشف العام والتعبئة العامة .

والحجة الثالثة [٢] : أن سياسة التحرر التي أعلنها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوڤييتي وتطبيق هذه السياسة قد أدى إلى أحداث المجر وبولندا . ولو انفجرت مثل هذه الانتفاضات في الصين وامتدت إلى نطاق واسع لأدّت إلى أخطر النتائج .. ولا يعجز الاستعماريون والرجعيون المحاصرون للصين عن تدبير « هنغاريا ثانية » ولا بد من تلافي هذه الخطر . أ . هـ .

* * *

لهذه الأسباب ولغيرها ، قرّر الحزب الشيوعي الصيني أن يستبد بالأمر ، وأن يُسكت الأصوات المعترضة مهما بلغت كثرتها ...

وذلك خشية وقوع هنغاريا ثانية ، كما يقول محمد عودة وهو يُشير إلى مأساة المجر التي وقعت أخيراً . فإن الشعب المجري الذي أكرهته ظروف مفتعلة على قبول الشيوعية في بلاده لَمَّ شمله ، وقام بحركة مستميتة استرد بها سلطته ، وحرَّر بها مشيئته ..

غير أن الأوامر صدرت للجيش الأحمر بعلاج هذا التمرد .

---

(١) أي أدركوا - في إيجاز - أن الأمة ليست معهم وأنها ترفض الشيوعية أسلوباً لحياتها الاجتماعية والسياسية .

(٢) ملحق بالاعتذار السابق عن بقاء الشيوعية مع كراهية الخاصة والعامة لها ..!!

فإذا ألوف الدبابات تنطلق من مكانها مجتازة المدن والقرى ، ودافنة الثورة تحت أنقاض الخرائب ...

وبين عشيَّة وضُحاها كانت الدور مقابر ، والمحافل الهائجة لا تسمع لها همساً .

ثم عادت السلطات للشيوعيين . أو بالعبارة اللاذعة : عاد الحكم للعمال والفلاحين أصحابه الشرعيين !!

وإذا كان الحزب الشيوعي الصيني سنة ١٩٥٦ قرَّر إرغام الجماهير على تنفيذ خطته وقبول فلسفته ، فإنه لم تمض عشر سنين حتى أحس « ماو تسي تونج » مرة أخرى أن الأرض تميد من تحته .

فإن جمهرة المثقفين رأت أن هناك برامج أفضل للنهوض بالبلاد من الطريقة التي يلتزمها الشيوعيون الحاكمون .

وهنا تقع عملية تطهير كبرى تشمل أساتذة الجامعات ، ورؤساء الصحف ، وقادة الجيش ، وتمتليء السجون بالمعارضين .

بل إن الشبيبة الشيوعية تذهب إلى بيوت معينة لتُلْقِي أثاثها في الطريق ، وتطرد أصحابها منها بحجة عدم ولائهم للزعيم « ماو تسي تونج » .

وما يفعله الحرس الأحمر هناك ملأ الدنيا .

ونحن لا ندري إلا القليل من أحوال تلك البلاد القصية ، لكننا نستطيع أن نُفَرِّق في تقبل الشيوعية بين بيئتين :

إن الهندوس والبوذيين وطوائف الوثنيين قد ينتقلون إلى الشيوعية دون عناء طويل ..

أما أصحاب الديانات السماوية فإن إيمانهم الوطيد بالله ، وشعورهم بالرضا مع تعاليمه الصحيحة ، يجعل قبولهم للشيوعية عسيراً أو مستحيلاً ..

يقولون : إن الهندوسي الذي يبيع الفاكهة يشعر بسعادة كبرى عندما يمر به عجل ، ويدس فمه في أقفاص الفاكهة ، يأكل منها ما يشاء !!

هذا الهندوسي عندما يعتنق الشيوعية يشعر أنها نقلته إلى طور أرقى من تقديس البقر ..

ويبقى الأمر عنده مجرد مقارنة بين كسبه الشخصي في ظل الشيوعية أو كسبه في ظل الرأسمالية .

وتحوُّله عن الشيوعية إلى نظام أرقى - بعد الدرس والتجربة - يحتاج إلى أمد يطول أو يقصر ..

ولذلك فإن حركات التطهير التي اقترنت بها الثورة الصينية كانت محدودة وعلى فترات متباعدة ، ، وإن كان الحرس الأحمر الصيني قد ارتكب ضد خصومه جرائم مجنونة ..

لا نستثنى من ذلك إلا المقاومة الباسلة المريرة التي أبدتها الشعوب الإسلامية إلى آخر رمق ، قبل أن تقع فريسة للزحف الأحمر ..

أما الثورة الروسية في خريف سنة ١٩١٧ فقد وقعت بين شعوب ثلثها مسلم تقريباً والباقي مسيحي ..

وهؤلاء وأولئك لا يبيعون ربهم بثمن بخس ولا غال .

ثم إنهم جرَّبوا نوعاً من الحياة أرقى ، أو على الأقل تحس ضمائرهم هذا النوع الأرقى من الحياة الإنسانية ، أو يسمعون عن تطبيقه لدى جيرانهم الأقربين .

ومن ثَمَّ لجأ الشيوعيون إلى وسائل مضاعَفة من العنف والجبروت لإخماد روح التمرد بين هؤلاء النافرين ، وجعلهم يرضون بأساليب الشيوعية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

فهل أفلحوا ؟ كلا . إن الاقتناع بالشيوعية لا يتجاوز لفيفاً من أعضاء الحزب الشيوعي .

أما عشرات الملايين المبعثَرين في طول البلاد وعرضها فصدورهم مطوية على البغضاء والانكسار ..

وما قيمة جموع انفرط عقدها ، واستذلها الجوع والخوف ، ينظر الواحد منهم إلى أقرب الناس إليه فيتخيله عيناً عليه ! فهم كما قيل :

وعلى الذم باتوا مجمعين وحالهم   من الذعر حال المجمعين على الحمد

ومن الظلم أن نقول إن هؤلاء المكسورين استسلموا دون مقاومة .

لا .. إن الأمر لم يتمهد للشيوعيين إلا بعد مجازر مروعة لم تعهد البشرية مثلها .

ثم شاء القدر أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه .

وقادة الشيوعية يعلمون جيداً ما يريدون ، إنهم يقولون في وضوح :

سنبني عالماً آخر غير ما عهدت الإنسانية في تاريخها القديم والحديث .

عالما خالياً من حق التملك وحق التدين .

الناس في هذا العالم آلهة هذه الأرض . هم يُولَدون فيها ويخرجون منها دون أن يكون لأحدهم مِلك خاص . والدنيا وما فيها مرفق عام للكل .!!

تلك هى المزاعم التي يرددها القوم .

وعندما واتت فرصة التطبيق ، وتولّى القوم الحكم ، نبذوا الدين جانباً وطاردوا المتدينين في كل مكان .

ثم انتزعوا من الناس أملاكهم كبرت أم صغرت ، وشرعت الدولة تُباشر أو تُشرف على شئون الزراعة والتجارة والصناعة وعشرات المهن التي يرتزقون منها ..

لقد تحوّل الكل إلى أجراء عند مالك واحد هو الدولة .. !!

وكان هذا الزلزال الاجتماعي والنفسي شديد الوقع عسير القبول .

فالتدين فطرة ، والتملك غريزة ..

نعم ، قد يدخل الفساد على معاني الدين ومظاهره . وقد يدخل الحرام في مصادر التملك ومصارفه !!

لكن العلاج أن نجعل الدين حقاً لا باطلاً . وأن نجعل المِلك من حلال لا من حرام . وأن تكون النفقة معقولة لا سَرَف فيها ولا تَرَف .

لكن الشيوعية حكمت بالإعدام على الإيمان والمِلكية !! .

فلما شرعت تسوس الأمور بأساليبها هى ، ورطّت الجماهير في سلسلة من الضوائق لم يعانوا ظلمتها في ظل القياصرة البغاة !!

وأصبح الجوع والخوف يتقاسمان البلاد الشيوعية ، وكأنهما في تلازمهما اللّيل والنهار .

السعداء هناك هم أتباع الحاكم وحواشيه ، ومنفذو مشيئته .

وفي الدنيا ركام كثيف من هؤلاء الأذناب !!

هناك مرتزقة يخدمون أنفسهم تحت أي لواء .

ناس يخدمون النقيضين ، فهم في ظل الحكم الملكي يُقبّلون أقدام الملك ، ويعيشون بالولاء له ، وهم في ظل النظام الجمهوري حملة رايته ، والمسبحون بحمده ، والمتعصبون له ...

في الدنيا ناس كثيرون هدفهم الأكبر أن يوائِموا بين أنفسهم وبين الأوضاع القائمة حتى يعيشوا ناعمين . بل قد يتقنون الزُلفى حتى يعيشوا متصدرين ..!!

وفي كل زمان ومكان تظفر الأنظمة المتقلبة بأعوان من هذا الصنف القلب .

وقد استطاع قادة الشيوعيين أن يُؤلّفوا أحزاباً قوية من هؤلاء الإمعات الخادمين . فكانت هذه الأحزاب ولا زالت القنطرة التي يعبر عليها الإلحاد والاستبداد إلى غاياته المشئومة .

وقد يُوجد في هذه الأحزاب رجال لهم قلوب حية يؤذيها ما تشهد من كفر وانحراف ومظالم . لكن ما عساها تفعل ؟

إنها تخشى ما يقع بين الحين والحين من حركات التطهير التي تُنكّل بكل ذي رأي حر .

يقول « ڤيكتور كراڤتشنكو » [1] – وهو شيوعي روسي – بعد أن عاد من المزارع الجماعية وشاهد ما يعانيه فلاحوها من بأساء وضرَّاء :

« بدأت في طوية نفسي وثنايا ضميري فكرة أن أعتزل الحزب ، فالمفازع التي شهدتها في الريف تركت في نفسي جروحاً هيهات أن تندمل .. !

ومع ذلك ، فلهذا السبب عينه أخذ عقلي الواعي يتلمس تلمس اليائس طريقاً يهادن به ضميري . وما أحسب أن قد كان أمامي طريق آخر في ظروف تُحتِّم عليك إذا أردتَ أن تعيش أن تُذعن للأمر الواقع الذي لم يكن منه مهرب لهارب ..

إنه ليس في مقدور إنسان أن يترك الحزب حين يشاء ، بل ليس في مقدور إنسان أن يتراخى في نشاطه إزاء الحزب أو أن يُبدي من الأمارات ما ينم عن ضعف إيمانه به ..

فإذا ما التحق إنسان بالحزب فقد وقع في الفخ إلى الأبد .

نعم يجوز للحزب أن يطرده ويكون معنى ذلك أن تنزل به الكوارث ، لكن ليس في وسعه هو أن يتنحى منشقاً عليه .

فلو كنتُ أظهرتُ ما يدور في صدري من عواطف على حقيقتها لكانت النتيجة إبعادي عن المدرسة ، ووصمي بالعار ، وتعقبي بألوان الاضطهاد .

بل ربما كانت النتيجة المحتومة أن يُزَج بي في معسكرات الاعتقال أو ما هو شر من ذلك وبالاً ..

كان لزاماً عليَّ أن أكتم عواطفي بين جوانحي ، كان لزاماً عليَّ أن أدسها دساً في أعماقِ فؤادي ، هذا إلى ما بذلته جاهداً أن أستعيد للحزب ولائي .

---

(١) مهندس كبير ممن أقاموا الصناعة في الاتحاد السوڤييتي وكان والده ممن اشتركوا في الحركة الثورية الشيوعية وأمضى شطراً كبيراً من عمره سجيناً على عهد القياصرة . وقد بلغ « كراڤتشنكو » مكانة مرموقة في روسيا إلا أنه سئم العبودية الاجتماعية والسياسية التي تسود بلاده ، وتبرم بالنفوذ الهائل الذي تملكه دائرة المخابرات السرية فانتهز فرصة إيفاده إلى الولايات المتحدة في مهمة تجارية وقرر بعد انجازها الالتجاء إلى حماية الرأي العام الأمريكي . وكتب وصفاً مسهباً للمآسي التي تسود بلاده تحت عنوان « آثرتُ الحرية . » وعن هذا الكتاب اقتبسنا هذه الفقرات .

فلئن كان ذلك ضرورة في الظروف المعتادة . لقد كان عندئذ أشد ضرورة لأن حركة التطهير قد نشرت قلاعها للريح .

عينت مئات من لجان التطهير ، ولم يكن ليمض طويل وقت قبل أن تعقد تلك اللّجان اجتماعاتها العلنية في المصانع والمكاتب ودور الحكومة والمعاهد ..

وكان على كل شيوعي في البلاد أن يُذعن لما يطالَب به من محاكمة واعتراف ..

واشتد شعورنا عندئذ بأننا محاطون من كل جانب بالعيون الرواصد والآذان المنصتة . تلك العيون والآذان التي تخفي عن النظر لكنك تحس وجودها في كل مكان .

وكذلك اشتد شعورنا بالأضابير الضخمة التي سُجِّلت في أوراقها دخائل حياتنا الخاصة ، ومكنون أفكارنا ، وبأعدائنا الذين قد ينتهزون الفرصة ، فيُبرزون ما لنا من سقطات ، ما هو حقيقي منها وما هو من نسج الخيال ..

كان السؤال الذي يسبق إلى ذهني وإلى ذهن كل شيوعي إذ ذاك هو هذا : تُرى هل تمضي عني موجة هذه المحنة سالماً ؟

هذا سؤال رَنَّ صداه في كل وجه من وجوه نشاطنا ، وفي كل عبارة من أحاديثنا .

لم نعد نُدبِّر للمستقبل سبيلاً فلا مستقبل هناك إلا إذا اجتزنا في سلام تلك العقبة الكأداء .

ثم قال : الشرط الأول لاحتفاظك بعضوية الحزب هو أن تُكِّن للقادة ولاءً لا ذبذبة فيه ، وأن يكون ولاؤك ناصعاً لا تشوبه شائبة لستالين بوجه خاص [1] .

وإنه ليكفي أن يشيع عنك فلان عن فلان تلميحاً خفيفاً يفيد « انحرافك » عن جادة الولاء الخالص لكي تُورَد مورد الهلاك .

بل إن أخص خصائص الحياة الداخلية لمن وقع عليه التطهير ، وما يدور في

(١) كان ذلك على عهد « ستالين » قبل أن يهلك ويتولى « خروشوف » .

رأسه من خواطر في كل الشئون كائنة ما كانت . مُستهدَف لهجمات الناس علانية دون أن يروا في ذلك ما يُعاب .

وكانت إجراءات التحقيق تحتوي على أفظع الفظائع التي عُرِفت في حمل المتهم على الاعتراف ، وفي جعله عُرضة لشهادة الزور ، وفريسة لألوان التعذيب على أيدي الشيوعيين .

أما الفريسة القنيصة فقد كانت ترى - وقت المحاكمة - محنة رهيبة .

وأما النظّارة فكانوا في أغلب الأحيان كأنما يشاهدون مسرحاً لترويض الوحوش .

وكان حضور هذه المحاكمات خلال أسابيع التطهير كلها إلزاماً محتوماً على كل من ينتمى للحزب ، وأما من ليسوا في الحزب أعضاء فيغرونهم بالحضور بشتّى وسائل التشجيع .

ولم يكن أحد من الشيوعيين ليُخَطر قبل محاكمته بالتهم التي يكون في النية توجيهها إليه . فكانت هذه القلقة أشد ما يحرج الصدر من عناصر المأساة .

إذ كان عليك أن تتحسس طريقك في الظلام لتكون على أُهبة لما عسى أن يفجأك من مباغتات فتستعرض ماضيك مرة بعد مرة متسائلاً : تُرى من أين يأتي الخطر ؟

ألم يحدث مرة أنك أفرطت في الحديث ذات مساء منذ ثلاثة أعوام مدفوعاً في حديثك بما بعثته روح الزمالة في نفسك من طمأنينة ؟

فقد يكون واحداً من هؤلاء الزملاء - الذين ركنتَ إلى حسن طوِّيتهم - وشي بك منبئاً بما أفرطتَ به من ملاحظات .

وطبيعي أن تكون أُلوف الشرطة السرية والعلنية هى القوائم التي يعتمد عليها هذا النظام .

وتلك حال ينتفي معها الأمان وتتلاشى الطمأنينة ! فنصف الأمة جاسوس

على نصفها الآخر ! ويكفي أن يتنفس امرؤ بكلمة لا تعجب حتى تُحسب عليه وربما كانت القاضية ..!!

وقد تُستَغل عثرة العاثر ، أو حاجة المحتاج ليكون عيناً على مَنْ حوله وإلا... فالويل له .

جاء في كتاب « آثرتُ الحرية » على لسان فتاة اعتُقل أبوها وكان أُستاذاً كبيراً في الجامعة وكانت تريد زيارته . فقالت لرئيس مكتب الشرطة :

– أرجوك .. أرجوك أن تأذن بزيارتي إياه فأنت إنسان من البشر أياً ما كانت الحال ...

– ليس مَنْ هنا ناس من البشر يا ... بل هنا رعاة الثورة .

ليس هنا مكان لعاطفة ، وما أدواتنا التي نقاتل بها أعداء الدولة سوى العذاب والموت .

وخير لك أن تتبيني هذه الحقيقة عاجلاً والشر في التسويف !!

سآذن لكِ برؤية أبيكِ على أساس واحد وهو أني أريد معونتكِ ، اذهبي إلى السجن ففي طريقك إليه سأرسل أمري بذلك ، وفكري في الأمر الذي أعرضه عليكِ ، ودعي عنك هذه البلاهة الحمقاء .

ساروا بي إلى عنبر حيث كان أبي وحده في غرفة نقلوه إليها استعداداً لزيارتي ، كان راقداً على سرير من الحديد ساكناً سكون الموت ، وقد طالت له لحية بيضاء في هذه الشهور التي افترقنا خلالها ، لم يبق له من جسده إلا جلد وعظام.

ورأيتُ على جبهته وعلى صدغيه الغائرين أشرطة قبيحة من الجَلد كما رأيتُ أربطة على أصابعه وذراعيه ..

دنوتُ من سريره فلم يكن لديه من العافية ما يُعينه على ابتسامة الترحيب .. ولما أخذ في الحديث رأيتُ ما راعني ، إذ رأيتُ أن أسنانه الأمامية قد خُلعَت عن فكه خلعاً .

قال بصوت منكسر : لا تبكي يا... وناداني بالاسم الذي كان يدللني به منذ طفولتي .

لقد كنتُ قد أُوصيتُ أن أتحدث في أمور عائلية وألا أعرج بالحديث على شئون السياسة ، لكن الحارس الذي صحبني هاله ما رأى ، فأدار وجهه عنا تلميحاً لنا بأنه لن ينصت إلى الحديث .

وأشار أبي إليَّ بأُصبعه أن أنحني إليه ، ثم همس في أُذني : ها أنتِ ذي تشهدين حالي يا ... !!

لقد جعلوا يضربونني يوماً بعد يوم فأداتهم هى التعذيب ..

ومئات ممن سُجنوا في الحجر المنفردة ههنا يُجلدون بالقطائل المبتلة ولا يُخلي بينهم وبين النوم أسابيع متوالية .

أو هم يُوضعون في غرف هى الجليد في بردها .

لقد ضربوني في غير رحمة لأُسمِّى لهم شركائي في المؤامرة . فماذا أقول إن لم تكن هناك مؤامرة ؟ لم يكن هناك مؤامرة إلا في خيالهم الجامح .. إنهم بمثابة من يرى أشباحاً .

لطالما تمنيتُ أن يكون هناك ما أعترف به ، ولقد تذكرتُ أخطاء ليست بذات خطر واعترفتُ بها على أنها ضرب من أفعال التخريب .

ما نسجتُ لهم بخيالي كان من السذاجة بحيث لم يستقم أمام عقولهم .

وفيم استرسالي معك في هذا الحديث ؟ لقد كنتُ سمعت عن الشرطة السرية وأساليبها لكن أسوأ ما كان يصوِّره لي خيالي لم يكن إلى جانب الواقع شيئاً مذكوراً .

ليس هؤلاء بشراً إنما هم نفر من الشياطين ، أواه يا ابنتي .. مما صنعه هؤلاء الناس .. أ . هـ .

* * *

إن آراء الناس تختلف اختلافاً كبيراً في الشئون الاجتماعية والسياسية ، ولهذا الاختلاف سببه المعقول ، فإن ما يصلح لقوم ربما لا يصلح لآخرين ، وما يوائمهم في عصر قد يضايقهم في عصر آخر ..

وإذا كانت القواعد العامة موضع اتفاق – في الغالب – فإنه عند سرد التفاصيل ومعاناة التطبيق تنبت مشكلات جمة ، وتتفاوت وجهات النظر في أسلوب حلها ..

إن أعضاء مجلس الإدارة في مصنع أو مزرعة قد ينقسمون على أنفسهم في الحكم على ظروف العمل و مقادير الربح وغير ذلك .

والمهم أن هذه الاختلافات كلها عادية ، وهى اجتهادات في تحرى المصلحة ، أو محاولات لإدراك الحقيقة ، وليس لأحد أولئك المختلفين أن يتملكه جنون الاعتداد برأيه ، فيتصوَّر أنه هو وحده المصيب ، وبالتالي أنه وحده الذي ينفرد بالكلام ..

قد أفهم أن الوحي الإلهي مصدر يقين جازم عند الأنبياء وأتباعهم ، ولكن الأمور المقطوع بها في الدين محدودة معدودة ، وهى أمور ينتهي عندها الجدل لأن الله قال كلمته الواضحة ..

أما أن بشراً ما ، أو جملة أناس على رأيه ، يعتنقون رأياً في الإصلاح – على زعمهم – ثم يُحوِّلون هذا الرأي الإنساني العادي إلى عقيدة فوق النقاش والاعتراض ، فهذا ما لا يمكن قبوله أبداً .

خصوصاً إذا كان هذا الرأي يمس حاضر الناس وغدهم ويشتبك مع معايشهم وضمائرهم ظاهراً وباطناً ..

إن الشيوعية في أزهى صورها نظام بيسر العمل والعدل لجماهير العمال والفلاحين !!

فإذا جَرَّبَ العمال والفلاحون هذا النظام فاكتووا به وقرَّروا الخاص منه ، فبأي حق يُفرض عليهم ؟!

وما هذا الحماس والتعصب الشديدان لرأي كشف العقلاء سوءه . أو ضاقت الجماهير بأثره ؟

لماذا أقسر قسراً على اتباع « كارل ماركس » وهو في نظري حائر ضل الطريق ؟

لماذا يُقال للتجار الذين كسدت سوقهم أو للفلاحين الذين نقصت ثمارهم : لا بد أن تتبعوا هذه الطريقة بعينها في التجارة والزراعة مهما كانت النتائج .. ؟

إن هذا التقديس الغريب لرأي واحد من الناس لا يُقبل .

وهذه الرغبة المجنونة لقلة من « المفكرين » أن تفرض فكرها على العالم أجمع .. لا تُعقل .

ولكن هكذا تريد الشيوعية أن تسير !!

إنها تسير على أنقاض حريات مهدَرة وحقوق مستَباحة ، وأنين مكتوم للضمائر المقتولة والكرامات الضائعة !!

* * *

إن التماس أسانيد عقلية للشيوعية وامتدادها جهد لا طائل وراءه ، فإن الأسباب الكامنة وراء التعصب الشيوعي وقسوته نفسية لا فكرية ..

فالحرمان الأليم الذي يتعرض له البعض ، وتفاوت الفرص الذي يرتفع بأقدار ويطيش بأخرى ، هذا ذاك يخلقان ظروفاً مادية ومعنوية ، منحرفة مدمرة تجعل أصحابها ينطلقون وقد تملكهم شعور جارف بضرورة التغيير الشامل لأحوال العالم كلها ..

ومما يعين على ذلك تبلد الضمير الديني ، وسكوته على المناكر الاجتماعية ، واشتغاله بنوع من الفقه يُرضي الناس أكثر مما يُرضي الله ، ويصون العاجلة أكثر مما يصون الآجلة ..

لقد فكرتُ يوماً في التدين المسيحي الذي يسود الغرب ، والتدين الإسلامي الذي يسود الشرق ، فوجدتُ نماذج التطبيق الشائعة تعمل ضد الدين لا معه .

في الغرب تُوجد أبشع صور الاستعمار ، والتفرقة العنصرية والمطامع البشرية .

وعندنا ؟ إن الملك فاروقاً تولى الحكم بضع عشرة سنة ، وكذلك الملك سعود ، وقد خرج كلاهما من الحكم وهو يملك القناطير المقنطرة من المال .

والغريب أن أحدهما لما أُخرِج لم يوَّجه إليه اتهام بأخذ مال الله أو مال الناس ، وإنما أُخرِج لعلل أخرى ! كأن التخوض في المال العام انطلاق في كلأ مباح ..

إن هذه الصورة المخزية تورث كفراناً ومروقاً ، ولعلها تُشعل في قلوب الشيوعيين أحقاداً لا يخبو لها ضرام ..

ومع إنكارنا نحن لهذه المآثم - باسم الله - ومع أن صوتنا كان أجهر وأسبق في التحذير منها ومن عُقباها ، إلا أن هذه الأخطاء لا تسوِّغ الانحراف إلى الشيوعية ، ولا تُعطي التفكير الشيوعي شيئاً من الوجاهة .

بل لقد ظهر من التطبيق العملي للشيوعية أن لصوص السلطة أخطر على البشرية من لصوص الثروة ، وأنه في ليل الاستبداد الطويل - حيث تسود الشيوعية - يفتك الحكم الفردي بالغالي والرخيص من حقوق الجماهير كما يذهب بأقدار العلماء وأصحاب الامتياز على الإجمال ..

ثم أين تكافؤ الفرص يوم يكون الحكم حكراً على حفنة من الرجال الذين وصلوا بطريقة ما إلى رأس الهرم ؟!

إن دسائس القصور القديمة تأخذ صورة أخرى في هذا الطراز من الحكم ، فلا عجب إذا انتقل رجل من منصب الوزارة إلى السجن أو من منصب الرياسة إلى البيت دون تدخل الجماهير أو مشورتها ..

ومع أن الشعب آخر من يعلم بهذه التقلبات فهي تتم باسمه !!

لقد بذل العالم تضحيات جسيمة حتى ظفر بالحريات التي تحفظ حقوقه المادية والأدبية ، بيد أنه - من غير عوض حقيقي - ترك هذه الحريات كلها ، لعصابة

من الرجال الذين زعموا لأنفسهم العصمة أو القداسة أو الولاية على الشعوب ، وهذا هو لباب النظام الشيوعي .

إن الانفراد بالسلطة شيء خطير جداً فإن نشوة السلطة أعتى من نشوة الخمر ، وإذا كان المال الواسع يورث الطغيان فإن الاستبداد بالحكم يورث الجبروت والإرهاب ..

وما أتعس أمة تلقي زمامها لفرد فذ يتصرف فيه كيف يشاء ، أو للجنة مغلقة تتداول الأمر بينها ، وتستوحي فيه أولاً وآخراً مذهباً اعتنقته أو رأياً تشبثت به .

ومن هنا فإن الحكم الفردي لا ينفك أبداً عن المعتقلات المزحومة ، والمحاكمات المزوّرة ، والأوامر المبهمة ، وسلسلة التعليمات التي تهبط من أعلى إلى أدنى دون استبانة أو استشارة .

فمن اعترض التنفيذ ، أو أبطأ فيه ، فالسجن منه قريب .

ومن شُمَّت منه رائحة انتقاض على المذهب أو شك في قادته الملهمين فالويل له .

* * *

بهذا النمط من القسوة والجبروت تسير الأمور هادئة دون معارضة أو نقد . والمدهش أن في روسيا دستوراً يتحدث عن الحريات الدينية .

والواقع أن الحرية الشخصية كالحرية الدينية أقوال مسطورة لا مكان لها في مجتمع يقوم على فلسفة محدودة قوامها إنكار الله ، وإشاعة كل شيء .

وأي محاولة لجعل الألوهية حقيقة في ميدان التربية والسلوك ، أولجعل المال ملكاً خاصاً في ميدان العمل والإنتاج لا تلقي إلا إراقة الدم وإزهاق الروح .

ذلك بالنسبة إلى المبادىء .

ولكن القداسة سرعان ما تنتقل من المبادىء إلى الأشخاص الذين يمثلونها ويحرسونها .

وهنا تحتل عبادة الزعيم أو الحزب مكاناً كبيراً في نفوس الأتباع ..

فصاحب الحظوة هو الأكثر ملقاً والأشد تفانياً . أما أصحاب الشخصيات المستقلة والأفكار المتحرِّرة فمستقبلهم كالح ، ومكانتهم مهدَدة ويغلب أن تقودهم هذه الخصائص إلى المنافي والسجون . ويقول الأستاذ الشيخ عمر الإسكندري تعليقاً على نصوص دستور سنة ١٩٣٦ الذي يحكم روسيا الآن :

الحقيقة أن « ستالين » صرَّح من بادئ الأمر أن دستور سنة ١٩٣٦ وُضِعَ للمحافظة على ديكتاتورية الطبقات العاملة وعلى مركز الحزب الشيوعي بصفته الموِّجه لسياسة الحكم .

بل إن الدستور نفسه نص على أن الحزب الشيوعي هو الأداة الموِّجهة للمنظمات الخاصة بالعمال من اجتماعية وحكومية ، وعلى أن حق الترشيح للانتخابات مقصور على المنظمات العامة للعمال وجمعياتهم والنقابات الصناعية والجمعيات التعاونية ، ومنظمات الحزب الشيوعي ومنظمات الشباب ، والجمعيات الثقافية .

فكأن الدستور ضمن بذلك أن يكون كشف المرشحين للانتخابات من صنع الحزب الشيوعي أو المنظمات الخاضعة لإشرافه .

فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أن القوانين تمر في مجلس السوفييت بدون مناقشة وبالإجماع .

فأين هذا كله من الديمقراطية ؟ وكيف يجوز لزعماء السوفييت أن يقولوا إن هذا النظام هو أرقى درجات الديمقراطية ؟!

تقول الفلسفة الشيوعية إن ديكتاتورية العمال هى أرقى أشكال الديمقراطية ، فإن الدولة بناء على هذه الديمقراطية هى ملك لطبقة العمال !!.

وحيث إنه لا يوجد بالبلاد سوى طبقة واحدة ، فلا داعي لغير حزب واحد يمثل النابهين من أبناء هذه الطبقة ويكون واجبه توجيه وتعليم الجماهير !!

وفي خلال دور الانتقال الذي لم تتوافر فيه بعد أركان الشيوعية الكاملة للمجتمع . وحيث إن الصعاب تكتنف البلاد من كل جانب من نقص في الموارد إلى مناوأة من العناصر المعادية يجب أن يكون للدولة السيطرة التامة على جميع الشئون ولو اقتضى الأمر استعمال القوة .

وما دام هذا هو الأساس فمآل جميع الحريات التي يكفلها الدستور حتماً إلى التدهور والفناء .

ثم يقول : والمشكلة الكبرى في النشر أو إبداء الرأى هى : إلى أي حد يجوز النقد ؟

لقد كانت المدة من (١٩١٧ - ١٩٢٢) عهد تسامح كبير في ذلك فكثرت مهاجمة نظام الحكم وخشي أولوا الأمر سوء العاقبة فصاروا من ذلك الحين يشترطون لحرية النقد أن يكون غير متعارض مع السياسة السوفييتية صراحة أو بطريق التعريض .

وغالوا في ذلك حتى امتدت المراقبة إلى المؤلفات الأدبية والتاريخية والعلمية والفنية ، بل إلى الموسيقى والنحت والتصوير .

وصار أصحاب هذه الفنون عُرضة للاتهامات السياسية الخطيرة .

وقد ضُحِّى بالكثيرين منهم في حركات التطهير التي أُجريت عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧ .

أما ما بقي من الانتقاد الحر فهو ما يُعرف بالنقد الذاتي السوفييتي .

وهو نقد تبيحه الحكومة وتشجعه ، بل إن حركته تُدار من الحزب الشيوعي بغرض إذاعة المعلومات أو الدعاية ..

ويتناول البحث في جزئيات سير العمل دون التعرض للسياسة العامة .

وإذا تُعرِّض للمشروعات العامة كان الاعتراض بشأنها مقصوراً على المُزمع منها قبل إقراره ، ومتى تم إقراره أُقفل باب الاعتراض ..

أما الحرية الشخصية وحماية الفرد من الإجراءات غير القانونية فقد نص عليها الدستور السوڤييتي نصاً صريحاً وعدَّد الضمانات التي تكفلها . غير أن الباب مفتوح لتقييد كل ذلك في التنفيذ العملي بحجة أن سلامة الدولة أهم من سلامة الفرد .

وهو المبدأ الذي جاهر به « لينين » منذ قيام الحكم الشيوعي إذ قال بصراحة : « أيهما أفضل : الإلقاء في السجن بعشرات أو مئات من المتهمين مذنبين كانوا أم غير مذنبين ؟

أم فقد آلاف من الجيش الأحمر والعمال ؟

ولا شك أن الأول هو أفضل الأمرين وإني أرضى عن طيب خاطر أن أتهم بالخطيئة والاعتداء على الحرية في سبيل مصلحة العمال .. » .

وقد مضت السنون بعد ذلك ، وقُنِّنَت القوانين ، ونُظِّمَت المحاكم على اختلاف درجاتها ، وعُيِّنَت إجراءات التحقيق ، وبُذِلَت الجهود لجعلها كفيلة بقدر الإمكان بحماية حرية الفرد ومنع العقوبة عن البريء .

غير أن ذلك لم يَحُلْ دون الأخذ بجوهر المبدأ الآنف الذكر .

وفي قانون العقوبات السوڤييتي متسع لما يريده رجال الدولة في هذا الشأن .

والمعروف في أرجاء العالم الحر أن لا جريمة بدون نص في القانون على ما يُرتكب من الأفعال لتكوين أركانها - بعكس الحال في القانون السوڤييتي فإنه يكفي فيه لاعتبار أمر ما جريمة أن يكون من شأنه أن يجر خطراً على الدولة أو نظام المجتمع وإن لم يكن في ذاته داخلاً في عِداد الجرائم المنصوص عليها في القانون .

بل يكفي للقبض على الأشخاص واعتبارهم مصدر خطر اجتماعي أن يكونوا ممن سبق لهم اتصال بنشاط قديم قُضِيَ عليه وإن لم تكن هناك جريمة من هذا الجانب !!

وقد كان للشيوعيين في أول عهدهم بالحكم هيئة حكومية يقال لها « الشيكا » ذات سلطة هائلة تخوِّلها إجراء التفتيش والقبض وفرض العقوبات بدون الرجوع إلى الهيئات القضائية .

ومع أن هذه الهيئة قد استُبدل بها غيرها مرتين وأُنقص من أطراف سلطتها ، فإن آخر هيئة خلَفتها - وهى من فروع وزارة الداخلية - ما زالت لها سلطة واسعة تؤهلها في كثير من الحالات لإجراء التحقيقات وفرض العقوبات دون الرجوع إلى القضاء .

ومن أشهر هذه العقوبات الحكم بالأشغال الإجبارية في المعتقلات الخاصة بها لمدة خمس سنوات والإبعاد إلى الأنحاء النائية لمدد معينة والنفي خارج الاتحاد السوفييتي .

* * *

ولنا ملاحظات على مجالات الحرية الضيقة التي يوفرها الشيوعيون للأمة ولننظر أولاً إلى ما يسمونه النقد الذاتي .

إنه حق يتصل بالوسائل لا بالأهداف . فإذا تقرَّر حفر ترعة فالنقد مباح لمنجزات العمل اليومي مثلاً ، أو لطريقة الحفر ، أو لتوزيع الأعباء ..

وإذا تقرَّر بناء مصنع أو تشغيله ، فالنقد مباح في نطاق ما يتمم البناء بقوة ، وعلى عجل ، وما يُدير الآلات بدقة ويكفل وفرة الإنتاج ..

أي أن النقد مباح في الخطة التنفيذية فقط .

أما السؤال : ما قيمة شق الترعة وجدواها ؟ ما قيمة إنشاء المصنع وأرباحه؟ فذلك لا يجوز لأنه يتصل بسياسة الحكومة وهى فوق النقد .

وقد كان « ڤيكتور كراڤتشنكو » شيوعياً مخلصاً للحزب ومتحمساً لبناء روسيا الجديدة ، واستغل حيناً هذا النقد الذاتي .

ولكنه ضُرب وأُهين ورُكِل بالأقدام لأنه توسَّع في هذا النقد وأباح لفكره أن يتساءل عن المقاصد والغايات .

ثم إن هذه الخطط التنفيذية التى أُبيح نقدها نظرياً كثيراً ما تكون من وضع الزعيم أو رجاله المقرَّبين ، وهنا تنعقد الألسن عن النقد . لأن ذلك يُعرِّض الإيمان للقيل والقال ، ويجعل ولاء المرء للحزب موضع ريبة ... !!

وحيث يسود الحكم الفردى يرتفع المدَّاحون والمتملقون ، ويتأخر من لا يُحسنون الزُلفى ويُخاصَم من يضيقون بالأخطاء ..

ولقد أُلِّفَت عشرات الكتب فى عظمة « ستالين » وعبقريته ، فلما انتهى تبين أن هؤلاء المؤلفين كذبه .

وفى الوقت الذي كان المدح يُكال لـ « ستالين » كان أنداده من رؤساء إنجلترا وأمريكا يُحاسَبون على تصرفاتهم ببصر نافذ وإحصاء شامل .

حتى إن الانجليز أخرجوا « تشرشل » قائدهم المظفَّر فى الحرب ، أخرجوه من الحكم وولُّوا من رأوه أكفأ ... !!

فما قيمة هذا النقد الذاتى الذى أباحه الشيوعيون ؟ . وكم يساوى بالنسبة للحرية العظيمة التى توفَّرت فى أقطار الغرب ؟ !

ان الحرية لا تتجزأ ولا يجوز أن توضع حدود أمام حرية النقد .

لقد أعطى « هتلر » نفسه حق العمل الذى لا يُعترض ، فماذا كانت العاقبة؟

هل حق النقد الذاتى لخطط التنفيذ أغنى شيئاً عن العوج الأصلى ؟ !

كلا ...

انتحر المغرور بعد ما جَرَّ شعبه للكارثة ، وبعد ما فقدت ألمانيا ملايين الشباب من زهرة بنيها ..

ان الشعوب لا تستغنى عن حرية النقد الشامل ما دام النقد يعتمد على وجهة نظر ممكنة القبول ، وما دام مبرأً من الأغراض السيئة .

ويعتذر الشيوعيون بأن مصلحة الدولة وحماية العمال والفلاحين هما السبب فى فرض هذا الكبت .

ونقول : العذر الصحيح المقبول لهذا الكبت هو حماية الشيوعية نفسها وحماية القلة المتمسكة بها ..

فما من شك فى أن الحريات المطلقة تقتلع هذا النظام من جذوره كما صرحنا آنفاً .

أما التمسح بالعمال والفلاحين فهذا لغو من الكلام . فإن العمال والفلاحين هم الضحايا الأُوَل للنظام الشيوعى .

ولو ملكوا أمرهم لأطاحوا به إلى الأبد .

وسنشرح أسباب ذلك فى الفصل التالى .

* * *

الفصل الرابع

الأحوال الاقتصادية فى ظل الشيوعية

الطبقات الكادحة وما تعانيه - الاقتصاد الشيوعى سبب العلة - الإسلام يحمى حرية التملك وينقى مصادر الكسب - سر بقاء الشيوعية - حكم الشعب - نظام السخرة واستعباد المسلمين فيه ..

أهم ما يسترعى الانتباه فى حديث الشيوعيين غضبهم الشديد للمظالم التى نزلت بالطبقات الكادحة من فلاحين وعمال . ووعودهم المعسولة بأنهم عندما يحكمون سيصنعون العجب لتنعيم هذه الطبقات وتكريمها .

وحكم الشيوعيون فى روسيا والصين وبلاد أخرى فما الذى حدث ؟

ما سألتُ قادماً من هذه الدول الحمراء ولا قرأتُ كتاباً محايداً إلا تبيَّن لى أن العمال والفلاحين شر الناس عيشاً وأسوأهم حالاً ..

وأنهم يحيون دون أندادهم فى البلاد الأُخرى .

ومن المؤكد أن الشيوعيين قسمان :

١ - أعضاء الحزب وقادته والمتعاونون معهم من الموظفين والعلماء وأهل الفن وغيرهم وهؤلاء ينعمون بدخول مرتفعة وتُتاح لهم فرص واسعة من المتع والرفاهية .

٢ - جماهير الفلاحين فى المزارع الجماعية ، والعمال فى المصانع المؤمَّمة .

وهؤلاء يبذلون أضعاف ما يكسبون ولا يرون فى مساكنهم إلا الضيق ، أو فى مطاعمهم إلا التفاهة ، أو فى ملابسهم إلا الخشونة !! .

وأحوالهم على الإجمال يتقسمها الإجهاد والاكتئاب .

وقرأتُ أن آباءهم أيام القياصرة كانوا أسعد حظوظاً وأرغد عيشة .

وقائل هذا الكلام والد « ڤيكتور كراڤتشنكو » الذى قاتل القيصرية وحُبِسَ فى سجونها طويلاً لنقمته على عهدها .

فلما هلك القيصر الأبيض وخلفه القيصر الأحمر كان الرجل الثائر يدير عينيه فى ذل الفلاحين والعمال ، ثم يطوى نفسه على الإنكار والحزن ، ولو كان عربياً لتمثل بقول الشاعر :

رُبَّ يوم بكيتُ منه فلما ... صرتُ فى غيره بكيتُ عليه

وسألت طُلاَّباً وأساتذة زاروا دولاً شيوعية كثيرة فاتفقت إجاباتهم على أن الضنك هو الطابع السائد على الجماهير ، وقالوا : لو أن أشد المتحمسين للشيوعية عندنا خبر دخائل الناس هناك ، واقترب من شئونهم الماسة لكفر بهذا المذهب إلى الأبد .. !!

لقد حكمت الشيوعية روسيا نصف قرن الآن ، ولَّى خلاله جيل ، وترعرع جيل ، وتاح لها من الوقت والمال ما تبنى به العالم الذى تريد ..

فهل تقدر على إجراء انتخابات حرة يقول الناس فيها كلمتهم ضد هذا النظام أو معه ؟

كلا ... لا تزال الحكومة تفرض نفسها بالقوانين القاسية والأوامر العسكرية وهى توقن بزوالها من الوجود لو تم الاحتكام إلى مشيئة العمال والفلاحين ..

فهل معنى هذا أن العمال والفلاحين سعداء ؟ !

ومما لا يُستحى من ذكره أن الأسر الروسية التى تجئ للعمل فى مصر تشعر بسرور كبير . وتقف المرأة أمام بائع البقول والخضر والفاكهة وهى دهشة !

أهذا كله معروض للبيع دون حرج ؟

أتستطيع أن تشترى منه ما تشاء دون قيد ؟

فلا غرو إذا سمن النحيف وطعم المحروم .

وكثيراً ما سمعتُ التنويه بخيرات مصر ورخائها الذى يحلم به جمهور الشيوعيين فى بلادهم ذات الطول والعرض .

مع أن مصر الآن تجتاز مرحلة تقشف بسبب تنمية الصناعة وتقوية الجيش .

ومع أن مصر بلاد فقيره بالنسبة إلى بلاد أخرى ثرّة الموارد .

* * *

والأخبار تتواتر لدينا عن الفروق الشاسعة بين شطرى ألمانيا الشيوعى والرأسمالى ، فألمانيا الشرقية يغمرها البؤس والتطلع . أما ألمانيا الغربية فهى متخمة بالثراء والنعيم . .

والألمان هنا وهناك أخوة لا يختلفون فى المواهب الفكرية والخصائص النفسية . لكن طبيعة الفكر الشيوعى وخطته فى الإنتاج علة هذا التفاوت .

ولعل من أعظم الأمثلة لقيمة الاقتصاد الشيوعى وغير الشيوعى حالة روسيا وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية .

فإن الروس الذين يبلغون نحو مائتى مليون والذين يسكنون ويستغلون سدس الأرض مشوا تحت لواء الشيوعية من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٤٠ وملأوا الدنيا أحاديث عن مشروعات السنوات الخمس التى جعلتهم عمالقة فى السلم والحرب .

فلما وقع الغزو الألمانى لروسيا تكشّف ذلك كله عن فراغ رهيب . . .

وماذا كانت ألمانيا ؟ لقد خرجت من الحرب الأولى مُجرَّدة من سلاحها ومصانعها ومناجمها .

وفى سنة ١٩٣٣ تولى هتلر شئونها ، وخلال ست سنوات أو سبع كانت ألمانيا أقوى دولة فى القارة .

والألمان ربع الروس عدداً ، وأرضهم أضيق رقعة ، وعمر نهضتهم أقل إلى حد الثلث من عمر النهضة الحمراء !

ومع ذلك كله فقد انطلق الغزاة الألمان فى أحشاء روسيا لا يقف لهم شىء .

ولولا مسارعة أمريكا وسائر أوروبا إلى إنقاذ الروس لبادوا .

إن العون الرأسمالى الذى تدفّق سيلاً لا انقطاع له هو الذى رد الحياة إلى الروس ومكّنهم من استنقاذ أنفسهم وبلادهم .

أما ما فعله النظام الشيوعى فكان مجموعة أكاذيب فضحها الواقع .

* * *

ولعل قائلاً يقول : لو كان الروس يكرهون الشيوعية كما تزعم ما استماتوا فى رد العدوان عن بلادهم على هذا النحو المعجَب الكريم ! !

والجواب : إن سياسة « هتلر » هى التى خلقت هذا الموقف .

كانت سياسته الذبح والدمار والإبادة الشاملة . فلم يكن أمام الروس إلا أن يتكاتفوا ضد هذا الفناء المُغير .. !!

ولو كان الرجل يؤمن بكرامة البشر ، وتحرير العبيد ، وحق الشعوب الأُخرى أن تشارك شعبه الحرية والمساواة ورغد العيش ، لكان الروس الآن شيئاً آخر .

إن النظام الشيوعى يُضعف الإنتاج بقدر ما يُحرج المنتجين .

إنه يُوهى العمل والعمال جميعاً لأنه يقتل مبدأ المِلكية ويشل غرائز الكفاح التى غرسها الله فى دماء الناس .

والدين فى فجر الخليقة أباح التملك ، وصانه ، وشَدّ به زناد النشاط الإنسانى ، إلى أبعد مدى .

لكن الشيوعية تصادر حرية التدين والتملك معاً ، يقول الأستاذ الشيخ محمد عرفة [١] : مقاصد الشيوعية العليا هى إلغاء الملكية الفردية ، وجعل المرافق العامة كالأرض والمناجم والمصانع ملكاً للدولة تستغلها وتوزعها ...

تستغلها بالشعب ، وتوزعها عليه ، فيبذل كل من العمل حسب قدرته ، ويأخذ كل من الغلة حسب حاجته .

وذلك يستتبع إضعاف المنافسة فى الصناعة وأبواب العمل الأخرى .

وإنما عمدوا إلى ذلك كله لأنهم رأوا تفاوت الأرزاق واختلاف الحظوظ ، فهذا يملك الكثير وهذا يملك القليل أو لا يملك شيئاً .

فقدّروا نظاماً تُلغَى فيه الملكية الفردية ، وتوسّلوا إلى ذلك بالوسائل التى ذكرناها .

والإسلام يبغض نظام الطبقات المتفاوتة الشديدة التفاوت ، ويرفض أن تنقسم الأمة الى قسمين :

الثراء والجاه والقوة والترف فى جانب ، والفقر والضعف والحرمان فى جانب آخر .

ولكنه لم يشأ أن يحارب ذلك بمنع الملكية الفردية ، وإهدار المصلحة الشخصية ، لأنه إذا فعل ذلك فقد ألغى الأَمل وألغى بإلغائه البواعث على العمل .

وقد أوجد الله هذه النزعات فى الشخص لينتج وينافس ويسبق .

ثم هو لا يناله بعد طول الجهد إلا ما ينال الإنسان الجزئى المحدود القدرة والرغبات والشهوات .

وفائض إنتاجه يكون للمجتمع بحكم طبيعة الوجود ، فليس يأكل أكبر رجال المال فى سبعة بطون بل فى بطن واحد كسائر الناس .

---

(١) من كتابه « الإسلام أم الشيوعية » بتصرف يسير .

وما يبذله من اختراع وابتكار وجهد مضن ليست ثمراته كلها له ، بل له منها القليل والباقى لأمته وللإنسانية .. !!

إن مثل الشيوعية فى تحريم الملكية الشخصية لما تنتجه من بعض الضرر ، كمثل من رأى العين قد تنظر إلى ما لا يحل فتجلب لصاحبها الهوى ، فكره قوة الإبصار فطلب إعدامها وحرمان الناس إياها !

يظن الأبله أن العمى خير لأن المبصر قد ينظر إلى ما لا يجوز .. !!

أما الإسلام ، فيرى أن فى هذه القوى والملكات خيراً كثيراً فإذا نتج عنها ضرر عُولِج مع مراعاة الإبقاء عليها والإفادة منها ..

ثم إن الشيوعية نظرت إلى المسألة الاقتصادية فقط وأخذت تعالجها ، غافلة عن شئ غيرها ، كأن الوجود لا يعدو هذا الجسد ..

ومن المعلوم أن الإنسان ليس حيواناً فحسب ، بل هو حيوان عاقل له مطالبه الروحية ونزعاته العقلية ، وله أشواق مشروعة فى المحافظة على نوعه والعناية بولده ..

فعقله يحتاجإالى الحرية لينتج ويبتكر ، والمصلحة الشخصية تدفع إلى المنافسة ومضاعفة الإنتاج وتقدم النوع البشرى ..

ومثل من يعالج جزءاً من البدن غافلاً عن بقية الأجزاء كطبيب يعالج جزءاً مريضاً فيُفرط فيما يفيده ، غافلاً عن أن ذلك يضر ببقية أجزاء الجسم .

أما الإسلام فقد عالج المسألة الاقتصادية دون أن يُفَرِّط فيما عداها من المشاكل ..

ونظر إلى حال الإنسان ومستقبله ، وإلى طبيعة الوجود التى تقتضى الترقى فى سباق مفتوح ، لا تزحمه العوائق المفتعلة .

أطلقوا هذه الملكات والنوازع والبواعث من مكامنها ، ودعوها تفعل فعلها ، ففى ذلك تقدم البشر وسير مواكب العالم نحو الرقى كما هو سير التاريخ .

وحذار أن تلغوها أو تبطلوها فتبطلوا الحكمة من وجودها ، فقد جعلها الله وسيلة للكمال وجعل فيها حظ صاحبها لئلا يفتر .

كما جعل فى الاقتران بين الرجل والمرأة وسيلة لبقاء النوع وجعل فيه حظ الزوجين لئلا يعرضا أو يفترا ، فتفوت مصلحة بقاء النوع الإنسانى .

لقد أجاز الإسلام التملك الفردى ، وشرَّع الميراث نتيجة له ، وحافظ على الأملاك حتى جعل السارق إذا تعدى وسرق مال غيره عقوبة قطع اليد ، وقال النبي ﷺ : « من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد » .

أما تولى الدولة الإنتاج والتوزيع فقد جربناه فى تاريخنا الماضى أيام محمد على باشا الكبير حين احتكر الزراعة ونزع الأرض ممن كانت تحت أيديهم ، وكان يعطى الفلاحين البذور والماشية ليزرعوها لقاء أجر يأخذونه من غلتها ، فأدى ذلك إلى أن الزرَّاع كانوا يهربون من الأرض ، وقل الإنتاج ، وكثرت نفقاته ، ولم يُحمد هذا الاحتكار فى الزراعة والتجارة ، وعاد الأمر إلى الملكية الفردية تدريجياً فى أيامه وأيام الولاة من بعده .

وقد رأينا الأملاك الأميرية قديماً والدولة تتولى إنتاجها .

ولعلنا نكون قد رأيناها تنتج أقل ثمرة بأكثر نفقة .

ولعلنا سمعنا أخبار تعسف القائمين عليها واستبدادهم بالأجراء والفلاحين .

ولعله لم تغب عنا أخبار الحرب العالمية الثانية حين تولَّت الدولة توزيع الطعام والكساء فرأينا الاتجار فيهما كيف يكون !

ورأينا من التجار من يأخذ آلاف القناطير من السكر ليعمل بها الحلوى فيبيعها بثمن غال فى السوق السوداء لمن هم فى حاجة شديدة إليها .

ورأينا من يملك عشرات البطاقات لشراء الصوف فيتجر فيها ومن لا يملك بطاقة واحدة .

ورأينا من يأخذ ستين مقطعاً من الأقمشة الشعبية وبجانبه من لا يستطيع الحصول على الأمتار .

ولقد كنا نوازن بين أن تُترك العوامل الاقتصادية تسير سيرها وتفعل فعلها ، وبين أن تُقَيِّد وتُعطى الدولة هذه السلطات الكثيرة فنرى الأولى خيراً ورحمة والثانية شراً ونقمة .

فهل نريد أن يتحكم أفراد منا فى طعامنا وشرابنا وكسائنا وسكنانا ؟

إننا نريد أن ينحصر سلطان الدولة [١] فى أضيق الحدود ، ولا نريد أن نعطيها هذا السلطان المطلق ، وهذا التدخل فى كل شئ فقد جربناه فلم نحمده .

إننا إذا قلنا ذلك ، قالوا : الأخلاق ! ويجب أن يكون عمال الدولة من ذوى الأخلاق الفاضلة .

ونقول : ولماذا نكون طُلقاء فتلجئونا إلى أن نُقيِّد ؟ فإذا أشفقنا من القيد وثقله ، قلتم إننا سنعمل على أن يكون قيداً من ذهب ؟ !

على أننا سنجاريكم ، ونأخذ بالحيطة ، ونرى أنه ينبغى أن نُقدِّم أولاً تهذيب القائمين بالأمر ، وتكون هذه هى المرتبة الأولى . ثم ننظر ثانياً فى تسليط الدولة على كل المرافق .

أذلك يُجدى ؟ كلا .

فإن طبيعة العمل المشترك تدعو إلى التساند والتواكل ، وطبيعة اتساع نطاق سلطة الحكومة على الأفراد تدعو إلى التعدى والظلم .

إننا نحسب أن الذين يغريهم برق الشيوعية الخلب ، يفرض كل واحد منهم أنه سينال حاجته بأقل سعى ممكن ويفرض أنه يهرب من الحمل ويحمله الآخرون .

فيكون مثلهم مثل أهل البلد الذين أرادوا أن يُقدِّموا لحاكمهم الجديد هدية

---

(١) نحن نرى أن المصلحة قد تقضى بتأميم المرافق العامة ، والأحزاب الاشتراكية فى دول الغرب الحرة تضع ذلك بين برامجها ، وذلك شئ غير فرض الشيوعية على الأمم ، فإن الحريات الواسعة حيث تبقى الكرامة الإنسانية بالدين . والشورى تصون المال العام وتدعم الحوافز الخاصة ، ومن الممكن بالنقد المتاح والضمير الحى تلافى سيطرة الحكومة على هذه المرافق .

برميلاً من زيت ، وجعلوا على كل واحد منهم قدحاً منه ، فخطر لعمدة البلد أن يُقدِّم قدحاً من ماء ، وهو لن يُعرف فى وسط هذه الأقداح الكثيرة من الزيت ، فنفذ فكرته ..

ولما قدَّم الهدية إلى الحاكم وفتحها ، وجدها برميلاً من الماء ، لا نقطة فيه من الزيت إذ هذه الفكرة لم تدر بخلد العمدة وحده ، بل دارت بخلد الجميع .

ونحن إذا أرّخنا الحضارة الحديثة ، وبحثنا عن أصولها وأسباب ازدهارها ، وجدنا سر هذا الرقى الإنسانى فى الجهد الذاتى الذى يدعو إلى الأمل ، والحرية فى الاختيار ، ورفع سلطة الحكومة عن الأفراد إلا فى حدود ضيقة ..

لماذا نترك هذا النظام إلى نظام آخر تختفى فيه المنافسة ، والجهد الذاتى ، والحرية الشخصية ، وتتدخل فيه الحكومة فى كل شئ ؟ !

فليت شعرى ، أنترك ما تحقق نفعه إلى ما لم يُعلم نفعه ؟ !

أنترك هذا النظام الذى من آثاره ذلكم التقدم الإنسانى الرائع فى الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والمعارف ، والذى بدَّل الأرض غير الأرض ، إلى نظام أقل ما فيه أنه مجهولة نتائجه ، بل إذا اهتدينا فيه بهدى العلم علمنا أنه يُميت فى المرء الهمة الذاتية ، والجهد المستمر ، وتلك آثار داعية إلى التقهقر والانحطاط ؟ !

ما من شئ يضطرنا إلى اعتناق الشيوعية ، لأنه ما من شئ يضطرنا إلى المجازفة بمستقبل الإنسانية .

وما من شئ يضطرنا إلى الرجوع بالإنسانية إلى عهود التأخر والانحطاط .

نعم لا شئ إلا ما يسمونه رفع الحيف عن العمال والزرّاع .ومحاربة نظام الطبقات !!

وهذا يمكن علاجه حيثما وجدَ بوسائل تُبقى المنافسة والجهد الذاتى والحرية الشخصية وتُزيل عن الفقراء كَل الأضرار التى يشكون منها كما فعل ذلك الإسلام ..

*　　*　　*

ونحن نحس أن الحوافز الشخصية قوة تيسر الصعب ، وتُورث الجرأة ، وتحتال على إزاحة العوائق وتصبر على بعد الغاية والتواء المراحل .

إنه لولا عرام الغريزة الجنسية وعظم الطاقة الكامنة فيها لانقرض الجنس البشرى ، فإن بقاء هذا الجنس لا يمكن لو كان مرتبطاً بالمشاعر الفاترة أو الأفكار العقلية ، أو المكافآت التشجيعية .

ونماء الحياة وارتقاؤها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بغرائز حب النفس والولد ورغبة التفوق والتملك .

وهى طبائع بنَّاءة بعد ضبطها وتهذيبها ..

وشرائع الله لعباده لم تمحق هذه الطبائع ولم تدع إلى إماتتها ، وإنما راقبت مسيرها ، وحدَّدت وجهتها ، وتدخلت بالمحو والإثبات فى مقاصدها وأهدافها .

وكان المفروض أن تموت الشيوعية فى مهدها بعد ما صادرت مبدأ المِلكية الخاصة فى أعقاب مصادرتها للدين نفسه .

ولكن الأسلوب الذى فرضت به الشيوعية نفسها ، وفَّرَ لها الحياة والتقدم من ناحية أخرى .

فمبدأ « من لا يعمل لا يأكل » جعل العمل إلزاماً على كل مخلوق ذكراً كان أم أنثى ..

ثم إن المرء قد يدفعه الخوف المزعج كما يدفعه الشوق المقلق .

وقد استطاع الشيوعيون إقامة نظام بالغ الرهبة شديد الصرامة ، يجعل الناس ليلاً ونهاراً فى شغل شاغل ونصب دائم .

وربما أعطيت المجتمعات الرأسمالية رذائل الفراغ والعطل ، وضياع الأوقات والطاقات سُدى .

أما هؤلاء الشيوعيون فبلادهم خلايا دائبة الحركة ، موصولة الطنين ، قد أصبحوا فيها آلات حيوانية أو حيوانات آلية ..

ومثل هذا النشاط يغطى عيوب النظام ، ولو إلى حين . !

لكن هل اختفى تفاوت الطبقات ؟ أو بعبارة أخرى : هل جمهور الأمة سعيد بعد ما زالت الثروات الكبيرة وأصحابها ؟

والجواب : كلا كلا ، فدائرة البؤس فى ظل الإقطاعيين بقيت كما هى أو انداحت أطرافها .. !!

فمدير المزرعة أو المصنع حل محل مالك الأرض أو صاحب الشركة .

والعصا التى كان يُساق بها العامل أو الفلاح تغير اسمها فقط . أو تغيرت الذراع التى تبطش بها .

تُرى هل ذلك يُغيِّر من وقعها ولذعها ؟ !

* * *

لقد كان من الأقدار الحسنة أن يقع فى يدى وأنا أخط هذه السطور كتاب يتضمن رأى الكاتب الفرنسى « أندريه جيد » فى الشيوعية .

قد كان هذا الكاتب أول أمره شديد الحماس للشيوعية قوى الأمل فى مستقبلها ، فاستدعاه الروس ليُطلعوه على أحوال بلادهم ومظاهر النهضة فيها ليزداد إيماناً بها .

وذهب الرجل إلى روسيا وشاهد ما ظهر وما خفي من أحوالها ، ثم قفل كافراً بالشيوعية ، ومندِّداً بسياستها الاجتماعية .. !!

وهذا الكاتب لا يهتم بقضايا الإيمان ، ولا يعنيه أن ينتصر الدين أو ينكسر ، إنما يعنيه أمر الإنسانية في حاضرها ومستقبلها على هذا التراب فقط ، ويغلب على ظني أنه وجودي .

وما أبهْتُ لكلامه إلا لأنه روى بأمانة ما رأى ، وأحس العيوب الجسام التي يحاول الشيوعيون سترها ، ثم تحدَّث عنها دون وجل ، أو دون تأثر بإكرام الروس لشخصه !!

وقد طعن الشيوعيون في نقده ونسبوه إلى الهوى ، بيد أنه ينفي ذلك فيقول :

« أعتقد أنه من الخير للقضية التي يمثلها الاتحاد السوفييتي أن أتحدث عنه بغير تكلف ولا ادعاء ، ولا غمط ولا اعتداء ..

وليس في نفسي شخصياً ما أشكو منه خلال رحلتي في بلاده ، رغم كل تلك التعليلات الناقمة الساخطة التي انتُحلت فيما بعد لتفنيد ما قلته ، وتسفيه ما نشرته ، ورغم قولهم إن انتقادي إنما جاء نتيجة استياء شخصي وتذمر خاص .

وهو قول جد سخيف ، وأبعد ما يكون من الواقع ، فلم أتنقل يوماً في حياتي بذلك الترف الذي أحاط بي في روسيا ، ولا كنت يوماً أوفر متعة ، وأكثر تكريماً .

ففي كل مكان وجدت أفخم السيارات لمركبي ، وإذا سافرت في القطار خُصِّصت مركبة لمنزلي ، وأفردت لي الفنادق أبدع الحجرات ، وقدمت لي أطيب المآكل والوجبات .

ولم يكن - على طول المدى - يُقدَّم لي إلا ما هو أبدع وأفخم وأطيب .

ولله أي استقبال كنت في كل موضع أجده ؟ وأية حفاوة تلك التي لقيتها أينما نزلت ؟ لقد كنت أبداً موضع التكريم والترحاب ، وكان القوم يرون كل هذا قليلاً في حقي ، ويسيراً لمثلي .

حتى لقد عدتُ وأنا حافل الذاكرة بآيات الحفاوة التي شهدتُها والخطوات التي ظفرتُ بها .

ولكنها مع ذلك ظلت تُذكرني أبداً بالامتيازات والفوارق التي كنت أرجو أن أرى « المساواة » في مكانها ، والمعدلة قد حلت في روسيا محلها .. !!

وحين هربتُ من كبار الموظفين ، ومضيتُ أختلط بالعمال تبين لي أن أكثرهم يعيشون في أبشع صنوف الفاقة ، في الوقت الذي كنت أجلس فيه إلى مأدبة فاخرة كل ليلة ، وأرى الخوان حافلاً بالأطايب ومختلف المشهيات ..

حتى لتكفي هذه المشهيات لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته !

وهو عشاء من ستة ألوان منوّعة ، يستغرق المرء في الجلوس إليها عدة ساعات ، ولم أترك مرة واحدة حراً أدفع قائمة الحساب .

وليس في إمكاني أن أقدِّر نفقات هذه المآدب ، ولكن صديقاً لي أوتي علم الأسعار في روسيا أنبأني أن الشخص الواحد في هذه الولائم يُكلِّف مائتي روبل أو ثلثمائة ، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين لقيتهم لا يتقاضى من الأجور أكثر من روبلان في اليوم ، وهوالقانع بالخبز الأسود والسمك المجفف .

وكان إعجابي موجهاً بنوع خاص في روسيا إلى الانبعاث غير المألوف نحو التعليم والثقافة . ولكن المحزن أن التعليم الذي يتلقاه الشعب لا يتعدى تلقينه الزهو والتفاخر بالحاضر ، والإيمان المطلق بالاتحاد السوفييتي ، وأن الثقافة إنما ترمي إلى هدف واحد هو تمجيد هذا الاتحاد والتسبيح بحمده .

فهي ليست ثقافة نزيهة مجردة من الهوى ، ولا هي تثقيف للعقول وتربية لملكة الحكم على الأشياء .

إن النقد لا وجود له مطلقاً في تلك البلاد ..

ولستُ أجهل أنهم يجعلون من انتقاد أنفسهم استعراضاً ، ويتظاهرون به تظاهراً ، حتى لقد اعتدتُ في بداية الأمر ورجوت أن يؤدي هذا النزوع إلى نتائج طيبة إذا هو طُبِقَ التطبيق الصادق الصحيح .

ولكن لم ألبث أن أدركتُ أن النقد في روسيا لا يتعدى البحث فيما إذا كان هذا الأمر أو ذاك متفقاً مع سياسة الحزب أو غير متفق لا أكثر ولا أقل .

لأن هذه السياسة لا سبيل إلى مناقشتها أو انتقادها .

غاية ما هنالك البحث عن مدى اتفاق أية فكرة أو رأي أو تصرف مع تلك السياسة المقدسة ، أو مبلغ اختلافها معها .

وهي حال ذهنية ليس ثمة أخطر منها على الثقافة الصحيحة ، ولا أشد أذىً لها.

فلا غرو إذ ظل أفراد الشعب في جهل تام بكل ما يدور خارج بلادهم ، بل أدهى من ذلك وأمر أن يقال لهم : إن كل ما في الخارج دون مثيله في الداخل بمراحل !!

ولم يعد اختفاء الرأسمالية من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع .

ولم يسق إليهم الحرية التي كانوا لها ناشدين .

فلتدرك الطبقات الكادحة خارج الاتحاد السوفييتي هذه الحقيقة كل الإدراك .

ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة في أيدي أصحاب رؤوس الأموال وحملة الأسهم والسندات يستغلونهم كيف يشاؤون .

ولكن الواقع أن الاستغلال لا يزال قائماً ، وإنما أصبح مقروناً بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدها إلتواءً ، بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملومون فيه ، ومن هم الذين يُؤاخذَون عليه ..

فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة .

بينما أتاحت أجورهم – التي لا تُسمن ولا تُغنى من جوع – الفرصة لزيادة مكاسب العمال الممتازين ، أو معاشر الخانعين المسلمين بكل ما يُطلب منهم، القائلين : نعم .. في كل شيء .

ولا يسع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذي يُبديه أهل السلطان نحو من دونهم من الأفراد .

وكذلك شدة الخنوع والذل اللّذين يُظهرهما هؤلاء لأولئك .

إن الانكسار الذي يُبديه الفقراء ومعاشر المكدودين لرؤسائهم ، سقوط إنساني ذريع ..

وأنا أسلّم جدلاً بأنه لم تعد في روسيا طبقات ولا فوارق ، ولكن الواقع أن فيها فقراء ، بل إنهم فيها الكثرة البالغة ..

وكنت أرجو ألا أجد منهم أحداً ، أو بعبارة أصح ، لقد ذهبت إلى روسيا لكيلا أجد للفاقة فيها أثراً ..

ولكن الفاقة هناك يُعبس في وجهها أينما سرت ، وتقابل بالإعراض والتجهم والاشمئزاز من السادة الذين حالفهم الحظ .

حتى ليخيل للمرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة في أحضان الإجرام ، فلا تثير شفقة ولا تبعث على العواطف والإحسان بل يُنظر إليها بعين الازدراء والاحتقار.

وما أولئك الذين يتراؤون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وتوفيقهم بثمن هذه الفاقة العامة ، وعلى حساب هذا الفقر الشامل » !!

* * *

هذه الصورة الكالحة هى صورة المجتمع الإنساني الراقي كما نسجت الشيوعية خيوطه وأوضحت معالمه .. !!

ولما كنا في عصر يجيد اللعب بالألفاظ فإن هذا الهوان العام سُمِّي حكم الشعب واعتُبر تحقيقه تلبية لنداء الجماهير !!

وقد ألفنا في الشيوعية أن الحاكم بأمره يتحدث دائماً باسم الأمة .

وأن حراس الإرهاب المسلح يُسمُّون أنصار السلام .

وأن نقض دعائم الدين يُسمَّى المنهج العلمي .

وأن العودة إلى الحيوانية الأولى تُسمَّى تقدمية ... إلى غير ذلك من المتناقضات ..

وظاهر من الدراسة والتطبيق معاً أن الشيوعية مذهب سياسي يتوسل بالوسائل الاقتصادية لإدراك مآربه . وأنه لو كان فكرة اقتصادية لمصلحة الجمهور لكان الجمهور هو صاحب الرأي الأول والأخير في أخذ أو ترك ما يراه أضمن لمصالحه وأضبط لشئونه .

لكن ما يقع هو العكس ، فالجمهور يتجرع كارهاً متاعب هذا المذهب ونقائضه .

فإذا تململ قيل له : حذار أن تتحرك !! لا بد أن ترضى بما يملي عليك !!

ومن الذي يصدر هذه الأوامر ؟

حفنة من الرجال أحاطوا أنفسهم بقداسة مبهمة ، وجعلوا من امتلاكهم للمال العام أو من سيطرتهم عليه فرصة لإتراف أنفسهم وأشياعهم ، ثم توزع المسكنة والبأساء على سائر الناس ..!!

إن التاريخ لم يعرف حكماً استبدادياً حصَّن نفسه بمثل هذه السلاسل من الحصون ..

* * *

ونعود إلى استكمال الصورة الاقتصادية للمجتمع الشيوعي .

هناك نظام السُخرة ، وهو نظام يُتيح للدولة تجنيد الألوف المؤلفة من العمال والفلاحين للكدح في كل شيء دون مقابل ، أو مقابل كسرة خبز وكسوة تدارى ما تيسّر من الجسم .. !

يقول الشيخ الأستاذ عمر الإسكندري في كتابه « الشيوعية على حقيقتها »:

كان المظنون أن بلاداً كروسيا السوفييتية قامت دعائم الحكم فيها على أساس تحرير العمال وإكرام مثواهم ، ألا يجد الإنسان فيها للأعمال الاجبارية أو التسخيرية أى أثر .

ولكن الواقع الذي شهدت به المصادر العديدة الموثوق بصحتها أنه يوجد في روسيا من العمال المحكوم عليهم بالأشغال الإجبارية تحت الحراسة - ومعظمهم بدون أجر سوى فتات القوت الذي لا يكاد يفي بأودهم - ما يُقدَّر عددهم بالملايين .

وذلك في أنحاء نائية تبعد آلاف الأميال عن مقرهم الأصلي .

والحكومة تبذل كل جهد لإخفاء وجود هؤلاء العمال ، ولا تذكر عددهم صراحة في إحصاءاتها بل تدرجهم تحت عنوان « عمال » فقط أو لا تُدرجهم مطلقاً .

كذلك لا تسمح لأي أجنبي أو مراسل صحفي بزيارة معاقلهم أو محاولة البحث عن أماكنهم .

وقد حدث مرة أن صحافية كندية احتالت حتى تمكنت من دخول أحد هذه المعسكرات فأمر الاتحاد السوفياتي بطردها من البلاد في الحال .

ومع ذلك فقد وصلت إلى العالَم الخارجي معلومات تفصيلية عن هؤلاء العمال ، وذلك عن طريق من تمكن منهم من الفرار ، ومن الكُتّاب الروسيين المقيمين الآن في الخارج أو من الأمريكيين الذين مارسوا أعمالاً في روسيا أو عاشوا فيها أو ساحوا في أرجائها .

وقد اختلفت هذه المصادر اختلافاً كبيراً في تقدير هؤلاء العمال بسبب البيئة التي وُجِدوا فيها ، أو السنة التي حصل فيها التقدير ، إذ أن عددهم في ازدياد مستمر ..

فقال بعضهم إنه نحو ستة ملايين ، وقال آخر إنه عشرة ، وآخر إنه أربعة عشر ، وآخر إنه ثمانية عشر مليوناً .

غير أنهم كلهم مُجمعون على أنهم يُقدَّرون بالملايين ، وأنهم يُعامَلون معاملة المساجين تحت حراسة صارمة ، وأنه خصصت مصالح حكومية هامة لتعيين أو إدارة الأعمال التي يُسَّخرون فيها ، فمنها إنشاء الطرق والسكك الحديدية وردم المستنقعات وإزالة الأشجار واستصلاح الأراضي النائية واستخراج الملح أو الذهب من المناجم فضلاً عن الكثير من الأعمال الصناعية الثقيلة التي يُسَّخرون فيها داخل معتقلات خاصة بذلك .

ومعظم هؤلاء العمال من المغضوب عليهم سياسياً بسبب معارضتهم لمبادىء الحزب أو مشروعاته .

ومنهم طائفة « الكولاك » وهم أغنياء الزُرّاع الذين لم يقبلوا الاندماج في سبل الزراعة الجماعية .

وأضيف إليهم في السنوات الأخيرة الكثيرون من أبناء الشعوب غير الموثوق بولائها ومن سكان الجهات الواقعة على حدود الاتحاد السوفييتي من جهة أوروبا وآسيا على السواء » .

والشيء الذي لم يذكره للأسف الأستاذ المؤلف ، أن السواد الأعظم من هؤلاء العمال المسَّخرين هم جماعة المسلمين المُستذَلين .

هم المؤمنون الأحرار الذين أبوا ترك دينهم ، وبيع بلادهم ، وتسليم مقاليدها للاستعمار الأحمر ..

هم أبناء التركستان والقوقاز والقرم وغيرهم الذين قاتلوا عن عقائدهم ومواطنهم إلى آخر رمق ..

فلما انكسر في أيديهم السلاح وسقطوا هم وأولادهم في الأسر ، كُتِبَ عليهم أن يعيشوا في هذه السُخرة الدائمة حتى يدركهم الموت ..

وقد آن الآوان لكشف هذه الفواجع ، وإماطة اللّثام عنها والاستماع إلى ضحاياها وهم يئنون ويستصرخون ..!!

وذلك ما نبدأ الحديث فيه .

* * *

الفصل الخامس

المسلمون فى الاتحاد السوفييتى

من هم ؟ وما بلادهم ؟ حول الاستعمار الروسي - حديث ذو شجون إلى العرب الغافلين - فضل الأجناس الأخرى - نجاح الحملة الصليبية الروسية - النداء الشيوعي للمسلمين الروس - موقف الجمهوريات الإسلامية منه - عودة الاستعمار الأحمر - الإبادة الجماعية - شكوى إلى هيئة الأمم المتحدة !!

روسيا شيء والاتحاد السوفييتي شيء آخر !!

إنهما في المجال العملي والدولي شيء واحد ، ولكنهما من ناحية الواقع والتاريخ شيئان مختلفان !!

كانت روسيا دويلة محدودة المساحة والقدرة ، تقع في الركن الشمالي الشرقي من أوروبا لا تزيد أرضها عن الجمهورية العربية المتحدة .

ثم أخذت تتسع وتبتلع أقطاراً أخرى مجاورة ، حتى بلغت الآن خمسة عشر ضعفاً من حجمها الأول ، فوصلت إلى البحر الأسود ولم يكن لها عليه موضع قدم إلى عهد بطرس الأكبر ، وأطلت على البلطيق غرباً ، وعلى المحيط الهادي شرقاً ، واستوعبت عدداً كبيراً من القوميات واللُّغات المختلفة ..

والأقاليم المسيحية التي شملها هذا التوسع الروسي ضئيلة المساحة ، فقيرة الموارد ، وهي لا تزيد عن : أوركرانيا - واستونيا - ولاتفيا - ولتوانيا .

أما الأقاليم الإسلامية التي انساح فيها الروس فهي رقع فيحاء ، بعيدة المدى ، تزيد مساحتها عن القارة الأوربية كلها عدة مرات !!

وتشمل : (١) الأورال (٢) استرخان (٣) سيبيريا (٤) القرم (٥) القوقاز (٦) التركستان .. أي الشمال الشرقي من العالم الإسلامي أجمع .

ومنذ استولى أباطرة روسيا على هذه البلاد - خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة - والجهود دائبة على سحق الإسلام فيها ، ومحو معالمه الثقافية والاجتماعية ..!!

والسياسة الروسية فى هذا الميدان جزء من المخطَّط العالمي الصليبي للإتيان على الإسلام كله ، ودَكِّ قواعده ..

وقد تكفل الاستعمار الغربي بمحاربة الإسلام في إفريقية كلها ، وجنوبي آسيا .

ومن حسن حظ المسلمين في هذه البلاد ، أن كتُّاباً كثيرين فضحوا هذه الغارة، ونبَّهوا إلى أخطارها ..

أما مسلمو أواسط آسيا وشمالها ، فقد نشب القتال بينهم وبين الروس خلال قرنين مشئومين كالحين ، داخ فيهما الإسلام ، ودال ، وتفانى أهله واستُهلكوا .

وذلك كله وراء حجب من الصمت تشقها بين الحين والحين صيحات الفارين من الاضطهاد ، أو المنسحبين من أرض المعركة بعد ما طال بلاؤهم وسقط لواؤهم ..

كان المسلمون ضحية تعصب القياصرة قبل الثورة التي أطاحت بهم .

ثم كانوا بعد انتصار الشيوعية في روسيا ضحية الإلحاد الذي يكره الدين كله ..

واليوم يتكوَّن الاتحاد السوڤييتي من أرض تسعة أعشارها كان إسلامياً ، ومن عدة قوميات كان أغلبها إسلامياً في ثقافته وعبادته ، ثم حافت عليه الليّالي ..

* * *

خذ مثلاً « سيبيريا » التي يظنها جمهور المثقفين عندنا أرضاً خالية ، يُنفي إليها المضطهَدون الذين تريد الدولة الخلاص منهم .

هذه الأرض كانت جزءاً من الدولة المغولية الكبرى التي أسسها الأمير « باطو » ابن « جنكيز خان » .

وقد اعتنق المغول الإسلام ، وتحمسوا له ، وحكموا باسمه أمداً طويلا ، وبلغ من سطوة المغول أن « بارسلوف » دوق روسيا الأعظم اضطر أن يُقسم يمين الولاء للأمير « باطو » ، وأن يُعلن هو وسائر أمراء الروس خضوعهم لسلطته ..

وظلت « سيبيريا » بلاداً إسلامية خالصة حتى القرن السابع عشر للميلاد - الحادي عشر للهجرة .

ولم تسقط في يد الروس إلا بعد حرب دامت ٥٦ سنة .

وكان السلطان « كوجم » آخر حُكّامها المسلمين .

وقد عرض عليه الروس بعد ما انهار جيشه أن يقبل الاحتلال الروسي ويعيش ملكاً تابعاً لهم .

ولكن السلطان الشجاع أبي هذا العرض وآثر أن يقاتل دون كل شبر من « سيبيريا » المسلمة .

ففى أعقاب احدى المعارك رُئي هذا الملك يمشي هائماً على وجهه وقد فُقئت عينه ، ومن حوله أكداس القتلى من جنده البواسل !!

فعرض عليه السفير الروسي أن يقبل حماية دولته ، فأبى إلا الاستماتة في أداء واجبه .. !!

وجاء في رده على الروس : « لا أقبل عيش الأسير ، ولا موت الذليل . ولست أحزن لفقد أموالي وأملاكي ، وإنما حزني من أجل أولئك التعساء الذين يعيشون تحت نير الاستعباد الروسي » .

واستشهد هذا السلطان البطل في حرب المقاومة كما استشهد من بعده ابنه السلطان علي ..

ووضع الروس أيديهم على هذه الأرض الشاسعة وأسموها « سيبيريا » وهو لفظ مُحرّف من « صابري » الاسم القديم لهذا الإقليم ..

* * *

ومضى الروس في طريقهم يسابقون إخوانهم من غرب أوروبا في الانقضاض على هذه البلاد الإسلامية وتقطيع أوصالها .

يقول الأستاذ محمد سامي عاشور عميد معهد المعلمين :

« وفي خلال هذا التكالب الاستعماري من ناحية الغرب ، انتهزت روسيا القيصرية الفرصة فأنشبت أظافرها في البلاد الإسلامية في أواسط آسيا . وهي البلاد التي تقع ما بين حدود منغوليا وبحر قزوين من ناحية ، وبين سيبيريا إلى الأفغانستان والهند البريطانية من ناحية أخرى ..

بل لقد شرعت روسيا تناوش بلاد الأفغان في الوقت الذي اتفقت فيه مع بريطانيا على تقسيم إيران إلى منطقتي نفوذ ، واحدة في الشمال خصت بها نفسها ، وأخرى في الجنوب كانت من نصيب بريطانيا .

وتشغل هذه البلاد الإسلامية في أواسط آسيا التي استولت عليها روسيا القيصرية وقتئذ رقعة تزيد على رقعة أوروبا كلها .

وإذا كان العالم الخارجي لم يتنبه في ذلك الوقت إلى خطر الاستعمار الروسي في أواسط القارة الآسيوية فمرد ذلك إلى عوامل مختلفة .

فمن جهة كان الناس في ذلك الوقت ينظرون إلى التوسع الروسي في تلك

الجهات على أنه امتداد طبيعي فيما خالوه جزءاً متمماً لبلاد سيبيريا التي كانت روسيا تتملكها منذ القرن السابع عشر [١] .

وساعد على ذلك أن آسيا الوسطى - سواء من حيث موقعها الجغرافي أو من حيث ظروفها الأخرى - كان يكتنفها ستار من الظلام ، فَبُدِّلت كما لو كانت جزءاً متمماً لأملاك روسيا الآسيوية التي لم يكن يعرف عامة الأوروبيين عنها في ذلك الوقت إلا القليل .

ومن جهة ثانية فإن الاستعمار عن طريق البر أو الاستعمار « من الباب للباب » لم يكن لافتاً للنظر كاستعمار البلاد النائية التي تقع فيما وراء البحار .

ومن جهة ثالثة فإن معظم شعوب آسيا وإفريقية التي كان لها وعي سياسي أو قومي كانت مشغولة في ذلك الوقت بمقاومة الاستعمار الغربي .

ومن ثَمَّ كانت الحملات القومية في هاتين القارتين كلها منصبة على بيان مساوئ الاستعمار الأوروبي وحده .

بينما كانت روسيا تتسلَّل في غفلة من الناس إلى البلاد الإسلامية التي تشغل أواسط القارة الآسيوية دون أن تلتفت إليها الأنظار .

وهكذا كان من حسن حظ روسيا القيصرية - شأنها في ذلك شأن روسيا السوڤييتية الآن - أنها لم تكن مضطرة إلى ركوب البحر في توسعها الاستعماري . على خلاف ما كانت عليه حال الدول الاستعمارية الأخرى التي كانت مضطرة بحكم موقعها الجغرافي إلى البحث عن مستعمرات لها فيما وراء البحار . في بلاد لا تربطها بها روابط الجوار الجغرافي .

لذلك كان توسع الروس في أواسط آسيا يجري في ذلك الوقت بعيداً عن أعين الناس رغم أنه كان استعماراً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

وأما المسلمون أنفسهم في سائر بلاد العالم ، فإنهم لم يشعروا بوطأة هذا

---

(١) كانت سيبيريا أمة اسلامية كما قرأت آنفاً احتلها الروس بالسلاح .

الاستعمار الخفي ولم يدركوا ما سوف يكون له من أثر في حياة نيف وأربعين مليوناً من إخوانهم المسلمين يعيشون تحت ظل روسيا القيصرية لأنهم كانوا في شغل شاغل بشئونهم الخاصة ، يحاولون استخلاص أنفسهم وحرياتهم من براثن استعمار آخر أكثر وضوحاً وأشد نكاية ابتُلوا به من ناحية الغرب ، ولأن مصائرهم العليا من ناحية أخرى كانت في يد دولة منهارة وخلافة كانت هي نفسها تلفظ آخر أنفاسها ولها من مشاغلها السياسية والعسكرية ما كان له أثر مدمر على الشعوب الإسلامية عامة ، تلك هي الدولة العثمانية .

ولم تلجأ روسيا في احتلال البلاد إلى الأساليب الاستعمارية المستحدَثة بل اعتمدت كل الاعتماد على جحافلها وجيوشها ، وعلى ما تستطيع تلك أن توقعه بالناس من قتل وفتك وسلب ونهب .

كان احتلالاً يمثل الاستعمار في أبشع صوره . وينزع إلى إنزال الشعوب المستعمرة منزلة العبيد .

* * *

ولم يستسلم المسلمون في تلك البلاد لسلطان الروس مع ذلك ، بل جعلوا يقاومون ويستبسلون ، متحملين في ذلك كل أنواع التضحية وهم يحاولون رد هذا الطغيان عن بلادهم وأوطانهم .

ففي بلاد الشركس والقوقاز استمر جهادهم على أشده حتى سنة ١٨٦٤ إلى أن وقع زعماؤهم المجاهدون ومن بينهم الإمام « شاول » في قبضة الروس .

بل لقد أشاد « كارل ماركس » نفسه ببطولة المسلمين في القوقاز واستبسالهم في دفاعهم عن أوطانهم في ذلك الوقت .

ومن عباراته المأثورة في ذلك نداؤه للشعوب المستضعَفة الذي يقول فيه :

« يا شعوب العالم ! ليكن قتال القوقازيين من أجل حرياتهم درساً لكم !!

تعلموا منهم فن الدفاع عن الحرية القومية » !

والمؤرخ الروسي « فادييف » نفسه لم يتردد في القول بأن الحرب في شمال القوقاز شلّت حركات الجزء الأكبر من الجيوش الروسية بعض الوقت .

كما اضطر إلى الاعتراف بأنه « لولا الحرب القوقازية التي عاقت تقدمنا لاستطاعت الجيوش الروسية أن تحتل الشرق بأجمعه من مصر إلى اليابان وهى تسير على نغمات فرقها الموسيقية » .

ولم يكد يستتب الأمر لروسيا في منطقة القوقاز حتى أخذت تُسَيِّر جيوشها نحو التركستان وغيرها من البلاد الإسلامية في أواسط أسيا إلى أن تم لها في النهاية إخضاع المنطقة كلها .

ومنذ ذلك الحين أخذت تستخدم أساليبها الاستعمارية التقليدية لتقويض كيان تلك البلاد ، فعمدت إلى تقييد الحريات إلى أدنى حد ممكن ، واستغلت كل ما فيها من موارد من القطن والمعادن استغلالاً سافراً لا يمنعها من ذلك مانع .

* * *

وقبل أن نتكلم عن الأرض الإسلامية المنهوبة ، والشعوب الإسلامية الذائبة داخل الاتحاد السوفييتي أرى أن أتوجه بالحديث إلى المسلمين العرب ، وهو حديث ذو شجون ومآخذ :

وخير لنا أن نتصارح بأخطائنا وخطايانا قبل أن نلوم غيرنا ..

إن الناس هنا يسمعون أخبار المسلمين في أرجاء العالم وكأنهم يسمعون أنباء جنس غريب .

ويصغون إلى أحوال المسلمين تحت الحكم الشيوعي وكأنهم يصغون إلى أحوال العالَم الآخر ، عالَم ما وراء المادة !!

لقد تمزقت الجامعة الإسلامية شر مُمَزّق ، ونال منها الشيطان مبتغاه !!

أما التاريخ الإسلامي العام لهذه الأمة الإسلامية الكبيرة منذ انطلقت مع الزمان السائر ، تؤدي رسالتها ، وتبلغ هدايتها فهو للأسف تاريخ غامض ..

كنت يوماً في الجامع الأزهر متجاوزاً صحنه المكشوف إلى أروقته المغطاة .

وفي بقعة مهجورة يُداريها باب شبه خفي وجدتُ مقبرة بها جثمان جوهر الصقلي باني الأزهر والقاهرة .

فقلتُ لصاحب يسير معي : هل يدري الأزهريون شيئاً عن موطن هذا الرجل ؟

إن جمهرتهم وجمهرة المثقفين معهم ، لا يدرون متى دخل الإسلام صقلية ؟ ولا كيف أبيد فيها ، أو انسحب منها ؟؟

وكذلك الحال بالنسبة إلى جزر البحر الأبيض كلها ، وإلى مواطن إسلامية كثيرة في أوروبا وآسيا وإفريقية ..

إن تاريخ الإسلام السياسي لا يُدرس للأسف البالغ دراسة تمحيص واستيعاب .

بل إن مسير الدعوة الإسلامية لا يُتابَع في الجامع الأزهر متابعة تَعرُّف واستقصاء !!

ونشأ عن ذلك أن القافلة الإسلامية التي انطلقت برسالتها الجليلة منذ أربعة عشر قرناً عرضت لأهلها محن رهيبة خلال القرون الأخيرة . كان يجب أن تُعرف بدقة لتحظى بفكر واحد وشعور مشترك .

لكن التقطع الذي عرا المسلمين في أعصار مذلتهم حصر هذه المآسي في محالها ، وحبس الألم منها في جلود أهلها ..

ولولا جهاد بعض الزعماء الإسلاميين الكبار لوصل ما انقطع ، لكان ذلك ذريعة ضياع المسلمين أجمعين ، والإسلام أيضاً ..

إن الأخوة الإسلامية تفرض علينا نحن العربَ أموراً مهمة نتذاكرها بصراحة ونقررها في إيجاز !!

لقد كان العرب أول شعب آمن بالإسلام ، وحمل رايته ، وهزم القوى الشريرة التي اعترضته ..

وتلك مفخرة للعرب تنضاف إلى أن الوحي بلغتهم نزل ، وأن قياد الإسلام الروحي والعقلي ممتزج بالعروبة إلى آخر الدهر .

لكن الإسلام ليس دينا لجنس مُعيَّن ، إنه لأهل الأرض كلهم ما بقى على ظهرها إنسان ..

إنه لجميع الأمكنة والألسنة والأزمنة .

ومن ثَمَّ كان طبيعياً أن تدخل في دين الله أجناس وخلائق لا عِداد لها ، وكان على العرب في سبيل نشر الإسلام أمران :

أولهما : تعريب جماهير غفيرة من كل لون ليشتركوا مع العرب أنفسهم في فقه الرسالة وإبلاغ هداياتها .

والثاني : نقل هدايات الإسلام نفسها إلى لغات وآداب الأمم الأخرى لأن استعراب الناس جميعاً مستحيل .

فليبق أمام أهل كل لغة شعاع يربط الناس بحقائق الدين ويصلهم في حدود مستواهم برب العالمين .

وقد كان جهاد آبائنا في الميدان الأول أوسع منه في الميدان الآخر .

ثم خلفت خلوف كانت قصيرة الباع في الناحيتين معاً ..

ولا ريب أن ذلك أساء إلى الدعوة الإسلامية .

وأشاع نوعاً من الوحشة بين الأجناس الداخلة فيها . حتى لترى اليوم الجماعات الهائلة من المسلمين الهنود والزنوج والأتراك لا يكاد العرب يحسنون التفاهم معهم ، لقصور العرب في إشاعة العربية لساناً عالمِّياً ، ولتقصيرهم في فهم اللُّغات القومية لهؤلاء الأخوة في العقيدة والعبادة وسائر شرائع الإسلام !!

وأمران آخران نذكرهما في هذا المجال .

الإسلام دين ودولة ...

وفي صدر تاريخه كان الحكم في يد العرب وذلك أمر لا غرابة فيه إذ هم أصحاب الرسالة الذين بذلوا التضحيات الغالية في سبيل حمايتها وازدهارها ..

ولما كانت هناك أجناس راقية ارتضت الإسلام ديناً ، ولم تر نفسها دون العرب قدرة على أداء حق الله وخدمة دينه ، فقد توفّرت على النواحي الثقافية وبرزت فيها .

وقد ذوّب الإسلام في حضارته الفوارق الجنسية ، فتآخت مواهب كثيرة وخصائص عالية على إعلاء شأنه وتعميق مدنيته . ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) .

ثم انتقل الحكم إلى أجناس غير عربية لأسباب شتىً .

وكان حق الإسلام على العرب إذا فقدوا الصدارة السياسية ألا يفقدوا السيادة العلمية .

كان يجب عليهم أن يشتغلوا بفنون الثقافة الإسلامية ، وأن يتوفروا على توسيع دائرة الدعوة بطريقتي التعريب والترجمة .

وأن ينسابوا في أرجاء الهند والصين والقوقاز والتركستان وجنوب البلقان ووسط أوروبا ... إلخ .

لكن الذي حدث أن العرب قصّروا وتخاذلوا ..

وأن الترك الذين حكموا الأُمة الإسلامية لم يؤازر نشاطهم العسكري فتح علمي ومدد روحي ..!!

فإذا الدفعة الأدبية الأُولى النابعة من إخلاص السَلَف وكفايتهم تتلاشى كما تتلاشى الموجة على رمال الشاطيء .

وإذا المسلمون المبعثَرون في القارات الثلاث ينفرط عقدهم وتتناكر أنفسهم ويحيون بلا إمامة روحية ولا ثقافة عقلية ، ولا روابط إدارية ، ولا وحدة جامعة .

---

(١) المطففين : ٢٦

وتحركت الصليبية كما ذكرنا لتثأر لهزيمتها الأولى .

ورأينا الروس يحتلون نصف آسيا الإسلامية وأغلب المسلمين لا يدري .

ولا تزال الغشاوة السميكة مضروبة على ألوف الأبصار إلى الساعة التي أكتب فيها هذه السطور .. !!

* * *

لقد وقعت في إحدى اللّيالي السود مذبحة قُتِل فيها الزعيمان الإسلاميان « أحمدو بِلُّلو » و « أبو بكر تفاوه » ومئات من زعماء المسلمين في نيجيريا.

وكان القتلة من الفجور والتبجح بحيث لم يحاولوا إخفاء وجودهم ، ولا غسل أيديهم .

وبدا كفلق الصبح أن إسرائيل والاستعمار الغربي الصليبي من وراء هذه المجزرة .

ومع هذه الدناءة كلها فسرعان ما أهيل التراب على المأساة وأسدل ستار الصمت الخسيس على فصولها !!

لماذا ؟

لأن قتل أحمدو بِلُّلو وأبي بكر تفاوه مسألة إسلامية تتصل بمستقبل ثلاثين مليوناً من مسلمي نيجيريا وهذا أمر تافه !!

إن العمل للإسلام لا يُؤبه له ، ولا يُذكر صاحبه .. !!

إن الأُخوة الإسلامية شعور رجعي يجب بتره .. !!

وإذا جاشت عاطفتها يوماً فليس من اللائق الاسترسال معها ، بل ينبغي فوراً البحث عن مقادير من الماء البارد لإطفاء جذوتها !!

ومتى يحدث ذلك ؟

في الوقت الذي تشغل فيه صحف العالم وإذاعاته بمقتل « لومومبا » أو خطف « بن بركة » وهما زعيمان يساريان !!

الخلود لهؤلاء !! والفناء لرجالات الإسلام وقادته وساسته !

إننى أتوجه بالحديث إلى العرب المسلمين أسألهم : ما دهاهم ؟

إذا لم يرفعوا لواء الاسلام فما يرفعون ؟

وإذا لم يشتغلوا بدعوته فبم يشتغلون ؟

لقد استطاع الاستعمار أن يعلقهم بقوميتهم الخاصة ، وأن يجعل من خرافة البعث العربى ارتداداً جديداً عن الإسلام فى هذه الآونة العجفاء .

ألا يعلمون أن انسلاخهم عن الإسلام هو خزى الدنيا والآخرة ؟

وأن تجاهلهم لقضايا إخوانهم المسلمين فى المشارق والمغارب هو الذى سيحفر مقابرهم ويطوى آثارهم ؟

إننى أهيب بقومى أن يعودوا إلى الإسلام وأن يحسوا آلام إخوانهم فى كل قارة .

إننا معشر العرب لا نمثل أكثر من سدس المسلمين فى العالم ، ولسنا أولى بالله من غيرنا ، ولن يبالينا الله باله إذا فرّطنا فى أمره .

ومن حق مسلمى العالم أن يستغنوا عن العرب ، ولا كرامة إذا استغنى العرب عن الإسلام ولم يكترثوا لقضاياه ومشكلات أتباعه فى العالمين .

وندع هذا الحديث ذا الشجون ونعود للكلام عن القارة الإسلامية المفقودة داخل الاتحاد السوفييتى .. !!

* * *

إن تاريخ الإسلام وأهله هناك يحتاج إلى إيضاح كثير .

لقد دخل الإسلام القوقاز بعد سنين قلائل من دخوله فى مصر وانتشر فى التركستان انتشاراً كبيراً على عهد الأمويين .

ويمكن القول بأن التركستان اصطبغت بالعروبة فى وقت مبكر جداً .

ونظرة سريعة إلى الذين خدموا الإسلام من أهل تركستان تشعرنا فى هذه الأيام بغُصة .

فمنهم أمير المؤمنين فى السُنَّة النبوية أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى صاحب الصحيح المشهور ، وكذلك الترمذي والنسائى .

ومنهم شيخ المفسرين العلاَّمة جار اللّه الزمخشرى ، وكذلك أبو البركات عبد اللّه بن أحمد النَسفى .

ومنهم أئمة التأليف فى البلاغة واعجاز القرآن الشيخ عبد القاهر الجرجانى وسعد الدين التفتازانى ويوسف السكاكى .

ومنهم قادة الفكر الفلسفى فى الإسلام الحكيم أبو نصر الفارابى والشيخ الرئيس على بن سينا .

ومنهم علماء الرياضة والفَلك خالد بن عبد الملك مدير مرصد المأمون، والجغرافى الأصيل أبو زيد البلخى وبنو موسى بن شاكر « محمد وأحمد والحسن » علماء الجبر والهندسة والحساب .

ومنهم أبو ريحان البيرونى المؤلف الكبير فى المِلَل والنحل ، وأبو منصور الماتريدى الإمام المعروف فى علم العقائد ، وأبو بكر الخوارزمى الأديب المترسل، وشمس الدين السرخسى صاحب المبسوط أعظم كتب الفقه فى مذهب الأحناف ، والجوهرى صاحب الصحاح فى علم اللُغة ... إلخ .

والعجيب أننا فى الأزهر الشريف نعتمد فى ثقافتنا الإسلامية على الكثير من هذه الكتب .

أفليس ما يدعو إلى الحسرة أن نجهل البلد الذى أنجب أصحابها ، وأن نتركه فى صمت فريسة للشيوعية الغازية بعد ما أثخنته الصليبية العادية ؟ ؟

فإذا تجاوزنا الفضل العلمى لهؤلاء الأئمة طالعنا فضل عسكرى آخر ينبغى التنويه به فى هذه الأيام .

فإن سقوط فلسطين وبيت المقدس فى أيدى الصليبين الأقدمين إبّان حملتهم الأولى ، جاء نتيجة محتومة للنزاع المستمر بين الحكام العرب ، ونكوص هؤلاء الحكام أمام تبعات الدفاع الشريف ..

وقد نقلنا فى كتابنا « مع الله » الوثائق التاريخية لهذه الحقيقة .

ولو تُرِكَ أمر المنطقة للساسة العرب وحدهم ، ما خرج الصليبيون منها .

فإن تحاقد هؤلاء ، ودورانهم حول مصالحهم الخاصة ، داء عياء .. !!

ولكن الله قيّض بطلاً كردياً هو صلاح الدين الأيوبى التف حوله المخلصون من العرب وجماهير كبيرة من التركستانيين الشجعان فكان كفاح هؤلاء السبب الأكبر لطرد الصليبيين من الشرق الأوسط .

ولا تزال القاهرة تحمل أسماء تركستانية هى بقايا هذا الماضى المجيد ..

فحديقة الأزبكية فى قلب القاهرة وعشرات المساجد الشامخة فى أحيائها ما زالت مرتبطة بأسماء بُناتها الأولين من هذا الجنس المخلص لله ورسوله ..

والمسلمون فى شمال آسيا وغربها ، فى أجزاء كبيرة من شرق أوروبا ، أغلبهم من التتار والأتراك والبشكير والتركمان والأكراد والقازاخ والأوزبكيين .

ويلاحظ أن هذه البقاع هى التى تؤلف الآن جمهوريات الاتحاد السوفييتى مع الروس والسُلاف وغيرهم ..

* * *

وتاريخ الإسلام داخل الإمبراطورية الروسية محمر الجنبات ، كئيب الصفحات .
وهو يمثل أسوأ ألوان الصراع التقليدى بين المسيحية والاسلام .

لقد كانت هذه الشعوب الإسلامية وثنية الأصل ، وقد عانى الإسلام منها أشد الويلات .

ومعلوم أن المغول فى جاهليتهم دمَّروا الخلافة الإسلامية ، وأحالوا المدائن العظام تراباً ، وقد فعلوا قريباً من ذلك بشرق أوروبا .

ثم خالطوا المسلمين والنصارى ، وتعرَّفوا على ما لديهم من إيمان وشريعة ، وشاء الله أن يختاروا الإسلام ويُشيعوه بينهم ..

وهنا تضاعف حقد الأوروبيين عليهم ، وبيَّتوا لهم أسوأ النيَّات !!

وددتُ مع كثير من العقلاء لو انتهى العراك الدامى الناشب من قديم بين النصرانية والإسلام .

وهو عراك يمكن أن تنطفئ ناره لو تخلَّصت الصليبية من رغبتها المجنونة فى محو الإسلام ووقف انتشاره .

إن فى الأرض متسعاً للفريقين ، ومن الميسور فى ظل معايشة سلمية شريفة أن يبقى الإسلام وتبقى المسيحية .

ولكن قتل الآخرين بحجة الدفاع عن النفس نزعة لا يبقى معها سلام .

وقد كانت روسيا - كما رأينا - دويلة لا تعدو مساحتها أربعمائة ألف كيلو متر . وعندما كان المسلمون أقوياء استفادت من ارتقائهم العمرانى ..

بيد أن عقدة الصليبية ضد الإسلام هاج غليلها منذ اعتنق التتار الإسلام وارتضوا الحياة في ظلاله ، وهنا أخذ الروس يتحرشون بالمسلمين ، ويتربصون بهم الدوائر ..

وحانت فرصة الهجوم الروسى بعد وفاة السلطان « بركة خان » وانقسام مملكته الواسعة إلى ثلاث دويلات : « القرم » و « قازان » و « استراخان » .

فإن هذه الفرقة كانت بداية الانهيار السياسى والعسكرى للمسلمين ، إذ استطاع القيصر « إيفان الرابع » أن يقود حملة صليبية ناجحة ظلت تشق طريقها حتى اجتازت الأورال وتغلغلت فى الأراضى الإسلامية الرحبة وراء جبالها .

ولم تمض فترة كبيرة حتى أصبحت مساحة روسيا لا أربعمائة ألف كيلو متر بل أربعة عشر مليون كيلو متر على حساب الأقطار الإسلامية فى آسيا وأوروبا .. !!

لقد نجحت هذه الحملة الصليبية أيما نجاح !!

قد يُقال : فأين المدافعون ؟ وماذا قدّموا لدينهم ؟

والواقع أن المسلمين فى هذه البلاد المعزولة لم يبخلوا بالدم والمال ذوداً عن أرضهم وعقائدهم ، وقد قرأتَ تصريح « كارل ماركس » وهو يشيد بالمقاومة الهائلة الباسلة التى أظهرها المسلمون فى حروبهم الطويلة للقياصرة وجيوشهم .

ويقول الجنرال « تشرنايف » فاتح « طشقند » سنة ١٨٦٥ : « إن المدينة كانت مستعدة بأكياس الرمال فى جميع الشوارع ، وكانت المقاومة عنيفة جداً وقد مات كثير من الناس وهم يهاجموننا جماعات أو فرادى ، ولم يستسلم أحد قط فقد فضّل الكل الموت على أسنة الرماح ، وعانى جنودنا الكثير وهم يجتازون الشوارع فى وجه قتال مر ، ولم نضع أيدينا على مجتمع أو ناد الا بعد أن سبحت جنودنا فى مجار من الدماء » .

هكذا سقطت « طشقند » المدينة الإسلامية البائسة ، وهى نموذج لمئات المدن والقرى الإسلامية التى استقتلت فى سبيل دينها ومستقبلها ..

وبدل أن نسأل : ماذا فعل هؤلاء للدفاع عن أنفسهم ؟ نسأل العرب : لِمَ لَمْ يردوا الجميل القديم ؟

فإن هؤلاء المسلمين القادمين من تركستان وما فوقها هم الذين أعانوهم على تطهير بيت المقدس وإحباط الحملات الصليبية ضد مصر والشام والحجاز !!

وعلى كل حال فإن الهزائم التى نزلت بالمسلمين لم تفقدهم الأمل فى غد أفضل ، فظلوا فى القرم والأورال وتركستان والقوقاز وغيرها متشبثين بعقائدهم متحاكمين إلى شرائعهم ..

وكان القياصرة لا يفتأون يغتصبون أموالهم ، ويصادرون حرياتهم وحقوقهم ، ويحاولون جهد الطاقة فتنتهم عن دينهم ..

وبقيت هذه الحال الكئيبة تنشر غيوَمها على أراض إسلامية ذاهبة فى الطول والعرض .

المسلمون صامدون ، والحكومة مُصِّرة ، والبغضاء تنفث سمومها حتى اندلعت الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧ .

وهنا هب المسلمون فى أقاليمهم الرحبة ينشدون الحياة والأمان والحرية .

لقد وهت قبضة موسكو عن أعناقهم ، وحانت فرصة ثمينة للنجاة بالعقيدة والنفس والدنيا والآخرة ... !

وكان البلاشفة يعلمون مدى ما أجرم القياصرة السابقون فى جنب المسلمين ، بل كانوا - وهذا هو المهم - يريدون توفير ضمانات النجاح لثورتهم ، واستثارة المضطهَدين كى يُخمدوا أنفاس القيصرية معهم .

قال الأستاذ محمد سامى عاشور :

« لم تكن مهمة البلاشفة فى أول الأمر بالمهمة السهلة الميسرة .

فمن جهة كان جزء كبير من الشعب الروسى لا يزال متردداً فى معاونتهم . بل كان بعضهم يناوئ حكمهم ، ويجهر بعدائه لهذا الانقلاب الجديد .

ومن جهة ثانية فشلت دعوتهم فى استهواء أفراد الطبقات العاملة فى غرب أوروبا ... ولا سيما فى إيطاليا وفرنسا ، فلم يسيروا فى ركابهم كما كان البلاشفة يُؤمِّلون .

ومن جهة ثالثة فإن قوات روسيا البيضاء المناهضة لهم كانت قد أخذت

تستجمع قواها بمعاونة بعض الدول الأجنبية استعداداً للقضاء على الثورة البلشفية بقوة السلاح .

ولذلك فلم يبق أمام البلاشفة بعد ذلك إلا أن يُولّوا وجوههم نحو مستعمراتهم السابقة فى الشرق يلتمسون من أهلها العون فى محنتهم ، فلم يكد يمضى شهر واحد على استيلائهم على مقاليد الأمور فى روسيا وعلى وجه التحديد فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ حتى أصدر مجلس قوميسيرى الشعب البلشفى نداء له مغزاه موّجهاً الى شعوب روسيا من المسلمين .

وكان من بين من وقّعوه لينين ، وستالين ، وقد جاء فيه :

« إن إمبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار ، والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل ناراً .

وفى وجه هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمى روسيا والشرق ، أنتم يا من تشقون وتكدحون ، وعلى الرغم من ذلك تُحرمون من كل حق أنتم له أهل .

أيها المسلمون فى روسيا ! أيها التتر على شواطئ الڤولجا وفى القرم ! أيها الكرغيز والسارتيون فى سيبيريا والتركستان ! أيها التتر والأتراك فى القوقاز ! أيها التشيشيين ! أيها الجبليون فى أنحاء القوقاز ! أنتم يا من انتُهكت حرمات مساجدكم وقبوركم واعتُدى على عقائدكم وعاداتكم . وداس القياصرة والطغاة الروس على مقدساتكم !

ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد .

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل !

إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين .

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة وبكل ما يتوفر لها من وسائل ، جند أشداء ، ومجالس للعمال ، ومندوبين عن الفلاحين .

وإذن فشدُّوا أزر هذه الثورة . وخذوا بساعد حكومتها الشرعية !

أيها المسلمون فى الشرق ! أيها الفُرس والأتراك والعرب والهندوس ... أنتم جميعاً يا من وطئ الأوروبيون القراصنة أرضكم ، وتاجروا بأرواحكم وأملاككم وحرياتكم قرناً بعد قرن ... أنتم جميعاً يا من يحاول اللصوص الذين أشعلوا نار الحرب أن يقتسموا بلادكم بينهم !

... اخلعوا عن أعناقكم نير هؤلاء اللصوص !

أولئك الذين يستعبدون أهلكم ويستبيحون دماءكم وأرواحكم ، فإن من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لا تحركون ساكناً فى وقت تهز فيه الحرب عرش النظام القديم ، وتشتعل فيه نفوس العالم كله حنقاً على الغاصبين المستعمرين ، وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتى على كل شئ .

حذار أن تُضيِّعوا وقتكم دون أن تُلقوا عن كاهلكم نير المستبدين والظالمين الذين استبدُّوا بكم وبأوطانكم !

إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم !

وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة ، وفق ما تحبون وتختارون .

فإن من حقكم أن تفعلوا . . وإنكم لفاعلون وها هو مستقبلكم فى أيديكم .

أيها الرفاق ! أيها الإخوة !

لنتقدم سوياً فى عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطى !

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة فى أرجاء العالم !

أيها المسلمون فى روسيا !

أيها المسلمون فى الشرق !

إننا ونحن نسير فى الطريق الذى يؤدى بالعالم الى بعث جديد نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون ... » !!

* * *

ولا يجوز أن يمر هذا النداء دون تدبر ودرس ...

فإن حكام روسيا الجدد اعترفوا بما اقترفه الحكم الدينى السابق من دنايا وآثام فى جنب المسلمين ، وبشّروا بانتهاء عهد الآلام والمصائب ..

ولما كانت الأمة الإسلامية المهيضة قد فقدت الرعاية السياسية العامة ، وتعرضت فى أماكن كثيرة لأشد ضروب الفتك المادى والأدبى فمن حقنا أن نسأل :

هل وجد المسلمون ما ينشدون لأنفسهم من أمان وراحة ؟

ان هذا النداء الشيوعى ظهر سنة ١٩١٧ أى منذ خمسين سنة .

فلنتجاوز هنيهة أحوال المسلمين فى روسيا من قبل ومن بعد .

ولنرمق أحوال المسلمين تحت الحكم الصليبى فى شرق إفريقية ، وغربها ، ووسطها ، وفى أقطار أخرى كثيرة من آسيا وأوروبا ، فماذا نحن واجدون ؟

التعصب القاتل يفرض سلطانه على كل شئ .. !!

ووراء مؤامرة من الصمت حبك أطرافها المغفلون من ساسة المسلمين ، والمكّارون من ساسة الصليبية ، بادت مجتمعات إسلامية ، وهلك مجاهدون وانطوى تاريخ !!

وما زلتُ أناشد الجامعات الإسلامية الكبرى أن تُعيد كتابة التاريخ الإسلامى الحديث . لا .. بل تبدأ كتابته فهو لم يدوّن بعد !!

وعليها أن تكشف الحقائق المستخفية ، وتضع تحت أنظار المسلمين المعاصرين مقدار ما عانى آباؤهم من هوان وإذلال فى سبيل العيش بدينهم والذود عنه !!

إن الجامعات الإسلامية فى القاهرة والنجف والمدينة وغيرها لا تزال مشغولة بمسائل تاريخية تافهة جرت أحداثها فى القرون الأولى .. ومذهولة عن قضايا الموت والحياة التى تواجهها اليوم !!

وليس ذلك فى مجال العمل السياسى فقط . بل فى حقيقة الدعوة الإسلامية ذاتها ، وهذا هو البلاء المبين .. !!

ونعود إلى الشعوب الإسلامية المنكودة تحت الحكم الروسى القديم ، ماذا صنعت بعد أن سمعت النداء الموّجه اليها من الساسة الحمر ؟؟

إنها بداهة لم تضيع الفرصة السانحة .

فسرعان ما أعلنت استقلالها ، واستعادت سياستها على أرضها ، وشرعت ترسم الخطط لتصوغ مجتمعها وفق إرادتها ومصلحتها ..

واتقد مشعل الحرية من سيبيريا إلى القرم .

تكوّنت جمهوريات إسلامية عديدة فى هذه الأقطار المترامية .

واعترفت الدول المجاورة بهذه الحكومات الفتية ، وعقدت معها المعاهدات .

لكن روسيا فى ندائها السابق طلبت من مسلمى الشرق - خصوصاً مسلمى المستعمرات الروسية - العون والنصرة ، فماذا تفعل هذه الجمهوريات الإسلامية المتحررة ؟

إن المسلمين حيث كانوا يمكن أن يساعدوا الشيوعيين فى ظروف إنسانية محدّدة .

فإذا حاول الجنس الأبيض فرض سيطرته على الأجناس الأخرى ، وقرّر إهانتها وإضاعتها ، فإن المسلمين يقاتلون هذا البغى ، ويعاونون الشيوعيين على ردعه ..

وإذا حاول الاستعمار نهب الأقطار المتخلفة ، وسرقة ثرواتها ، واستغلال أهليها ، فإن المسلمين يقاتلون هذه اللصوصية ، ويعاونون أى مخلوق على استئصال شأفتها ..

وإذا جاشت الأحقاد التاريخية ، وراودت أحلام الاستعلاء والبطر بعض المتآمرين فتآمروا على اجتياح قطر من الأقطار ، وإبادة جنس من الأجناس ، كما يحدث الآن فى فلسطين وأرتيريا وغيرهما من البلاد الإسلامية ، فإن المسلمين يضمون جهودهم إلى جهود الشيوعيين ليمنعوا هذه الآثام فى المجتمع العالمى ...

ولا يُقال عندئذ إن الشيوعيين كفار والصهيونيين والصليبيين أهل كتاب .

فإن التحالف الصهيونى الصليبى عندما ارتكب جريمته ، ومضى لغايته ، كان لا يعرف رباً ، ولا كتاباً ، ولا حلالاً ، ولا حراماً .

كان لا يعرف إلا الأثرة والضغينة .

ومن حق المسلمين أن يوقفوا هذا الطغيان بشتّى الوسائل ..

واستعانتهم بقوى الشيوعيين فى هذا الميدان سياسة لا غبار عليها ..

* * *

تلك أمثلة فى نظرنا لما يمكن أن يكون من تعاون بين الحكومات الإسلامية والشيوعيين .

غير أن روسيا فيما ظهر طلبت غير هذا !!

طلبت أن تكون الشيوعية صبغة الحكومات الإسلامية المتحررة قريباً منها !!

فهل كانت الدول الإسلامية فى القرم والأورال والقوقاز والتركستان ... إلخ ، مستعدة لهذا التحوُّل ؟ كلا ..

لقد قامت استجابة لآمال المسلمين المقهورين ، وتجسيداً لمشاعرهم ..

والنظام الشيوعى فى سبيل توطيد أركانه قتل حرية التدين وحرية التملك .

ووظيفة الحكومة الشيوعية وهى تباشر سلطتها أن تُقصى التدين عن الحياة العامة ، وأن تغرس مكانه الكفر بالله وشرائعه .

لقد وعينا ما جاء فى برنامج المؤتمر الشيوعى الدولى السادس المنعقد سنة ١٩٢٨ « ... إن الحرب ضد الدين - أفيون الشعوب - تشغل مكاناً مهماً بين أعمال الثورة الثقافية » .

ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظّمة ، وحكومة العمال والفلاحين تعترف بحرية الضمير[(١)] ولكنها فى الوقت نفسه تستعمل كل الوسائل التى تملكها للقيام بالدعاية ضد الدين وتنظم التربية على أساس التصور المادى للدنيا .

هذه وظيفة الحكومة الشيوعية ، ومن السخف القول بأن للإسلام مكاناً فى هذا الجو الوبئ .

نعم .. هناك نوع من الحكم يسمح بحرية المتناقضات ، يسمح للإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، والعفة والزنا ، والسكر والصحو ، والتعليم الدينى والتعليم المدنى ، والمحاكم الشرعية والمحاكم المدنية ... إلخ .

والديمقراطية الغربية تمنح شعوبها هذه السعة ..

وكثير من الذين تعلّموا فى الغرب يودون لو كانت الحكومات العربية من هذا الطراز المرن ..

وهم يرون أن هذا اللّون من الحكم أفضل من الحكم الشيوعى . وأخف ثقلاً وأرحب فكراً .. !!

---

(١) هذا الاعتراف لون من النفاق السياسى ، والواقع ينفيه .

فليرَ هؤلاء ما يرون ، لكننا نريد أن نقول لهم إن الحكم الإسلامى شئ غير هذا وذاك .

إنه حكم يسير فى عكس الاتجاه الشيوعى تماماً ..

فهو يرى الحاكم رجلاً يؤمن بالله ، ويغرس الإيمان فى المجتمع .

يُصلّى لنفسه ، ويؤم الناس فى الصلاة .

ويُخرج الزكاة ، ويُشرف على جمعها من الآخرين .

يصوم رمضان ، ويرقب حرمة الشهر فى أرجاء المجتمع ... إلخ .

ثم إن الاسلام عقيدة فى القلب ، وقانون فى الحكم ، وقواعد فى الأخلاق ، ونظام فى المجتمع ، ورباط عام بين أتباعه .

وتقاليد تُنظّم البيت والشارع ، وتستغرق العمر من المهد إلى اللّحد ..

وقد فصّل الكتاب الكريم والرسول الذى جاء به كيف يحيا المرء لنفسه ولأمته ولربه ..

وظاهر من هذا الاستغراق والشمول أن الإسلام شئ ، والميوعة الغربية شئ آخر . وأنه – من باب أولى – لا يمكن أن يلتقى مع الشيوعية فى تنظيم سياسى واجتماعى ..

من هنا لا نعجب إذا رأينا المستعمرات الإسلامية الروسية بعد تحررها تنحاز بعيداً ، وتحاول بناء كيانها وفق طبيعتها الدينية العتيدة .

على أن اليد التى أسداها الشيوعيون أول أمرهم لضحايا القيصرية البائدة كان لها أثر حسن فى نفوس الكثيرين .

ثم إن مبادئ العدالة الاجتماعية التى قدّموها بين يدى ثورتهم كان لها بريق وإغراء ، وقد هَشّ بعض الشباب للشيوعية ، يحسبها لا تعنى إلا هذا التحرر الاقتصادى .

ولعله قارَنَ بينها وبين ما فى الإسلام من ضمانات للعاملين ، وبر بالمعوزين ، فظن التقارب ممكناً ..

ولكن لم تمض فترة طويلة حتى تكشَّفت الحقيقة كلها ، وبرز الخطر على الكيان الإسلامى برُمته ، فاستمسك الناس بدينهم وآثروه على أى نزعة أخرى .

وحاول نفر من المهيِّجين أن يُثيروا الفلاحين والعمال على أصحاب الأرض والمصانع ، بَيْد أن هذه الطريقة فشلت هى الأخرى ، لأن أصحاب الأموال كانوا أرعى لله ، وأحنى على عباده من أن يظلموا عاملاً ، أو يحرموا بائساً ، فلا وجود للحقد الطبقى الذى تنفخ الشيوعية فى ناره .

ما العمل إذن ؟

لا بد أن يتدخل الجيش الأحمر ..

لا بد أن تُفرض الشيوعية بالسلاح على من يكرهونها أشد الكره !!

وقام الجيش الأحمر بمهمته على شر وجه ، وقضى قرابة ثلاث سنين سوداء وهو يحصد هذه الجمهوريات الإسلامية من شاطئ المحيط الهادى إلى جبال الأورال ..

وماذا عسى تملك هذه الجمهوريات الوليدة ؟

إنها ما كادت تسترد أنفاسها بعد ما عانت تحت ضغط القيصرية المتعصبة ، حتى بوغتت بهذا العدوان الجديد .

فقاومت جهد الطاقة ثم تساقطت دولة بعد أخرى .

ولم تُغن التضحيات على جسامتها فى دفع هذا البلاء .

قال السيد نور محمد خان : « كانت الجيوش الروسية مدرَّبة تدريباً حسناً ومزوَّدة بأحدث الأسلحة من طائرات ودبابات وسيارات مصفحة ومدافع بعيدة المدى ، بينما كانت الحكومات الإسلامية التى تمتد من سيبيريا شرقاً إلى جبال الأورال غرباً لا تملك منها شيئاً ، جيوش غير مدرَّبة وأسلحة قديمة .. »

ما يُجدى الإيمان والحال هذه ؟

وفى إبريل سنة ١٩١٨ أصدر « لينين » أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق ، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصداً وتدك الحصون والقلاع ، والطائرات تمطر البلاد سيلاً من قنابلها دون تمييز بين عسكريين ومدنيين .

وفى نهاية هذا العام كان الروس قد استولوا على جمهورية « إيديل أورال » وشمال القوقاز ، وحكومة « خوقند » فى تركستان ، وتأخر الاستيلاء على شبه جزيرة القرم لعنف المقاومة فيها .

وفى سنة ١٩١٩ استولت روسيا على جمهورية « ألاش » .

وفى إبريل سنة ١٩٢٠ انتهت من احتلال القرم ، ثم استأنفت الهجوم على جمهورية « أذربيجان » واستطاعت إخضاعها .

ثم حاصرت جمهورية « خيوه » من ثلاث جهات فدافع عنها أهلها التركمان دفاع المستميت ولكنها سقطت فى نهاية عام ١٩٢٠ .

وفى سنة ١٩٢١ استأنف الروس الهجوم على جمهورية « بُخارى » ودار بينهم وبين أهلها قتال مرير .

ودافع أحفاد البُخارى عن وطنهم بكل ما لديهم من بأس ، فلما انهزمت جيوشهم المنظّمة شنُّوا حرب العصابات نحو عشر سنين ، ولكنهم فشلوا فى إدراك النصر لعدم وجود أية مساعدة خارجية من العالم الإسلامى !!

هذا هو الوصف السريع للقتال الذى نشب بين المسلمين والجيش الشيوعى المكلّف بإخضاعهم والسيطرة على بلادهم ..

وهو وصف لا نقف طويلاً عنده لأن المحزن المبكى هو ما وقع بعده .

فإن الروس الحمر شرعوا يوجهون جهودهم لنقل البلاد بما عليها ومن عليها إلى المذهب الجديد ، وهنا بدأت الكوارث الشداد .

فالمسلمون حرّاص على دينهم متمسكون بتعاليمه فى ظاهر أمرهم وباطنه ..

ولقد صابروا اللّيالى فى ظل الصليبية المُدبِرة وها هم أولاء يلقون عدواً أكفر بالله ، وأجحد لشرائعه فهل يستسلمون ؟ كلا ..

وعاد الصراع الجائر مرة أُخرى .

والثورات حين تريد فرض نفسها وإثبات وجودها على واقع مخالف لا ينبض قلبها برحمة إزاء معارضيها .

فكيف إذا كانت هذه الثورات لا تعرف رباً ، ولا ترجو آخرة ، ولا تخشى حساباً ؟ ! .

إن الشيوعيين يعبدون هذه الدنيا ، ويرونها وجودهم الأوحد ..

وهم يرون أعداءهم وكأنهم عوائق دون ثروات يجب أن يستمتعوا بها ، وخيرات يجب أن يضعوا أيديهم عليها ..

ومن ثَمَّ ترى الواحد منهم يقاتل وكأنه يسترد حقاً شخصياً سُلِبَ منه ، فمن وراء قتاله نهمة للحياة لا تشبع ، وثأر عند الآخرين لا يهدأ ..

فإذا كان الإسلام ينتصب سداً منيعاً أمام هذه المآرب ، وإذا كان المسلمون يشكلون باسم دينهم مجتمعاً أبعد ما يكون عن هذه الأفكار فهيهات أن يلقوا من الشيوعيين مهادنة أو رحمة .

وذلك ما وقع فى أسلوب تقشعر منه الجلود .

* * *

كان التعذيب قديماً يشبه أسلحة الحرب التقليدية من بنادق ومدافع ، أما التعذيب الذى اخترعه الشيوعيون أو افتنوا فى تطبيقه فهو يشبه القنابل الذرِّية يمتد دمارها إلى نطاق بعيد ..

لقد قرر الروس الحمر أن يُغيِّروا البلاد الإسلامية ويُحوِّلوا تاريخها كله من مجرى إلى مجرى آخر .

فكانت الأوامر تصدر بهجرات جماعية واسعة المدى يتحوّل بها الناس من وطنهم الأول إلى بلاد لا يعرفونها ..

وتصوّر معى أمراً عسكرياً يصدر مثلاً إلى المصريين كى يتركوا بقضهم وقضيضهم بلادهم الحبيبة ويسكنوا « كينيا » أو « أنجولا » وأمراً آخر إلى سكان آخرين أن يحلوا محل المصريين فى الإقامة بربوع النيـل .

هكذا شرعت الحكومة الشيوعية فى تغيير معالم البلاد الإسلامية ، وقطع الصلات بين حاضرها وماضيها ..

فاستقدمت الألوف المؤلفة من الروس والسلاف والأوكران ، وشحنت بهم أذربيجان وتركستان والقرم .

ونقلت جماهير المسلمين إلى برارى سيبيريا وأواسط آسيا .

وعند تنفيذ هذا المخطط الرهيب قاوم الفلاحون دون أرضهم ، وقاوم الكثيرون دون بيوتهم وحياتهم فكان الفناء الذريع جزاءهم .

ولا تسل عن تعداد الهالكين عند تنفيذ هذا البرنامج الفظيع !!

لقد كان هم الشيوعية الأكبر أن تفرض نظامها .

ولما كان المجتمع الذى يلتصق بالعقيدة الإسلامية يأبى كل أو أغلب ما تريده الشيوعية فكان لا بد من فنائه لتبقى !!

ثم إن الأرض الإسلامية التى يعيش عليها جمهور المسلمين مليئة بخيرات زراعية ومعدنية ضخمة .

والشيوعية فى استعدادها لحرب عالمية حاسمة بحاجة إلى هذه الخيرات كى تُعزِّز قدرتها العسكرية ..

إن كل ما تستخرجه روسيا من بترول يُسرق من جمهورية « أذربيجان » الإسلامية ، وانظر إلى ما فى تركستان فقط من ثروات معدنية . تعرف أن الروس يغترفون من كنوز لا تنفد !!

ففى هذه الجمهورية الإسلامية ٢٥ منجماً للذهب ، ١٦ للفضة ، ٤٦ للحديد ، ٣٢ للرصاص ، ٢٤ للبترول . ٧ للفحم ، ١٣ للكبريت ، ٦٣ للصوديوم . هذا عدا عن الأورانيوم والفرام والزئبق والنحاس والقصدير والبلاتين . وتوجد من المعادن الأخيرة مقادير كبيرة ..

وقد قسّمت روسيا تركستان إلى عدة جمهوريات منفصلة إمعاناً فى محو تاريخها ووحدتها ..

ولا نشك أن روسيا إذا فقدت الأراضى الإسلامية فإنها تتحوّل إلى دولة من الدرجة التاسعة أو العاشرة .

ونريد أن نُرى القارئ صورة من صور التحويل الاشتراكى للجمهوريات الإسلامية - أو بتعبير دقيق للمستعمرات الإسلامية - التى استولى عليها الروس.

وذلك بنقل الأحداث الكالحة التى وقعت فى شبه جزيرة القرم بعد ما هزمها الجيش الأحمر :

تقع شبه جزيرة القرم على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود ، وكان سكانها المسلمون يبلغون خمسة ملايين ، وقد استطاعوا الظفر باستقلالهم أول ما استولى الحمر على السلطة فى موسكو ، وسرعان ما انعقد مؤتمر وطنى من أعضاء انتخبهم الشعب المسلم انتخاباً حراً - وفق ما يحدث فى الغرب - وتمكن هذا المؤتمر من وضع دستور يحكم البلاد وفق نصوصه .

ولم تترك روسيا الشيوعية أهل القرم يستمتعون بحريتهم الدينية والسياسية فوجهت جيشها للقضاء عليهم ، ويقال إنها كانت ترمى إلى جعل القرم وطناً قومياً لليهود بدل فلسطين .

وليس فى ذلك من عجب .. فإن أول لجنة للشيوعية فى موسكو كانت كثرتها من اليهود (ستة أعضاء من عشرة) .

وعلى أية حال فإن مسلمي القرم قاوموا العدوان الروسي ببسالة فائقة .

اعتصم الجيش بالجبال ودافع دفاع الأبطال ، وأعانه الأهلون بما يملكون من زاد وقوة .

فلما رأى الروس أن حبل المقاومة طويل ، لجأوا إلى حرب التجويع فنقلوا ما في الجزيرة المكافحة من أقوات وتركوا سكانها للضياع !!

وهنا تعرَّضت البلاد لمحنة لم تخطر ببال . فإن العسكريين والمدنيين والأطفال والرجال أشرفوا على الهلاك طلباً للأقوات المفقودة .

وقيل إن بعض الأشخاص أكلوا أولادهم ..

وقد نشرت جريدة « إزفستيا » في عددها الصادر ١٥ يوليه سنة ١٩٢٢ تقريراً للرفيق « كالينين » عن مجاعة القرم جاء فيه : « بلغ عدد الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر يناير . . .ر٣٠٢ مات منهم ١٤ر٤١٣ وارتفع عددهم في شهر مارس إلى . . .ر٣٧٩ مات منهم ١٩ر٩٠٢ وبلغ في إبريل . . .ر٣٧٧ مات منهم ١٢ر٧٥٤ وفي شهر يونيه بلغ ٣٩٢ر٠٧٢ . ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال: إن أكل لحم الإنسان لم يكن من الحوادث التي يُستغرب لها ، أو تبدو عجيبة في بابها ..

والروس في نظرنا مسئولون عن هذه المأساة ، وسياستهم بعدما سادوا الجزيرة المثخنة بالجراح ، المتهالكة من الإعياء تدل على ذلك .

فقد جرَّدوا المسلمين من أملاكهم وما لديهم من ثروات .. وشرعوا يهدمون المساجد والمعاهد الدينية فلم يبق من ١٥٥٨ مسجداً بالقرم إلا آحاداً تافهة .

أما جمهرتها الكبرى فقد أُزيلت أو تحوَّلت إلى أندية وقهوات ودور لهو واصطبلات للخيل وحظائر للماشية .

ثم بدأت عملية محو المعالم الإسلامية عن طريق اجتثاث الجذور ، أو نقل السكان أنفسهم على ما ذكرنا آنفاً فماذا كانت النتيجة ؟

كان سكان القرم خمسة ملايين مسلم سنة ١٩١٧ فأمسوا سنة ١٩٤٠ : ...ر. ٤ فقط أى أقل من عُشر السكان !!

أين ذهب أولئك المسلمون الذين توارثوا أباً عن جد عمارة هذه الأرض ، وتكوّنت لهم فيها صبغة خاصة وحضارة معينة ؟

أمسوا عمالاً هائمين على وجوههم فى فيافى سيبيريا وغيرها .

ليست لهم أسر ، ولا ذكريات ، ولا أواصر تاريخية ، ولا روابط روحية ، ولا أذان ، ولا جماعات ... ولا ... ولا ...

لقد صدرت الأوامر بنقل أهل هذا القطر إلى قطر آخر .

لا . بل بتشريدهم فى أقطار أخرى ، فمن عاش عاملاً مسّخَراً عاش ، ومن هلك هلك .. !!

والقرم نموذج لشتى المستعمرات الإسلامية التى تعرّضت لمثل ذلك المصير الأشأم .

وإذا كانت المساجد رمزاً للعبادة الإسلامية فقد تجاوز ما دُمِّر منها عشرات الألوف ، أما بقية ما يُكوِّن الشخصية الإسلامية فقد تلاشى أو هو فى طريقه إلى الفناء ..

* * *

وليس هذا حال المسلمين تحت الشيوعية الروسية وحدها ، كلا ، ففى كل دولة قام فيها الحكم على هذا النحو الكفور ، تعرض الإسلام وأمته للذوبان والمحق ، وراء ستار حديدى من الصمت .

إنه تنافر حقيقى بين نزعتين ووجهتين ، وشرعتين !!

ولم يكن عجباً أن ينجو بنفسه من يستطيع النجاة من هذا الجحيم .

ومن عشرات السنين ونحن نرى مسلمين ممن استولى الشيوعيون على بلادهم يعيشون بين إخوانهم فى القاهرة ودمشق وبغداد ومكة والمدينة ..

كانت قلوبهم تبكى وألسنتهم تروى ، وعنهم سجلنا ما سجلنا من حقائق .

وفى أحد الأيام اتفق الشيخ محمد عبد اللطيف دراز [١] مع نفر من هؤلاء المهاجرين أن يبعثوا بشكاة موجزة إلى هيئة الأمم المتحدة كى تحقق فيها وتنصف ذويها .

وكُتبت الشكوى وأُرسلت إلى « مستر تريجفلى » سكرتير الأمم المتحدة .

وتلقى السياســى العالمى الشكوى ثم أرســل إلى الشــيخ دراز هذا الرد : « تلقينا شكواكم غير المؤرخة وأمرنا بتوزيع نصها على الأعضاء » .

لكن الهيئة التى أكلت عرب فلسطين مستعدة لأن تأكل مسلمى آسيا وإفريقيا جميعاً .

إن مستر تريجفلى نفسه رجل صهيونى .

والأعضاء الكبار فى هيئة الأمم المتحدة هم دهاقين الاستعمار العالمى ، والصليبية الحاقدة .

فأى خير يرتجيه المسلمون من هؤلاء ؟

* * *

وإلى القراء نص الشكوى [٢] التى أرسلها وكيل الجامع الأزهر السابق ورئيس جماعة الكفاح الإسلامى :

« نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة ، باسم الشعوب الإسلامية التى ترسف فى أغلال الذُّل والعبودية تحت وطأة الحكم الشيوعى الذى امتدت سلطاته حتى شملت البلاد الواقعة بين جزيرة البلقان والمحيط الهادى .

---

(١) الوكيل الأسبق للجامع الأزهر والوكيل السابق لجماعة الشبان المسلمين .

(٢) كتبت هذه الشكوى بلغة رديئة ، ولم تسرد الوقائع بترتيب دقيق ، ويبدو أن الحقائق أخذت سرداً عاماً من أفواه اللاجئين .

ويقيم على هذه الرقعة أكثر من مائة مليون من المسلمين فى أحوال وظروف تفوق فى فظاعتها وقسوتها أظلم عصور التاريخ الغابرة .

حتى إن الأجيال المقبلة ستستحى وتخجل من مدنيتنا الحديثة المعاصرة ، ومن نظمنا السياسية والخُلقية والفلسفية جميعاً ، عندما تُذكر هذه الظروف القاسية التى يعيش فيها مائة مليون من بنى الإنسان ، دون أن تتحرك الهيئات العالمية لنجدتهم .

تلك الهيئات التى أسست لحماية الكرامة الإنسانية ، ولضمان أبسط الحريات التى تؤمن وتؤمنون معنا بوجوب توفرها للناس أجمعين ، من غير نظر إلى دينهم أو جنسهم أو لونهم أو لغتهم ..

فإن هناك قاسماً مشتركاً بين بنى البشر جميعاً ، وهو الإنسانية ...

إننا نجأر بالشكوى لدى هيئتكم الموقرة ضد نظام الحكم المفروض بقوة السلاح على هؤلاء الناس ..

وهو نوع من الحكم يسعى إلى هدم كل ما بنته يد الإنسان منذ آلاف السنين ، ويحاول أن يدوس بأقدامه كل ما قدسته الإنسانية منذ القدم ، ليخلق عالماً جديداً خالياً من الاعتقاد بالله ! لا عبادة فيه إلا للقوة الغاشمة والمادة الفانية ..!!

وخليق بنا فى هذا المقام أن نذكر أن التجارب والحوادث الواقعة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن لا فرق بتاتاً بين الشيوعية القومية والشيوعية العالمية .

وأن الدول التى تُفرِّق بين هذين النوعين من الحكم ، إنما تُزعزع إيمان الأحرار فى كل مكان ، وتخلق بلبلة عامة فى الأفكار .

لأنها بإظهار سخطها على الشيوعية العالمية ومساعدتها غير المشروعة للشيوعية القومية تُظهر للعالم بأسره أنها لا تناوىء الشيوعية كمبدأ هدَّام ، وإنما تعارضها كحكم سياسى ينافسها فى السيادة العالمية ..

إن أكثر من مائة مليون من المسلمين مهدَّد كيانهم فى بلاد كانت يوماً ما مركزاً للحضارة الإسلامية بل الحضارة العالمية جمعاء .

وسنوجز هنا الطرق التى دأبت الشيوعية على سلوكها فى سبيل اضطهاد المسلمين ، ومحو معالم دينهم ومدنيتهم ، مدعمين كل طريقة منها بالأمثلة الحية من الوقائع والحوادث الثابتة .

١ - الإبادة الجماعية أو نفى جزء من الشعب أو الشعب كله من وطن آبائه وأجداده إلى سيبيريا أو إلى مناطق أخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الأصلى ويضيعون بمرور الزمن ..

ونستدل على ذلك بالوقائع الآتية :

(أ) قتل الشيوعيون فى التركستان وحدها سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

وفيما بين سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم ، وعدداً من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ، ثم أعدمت فريقاً ، وأرسلت فريقاً آخر إلى مجاهل سيبيريا .

وقتلوا سنة ١٩٥٠ : سبعة آلاف مسلم ، ونفوا من التركستان سنة ١٩٣٤ ثلاثمائة ألف مسلم .

وقد هرب من التركستان منذ سنة ١٩١٩ حتى اليوم مليونان ونصف مليوناً من المسلمين .

وفى سنة ١٩٤٩ هرب ألفان من التركستان الشرقية ولاقى حتفه من هذا الفريق الهارب ١٢٠٠ وهم فى الطريق إلى الهند .

وفى سنة ١٩٥٠ هرب من التركستان ٢٠٠٠٠ من المسلمين التجأوا إلى البلاد الإسلامية فى الشرق الأدنى .

ومن سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعاً نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها إلى الصينيين الذين أدخلوهم إلى تركستان.

ونتيجة لقانون مزج الشعوب فى الاتحاد السوفييتى ، نفت روسيا

. . . ر . . ٤ مسلم تركستانى إلى أوكرانيا وأواسط روسيا فاندمجوا فى تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلى .

وفى سنة ١٩٥١ ألقى القبض على ٥٦٥ ر١٣ مسلم فى التركستان وأودعوا المعتقلات .

(ب) أبادوا فى القرم سنة ١٩٢١ مائة ألف مسلم بالجوع وأرغموا خمسين ألف مسلم على الهجرة فى عهد بلاكون الشيوعى الهنغازى الذى نصبوه رئيساً للجمهورية القرمية الإسلامية .

وفى سنة ١٩٤٦ نفوا شعبين إسلاميين كاملين وهما شعب جمهوريتى القرم وتشيس إلى مجاهل سيبيريا وأحلوا محلهم الروس .

وقد قلد الشيوعيون فى شرق أوروبا رفاقهم فى الاتحاد السوفييتى ، فأبادوا فى يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ٢٤ ألف مسلم (١٥ ألف من مقاطعة طوزلا ، ٣ آلاف فى مدينة سراييڤو ، ٦ آلاف من ماكدونيا وكوسوڤا) أتوا بهم إلى مدينة دويروتيك ثم أبادوهم .

٢ - هدم المساجد وتحويلها إلى دور للهو واستخدامها فى غايات أخرى وإقفال المدارس الدينية . .

(أ) قد بلغ مجموع المساجد التى هُدمت أو حُوِّلت إلى غايات أخرى فى التركستان وحدها ٦٦٨٢ جامعاً ومسجداً منها أعظم المساجد الأثرية مثل : « منارة مسجد كالان » فى مدينة بُخارى ، و « كته جامع » فى مدينة قوقان ، و « جامع ابن قتيبة » و« جامع الأمير فضل بى يحيى » و« جامع خوجه أحرار » فى مدينة طشقند .

ومجموع عدد المدارس والكتاتيب التى أقفلوها فى التركستان يبلغ ٧.٥٢ مدرسة منها : « ديوان بيكى مدرسة » فى مدينة بُخارى و « بكلريك مدرسة »

و « بران حان مدرسة » فى مدينة طشقند وغيرها من المدارس التاريخية التى كانت يوماً ما مناهل للعلم والعرفان .

(ب) وفى القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيها الجوامع الأثرية فى مدينة « باعجه سراى » عاصمة القرم الجميلة مثل « جامع حان » وجامع « طوز يازار » و« جامع أصماقويو » وغيرها جميعاً .

(جـ) وهدموا فى مدينة زغرب فى يوغسلافيا جامعاً عظيماً شُيِّد رمزاً لوحدة عنصرى الشعب الكرواتى المسلمين والكاثوليك .

وأغلقوا فى مدينة سرايبفو « الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية » وجميع المدارس الدينية باستثناء واحدة فقط أبقوا عليها للدعاية .

٣ - قتل رجال الدين ، أو نفيهم ، أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة ، أو منعهم من الحقوق السياسية ، بل والحقوق الإنسانية ، وإيجاد أية عقبة أخرى تحول بينهم وبين مزاولتهم لمهنتهم .

(أ) لقد قامت روسيا بعدة حملات على رجال الدين المسلمين فى التركستان وغيرها من المناطق الإسلامية الشاسعة المندمجة فى إمبراطوريتها الحمراء وقتلت كثيراً منهم ومن ضمنهم : فضيلة الشيخ برهان البخارى قاضى القضاة ، وفضيلة الشيخ خان مروان خان مفتى بُخارى ، والشيخ الجليل عبد المطلب داملا ، والشيخ محسوم متولى ، والشيخ عبد الأحد داد خان ، والشيخ الحاج ملا يعقوب ، والشيخ ملا عبد الكريم وغيرهم كثيرون .

(ب) وكذلك عملوا فى القرم حيث أضافوا إلى وحشيتهم مع رجال الدين ، حرق المصاحف الكريمة فى الميادين العامة .

(جـ) وفى يوغوسلافيا قتلوا مفتى كرواتيا فضيلة الشيخ عصمت مفتيتش والعالم الفاضل الشيخ مصطفى يوصو لاجيتش .

وحكموا بالأشغال الشاقة مُدداً مختلفة على ١٢ عالِماً دينياً بعد محاكمة

صورية فى مدينة سراييڤو ، منهم فضيلة الشيخ قاسم دوراجا شيخ علماء البوسنه والهرسك ، وفضيلة الشيخ عبد الله دوربسيوڤتش وكلاهما من علماء الأزهر الشريف .

٤ – قتل الزعماء السياسيين أو نفيهم ، ومن أمثال ذلك أن الشيوعيين قتلوا فى التركستان الشرقية سنة ١٩٣٤ الحاج خوجه نياز رئيس الجمهورية ، ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء ، وشريف حاج قائد مقاطعة آلتاء ، وعثمان أوراز قائد مقاطعة كاشغر ، ويونس بك وزير الدولة ، والحاج أبو الحسن وزير التجارة ، وطاهر بك رئيس مجلس النواب ، وعبد الله داملا وزير الأشغال ... وغيرهم كثيرين لا يتسع هذا المقام لذكر أسمائهم .

وكلما أحس الشيوعيون ببوادر أية حركة قومية أو إسلامية بين التركستانيين قاموا بحملة التصفية وهى حملة يُراد بها القضاء على كل من تحدثه نفسه بما قد يخالف تعاليم آلهة الشيوعيين .. « ماركس » ، « لينين » ، « ستالين » .

(ب) وفى القرم قتلوا سنة ١٩٢٨ ولى إبراهيم رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه . وفى سنة ١٩٣. قتلوا محمد قوباى رئيس جمهورية القرم مع هيئة وزرائه جميعاً ، وفى سنة ١٩٣٧ استدعوا إلى موسكو إلياس طرحان رئيس جمهورية القرم أثناء محاكمة المارشال تحاتشنڤسكى وأعدموه رمياً بالرصاص مع أعضاء حكومته .

(جـ) وفى يوغوسلاڤيا حكمت محكمة « اسكوب » فى ماكدونيا سنة ١٩٤٧ على سبعة عشر زعيماً ألبانياً من الألبانيين المقيمين فى يوغوسلاڤيا ، وفى نفس السنة حكمت محكمة « بريشتينا » على ٣٧ من الأعيان الألبانيين: ثلاثة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة . وفى سنة ١٩٤٩ أى بعد انفصال يوغوسلاڤيا من دول الكومنفورم حكمت محكمة سراييڤو على ١٣ زعيماً من المنتمين إلى « جمعية الشبان المسلمين » المنحلة : أربعة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة .

٥ - منع المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية ، فقد ألغيت المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، وفى يوغوسلافيا نشرت جريدة « Novodobe » الصادرة فى سراييفو بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٤٦ قانوناً بإلغاء المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء يوغوسلافيا ، ومعنى ذلك خروج الأسرة الإسلامية من دائرة توجيه الشريعة الإسلامية إلى دائرة القوانين الشيوعية التى تنادى بالإباحية التامة وبانحلال الروابط الطبيعية بين أعضاء الأسرة الواحدة .

هذا .. إلى جانب نهب البلاد الإسلامية ونقل ثرواتها إلى مقاطعات أخرى وتمزيق أوصال كل بلد إسلامى واحد ، وخلق قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللُّغة وخلق منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان إلى ست جمهوريات على هذا الأساس الواهى .

ثم نذكر أن الشيوعيين يقومون بشتَّى أنواع الدعاية اللادينية من غير أن يسمحوا بالدعاية الدينية .

من أمثال ذلك : قيام الشبيبة الشيوعية وجماعة الملحدين الروَّاد بمظاهرات لا دينية صاخبة فى مواسم الأعياد الإسلامية ويهينون كل ما يُقدسه المسلمون .

بناء على كل ما سبق : نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة رجاء بحثها واتخاذ قرار فيها يرد لمائة مليون مسلم حقوقهم الطبيعية والإنسانية ويرفع عنهم هذه المظالم البشعة ليتمكنوا من الاشتراك مع غيرهم من بنى الإنسان فى بناء عالَم أفضل يسوده العدل والحرية والمساواة ويكون أساسه تمتع كل شعب بحق تقرير مصيره .

هذا .. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام » .

* * *

وقد أخذت هذه الشكوى طريقها إلى سلال المهملات ، فما اهتم لها عدو ولا اكترث لها صديق !!

أما الأعداء فقد سرّهم ما تلقاه الأمة الإسلامية من هوان ، وما تتعرض له من إبادة ، تلك أمانيهم ..!!

وأما الأصدقاء ؛ فقد أخرسهم الرعب وقيّد حركاتهم ، وآثروا النجاة وحدهم ..!!

ولعل النزعات القومية الضيقة التى سيطرت على العالم الإسلامى وقسّمته دويلات شتّى لا تهتم دولة بأخرى ولا تتدخل فى شئونها الخاصة (!) لعل هذه النزعات بعض ما أطفأ حماس العقيدة الدينية وجعل الأخوة الإسلامية أثراً بعد عين ، فوقعت هذه المذابح بين مسلمى آسيا ، ووقف جيرانهم الأقربون والأبعدون مكتوفى الأيدى بإزائها ..

ولست ألوم خصومنا فنحن أولى بالملام ..

إن مصابنا جاء من عند أنفسنا قبل أن يجىء من الضائقين بنا والحاقدين علينا ..

وحتى نلتقى مع ديننا يكون الفلاح ويتحقق وعد الله ..

* * *

الفصل السادس

الإسلام بين الحياة والموت

عود على بدء - بين الإسلام المشوه والإسلام المدعى - الحكم الإسلامى ظل فى قمة الإنسانية ألف عام - أسباب الانهيار: الحكم الفردى ، العوج الاقتصادى ، العجز فى الحياة - الحكم الإسلامى بعيد عن هذه الأدواء - أدعياء الإسلام الجدد- هل العروبة ستار لترك الإسلام ؟ - هل تميت بعض الإسلام ونترك بعضه الآخر ؟ - طريق الرشد فى السياسة الداخلية والخارجية - الحكم المدنى ذريعة الارتداد التام عن الإسلام ، بحث علمى جيد لمجاهد مغربى - واجب الشعوب .

هبت أعاصير الشيوعية على العالم العربى والإسلامى وهو خائر القوى ، مكدود الأعصاب .

كانت علله القديمة قد برحت به ، وأفسدت تصوره للحياة ، وأرعشت خُطاه على صعيدها ، فما يستطيع أن يُثبت لله ولا لنفسه حقاً ..!!

ثم جاء الاستعمار الصليبى الحديث مزوّداً هذه المرة بالعلم الواسع ، والهمة البعيدة ، والباع الطويل .

وسرعان ما تساقطت البلاد الإسلامية كلها بين أظافره فمرّغها فى تراب الهزيمة كيف شاء .

وما كادت تستجمع رغبتها فى الحياة ، وتعاود النهوض من وهدتها حتى أقبل الزحف الأحمر لا بارك الله فى طلائعه !!

فماذا وجد ؟

وجد ديناً جريحاً فقرر الإجهاز عليه ، ولفه فى أكفانه !

وجد الاستعمار الصليبى الذى سبقه قد مهّد له نصف الطريق ، ووفّر عليه نصف العناء ، فلم يستصعب القيام بالنصف الباقى ..

وجد الغرب المسيحى قد طوى أكثر ظلال الإسلام عن التعليم والقانون والآداب والمعاملات .

وخلق أجيالاً تضيق بالقرآن ، وتنفر من أحكامه ..

وتجهل الرسول وتزيغ عن سُنته ..

وتضيع الصلاة والصيام جهرة ، وتتبع الشهوات ، وتقرب بعيدها ، وتجيد كل لغة إلا لغتها ، وكل فقه وتاريخ إلا فقهها وتاريخها ..!!

وفى فوضى تربية بعيدة عن الدين ، وحكومات غير متقيدة بأحكامه وأهدافه ، أخذت الشيوعية تلقى بذورها وتُكوِّن عشاقها ..

وقد تفاوتت مكاسب الشيوعية فى شتى الأقطار الإسلامية تفاوتاً بعيداً وذلك حسب أمرين :

الأول : قحط التراث الإسلامى ، وفراغ البيئة منه ..

والآخر : جور الصليبية إلى الحد الذى يُزهق الروح وينشر اليأس ..

لقد سيطرت الشيوعية فى السودان على جمهور مفزع من المثقفين كما انتشرت بين عدد ضخم من اللاجئين الفلسطينيين .

وكادت الشيوعية تُغرق أندونيسيا كلها ، بل إن زعيمها سوكارنو أعلن دون ما حياء أنه « ماركسى » .

وتوجد الآن فى كثير من البلاد العربية والإسلامية طوائف من الشباب الفارغ القلب ، الشارد الخطو ، تستهويه الشيوعية ، وتظهر أعراضها فى صِلاته الجنسية ، وملاحظاته الفكرية والخُلقية ، وأحكامه على الشئون العامة والخاصة ، كما يوجد حكام يمهدون بسياستهم الداخلية لجعل البلاد شيوعية إن لم تكن اليوم ، فإن غداً لناظره قريب !!

* * *

ونحن بداهة نرفض هذا المصير الكالح ، ونعترض المزالق التى تؤدى إليه ..

ونرى النجاة فى شىء واحد اسمه الإسلام !!

لكن ما الإسلام العاصم من الغرق ؟

إن هناك عشرات من الدول تعتنق الإسلام ، وتقر النسبة إليه ، ومع ذلك فإن أحوالها لا تُسر حبيباً ولا تُسىء عدواً ..!!

أمم انزوت عن طريق الحياة كما تنزوى العربات العاطلة على جانب الطريق ، تنظر إلى السائرين المنطلقين وهى واقفة فى مكانها ، لعطل آلاتها ، ولنفاد وقودها ، ولعدم وجود قائد .!!

فهل أغنى عنها هذا الإسلام ؟

ونحن نسرع بالجواب : لا .. لم يغن عنها هذا الإسلام ..!

ومثل هذا التدين لا يزيد أهله إلا جموداً وخبالاً ..

وما عنيناه قط ، ونحن ندعو إلى دين الله .. !

إننا عندما نتفرس فى شئون قومنا الآن ، نجد نوعين من الإسلام ، أو بتعبير أدق ، نوعين من إدعاء الإسلام .

كلاهما بعيد الصلة أو ضعيفها بكتاب الله وسُنَّة رسوله .

هناك إسلام مشوَّه محرَّف مأخوذ من أعمال المسلمين وسياستهم المعتلة إبَّان ذهاب دولتهم ، وإنهيار حضارتهم ، وشيوع الخرافة والهوى فى أدمغتهم وأفئدتهم ..

وهذا النوع من الإسلام مرفوض ..!!

وهناك إسلام مُدَّعى مُفْتَعل يجرى على بعض المعاصرين المفتونين بحضارة الغرب الرأسمالى أو الشرق الشيوعى ، وهو إسلام لا يعدو استجلاب عنوان دينى لجملة حقائق مدنية ، وأفكار بشرية ، خطؤها أكثر من صوابها .

وأكثر الساسة يتبنى هذا الإسلام المفتعل ويرتضيه .

وهو إسلام مرفوض كذلك .

إن الإسلام الذى ندعو إليه شىء آخر غير تخليط الجاهلين ، وخداع المضلِّلين ..!!

وهو إسلام لا ينبع من بعيد ..

إنه ينبع من الكتاب الذى نستمع إليه آناء الليل وأطراف النهار ، ومن الرسول ﷺ الذى نعرفه جيداً : كيف عاش ؟ وكيف عَبَدَ الله ؟ وكيف جَاهَدَ ؟ وكيف .... وكيف ... ؟

ذلكم هو الإسلام الحق ، وما عداه فهراء .. !!

* * *

لقد قامت ≠ بالإسلام الحق – دولة يانعة الحضارة ، واسعة السلطة ، عظيمة الهيبة ، ظلت فى المجال العالمى الدولة الأولى بين أترابها لا عشرات السنين بل مئات من السنين قاربت الألف عام .

وهذه الدولة الإسلامية انفردت بالصدارة دهراً طويلاً ، ثم شاركتها فى هذه المكانة بعد قرون طويلة دول أخرى ..

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تُرى فى عصرنا هذا أعظم دول الأرض ينازعها فى ذلك الاتحاد السوفييتى ، فإن الدولة الإسلامية فى عصرها الطويل المديد ، كانت أشرف مكانة وأعز نفراً .

وقد ظلت أمداً غير قصير لا يجرؤ أحد على مطاولتها ..

ولم يكن هذا السبق العالمى غرور جنسى ، أو ادعاء ملوك ورؤساء ! – كلا– بل كانت أحوال المسلمين العلمية والخُلقية والمدنية والعسكرية تُرجِّح كفتهم فى كل موازنة ، وتعلو رايتهم فى كل سباق .

ولم يكن هذا الرجحان وليد حضارة قديمة انتفع الإسلام بها ، أو نتيجة ارتقاء محلى مشى الإسلام على قمته !!

لا هذا ولا ذاك ..

لقد نزل الإسلام بين العرب وهم يومئذ أهون ناس فى الدنيا !

فما زال يربيهم من جاهلية ، وينظمهم من فوضى ، حتى أحالهم خَلقاً جديداً لم يكن له فى أرضهم ولا تاريخهم نظير ..!

ثم خرج العرب من جزيرتهم ثواراً على ما حفلت به القارات القديمة من فساد فى الاعتقاد ، وانحلال فى الأخلاق ، وعوج فى السياسات ، ونظام فى المجتمع ، وعجز فى الحياة ، والتصاق بالأوهام والدنايا ..

فكان العرب – بالإسلام الذى حملوه – عافية العالم من سقامه . وشفاءه من أوهامه ..!!

والمعجزة التى صنعها الإسلام فى خلقه للعرب ، وتحريكه للعالَم الهامد ، وتطويره للنشاط الإنسانى كله ، هى من السطوع فى آفاق التاريخ بحيث لا ينكرها إلا من ينكر وهج الظهيرة ، وأشعتها الحادة البريق ..!!

ثم هى معجزة ممكنة التكرار ما بقى الليل والنهار ، لأنها تقوم على كتاب ينطق بالحق ، ونبوَّة تُعلى قَدَر البشر ..

فإذا قلنا : لا نهضة لنا بشىء اسمه الإسلام . فإن هذا الكلام لا يتعاظمه إلا غر يجهل التاريخ ، أو حاقد على الله ورسوله يكره القرآن والسُنَّة ، لأن عقله من صنع الغزو الثقافى الذى بعثر الاستعمار أوازاره فى كل ناحية ..!

وطبيعى أن تتعرض الدولة الإسلامية الكبرى للنصر والهزيمة ، والتقدم والتأخر ، تبع علل عارضة ﴿ وَتِلْكَ الأيامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [1] .

لكنا نعترف أن هناك عللاً باطنة تكوَّنت فى كيان أُمتنا ، كانت تتغلب عليها إبَّان قوتها .

ثم استفحلت هذه العلل ، ووهت المقاومة ، فإذا الدولة الرفيعة الشأن تنحط من عليائها ، وتأخذ شمسها فى الأُفول رويداً رويداً ، حتى عَمَّ الظلام بعد انحدار شمل القرون الثلاث أو الأربع الأخيرة ..

ونحن المسلمون متشبثون برسالتنا السماوية ، وسائرون على سناها ، ووقَّافون عند حدودها ..

وعندما نستعيد نشاطها القديم ، ونستحيى ماضيها الأول ، فإنما نستعيد بداهة الأمجاد لا العلل ، ونستحيى الصواب لا الخطأ .

ولنعترف أن لآبائنا وأجدادنا أخطاء قَلّتْ أو كثرت .

وما نستطيع القول بأن خطاهم لزمت الصراط المستقيم ، فما زاغت ولا تعثرت ..

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

إن هذا القول عمى عن الواقع ، وجهل بالدين ، واستدامة لأسباب الهبوط والهزيمة ..

ولنعترف طائعين بأن الاستعمار الذى استباح حُرماتنا بين المحيطين الهادى والأطلسى شرقاً وغرباً ، وبين سيبيريا على شواطىء المحيط المتجمد شمالاً ، وتحت الصحراء الكبرى وأعماء إفريقيا جنوباً ، لنعترف بأن هذا الاستعمار كان نتيجة لأخطاء جسام ارتكبها المسلمون ، وتفريط قبيح طعن رسالتهم فى صميمها ، وكبا بتاريخهم فى تلك الهاوية السحيقة !!

لنعترف بأننا ابتعدنا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله فى كثير من ميادين العلم والسياسة ، وأننا حين نصطلح مع الوحى وصاحبه فليس عن طريق الجمود العلمى أو الفساد السياسى ، وهما عِلّتان أزرتا بتاريخنا كله فى الحقب الأواخر ..

ومن حسن الحظ أن أصول الإسلام النظرية محفوظة وفيها تصوير كامل للحق .

وأن التطبيق الحسن لا يعجز مؤمناً يدين لله بالسمع والطاعة .

والذى يتصوَّر الإسلام بعض الآراء ، أو بعض الأعمال التى وقعت فى قرن كذا أو قرن كذا مخطىء كل الخطأ .

فإن آراء الناس وأعمالهم على امتداد القرون يُحكم عليها ولا يُحتكم إليها .

يُحكم عليها بما قال الله وقال الرسل ، وليست أسوة يتأسى بها الأخلاف أو يحتجون ..

فملوك بنى أمية والعباس وعثمان رجال فيهم البّر والفاجر ، والمخطىء والمصيب ، وسياستهم قد تضل وقد ترشد .

وما تؤخذ الأسوة الحسنة إلا من صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين .

ومؤلفو كثير من الكتب الدينية قد يوفقون وقد ينحرفون . وأقلامهم قد تسطر الحق وقد تسطر الباطل .

وما ينسب العصمة لهم إلا مغفل .

فمنابع الهدى النقى فى الإسلام معروفة ..

لكنا فى زمان لا يزال يرزح تحت ثقل من التصورات الدينية المستغربة !!

حتى خيل للبعض أن الإسلام هو بعض الكلام الممجوج فى الإلهيات ، أو بعض البدع المحدثة فى العبادات ، أو بعض المراسم المقترنة بعهود السلاطين ، أو ما أشبه هذا وذاك من أهواء الحكام الجائرين ، وأقوال العلماء الجامدين ..!!

لقد حاربتُ فى هذا العصر – وما زلتُ – حكاماً وعلماء ظهر لهم نظراء خلال التاريخ الإسلامى كله ، وتأسيتُ فى هذه الحرب الراشدة بأهل الحق من أسلافنا ، وهم بحمد الله كثر ..

وهؤلاء الحكام والعلماء هم الذين فرضوا أهواءهم على الدين ، ولم يتقوا الله فى عباده ، أو يحسبوا حساباً للقائه ..

وتزوير الإسلام هو جريمة الجرائم ، وفاحشة الفواحش ، لأنه تعويق حقيقى عن الإيمان ، وصد عن سبيل الله ..

* * *

ونحن نُلفت النظر فى هذا المجال إلى ثلاثة أمور :

١ – كل حكم يقوم على اغتصاب إرادة الأمة ، والاستبداد بأمورها ، وعدم الاكتراث بمشورة عقلائها ، فهو باطل من أساسه .

وهو ضرب من الوثنية السياسية ينكره الإسلام أشد الإنكار .

وقد حدث فى الماضى والحاضر أن وثب إلى المناصب العليا فى الأمة رجال أقزام ، أو عمالقة عن طريق الإرث ، أو الغصب ، لا عن طريق البيعة الصحيحة والانتخاب الحر ..

تستطيع الحكومات من هذا القبيل أن تنتحل لنفسها أى صفة إلا الإسلام .

فإن الإسلام يجعل الشورى قاعدة سياسته ، ويأبى شائبة من الضيم أو الافتيات تنزل بالجماهير ..!

إن الاستبداد السياسى كان فى مقدمة العاهات التى أقعدت المسلمين ، وأذلت جانبهم ، وعطلّت رسالتهم ..

وكل متحدث عن الإسلام فى عصرنا هذا يخرس عن ذكر هذه العلة ، فهو مريض القلب أو العقل ..

والمسلمون أحوج أهل الأرض إلى تقرير الحرية السياسية ، إذ فى جوها الطليق تنتعش تعاليم الإسلام وتنمو ، كما أن فى جوها يذوق الناس طعم العدالة والأمان .

إن الحكم الفردى فساد عريض فى الأرض والسماء ، وبيئة خصبة للرياء والملق والعبودية . ووسيلة فذة لتكبير الصغار وتصغير الكبار . وغمط الكفايات ورفع التفاهات ..!

ويعجبنى فى تصوير مآسى الحكم الفردى قول الشاعر محمد الأسمر :

ضاق على الضرغام يوماً غابه   وانقطعت من رزقه أسـبابه

فقال للفهـد : أشر بما ترى   فقال : إن الخير فى ترك الشرى

فمشيا فى الأرض حتى وجدا   غاباً حوى من الوحـوش عددا

وبصـرا بالقـرد وهو يحكم   يـومىء باللّحـظ ولا يكلـم ! !

منتفـخ كالليـث وهو قـرد   منفـرد بالحـكم مسـتبد ! !

له بطانـة بها الحمـار   مدخـر للرأى مستشـار ! !

والبغل فيها الشـاعر المُقدّم   وقنفذ الجحـر الكمى المعـلم ! !

والبوم للبشـــــرى بكل خير	والببغاوات لحفظ الســـــــــر ! !
والضفدع الصـــداّح والمغنى	والذئب قائم بأمـــــــر الأمـــن ! !
والجرذ القائم بالإصـــــــلاح	والهر طاهى اللّحم فى الأفراح ! !
والدب للـــزمر وقرع الطبـــل	والفيل للألعاب فـوق الحـــبل ! !
رأى الهـــزبر ما رأى فـــزأزا	وقال للفهد : أحق ما نـــــرى ؟!
فقال : يا مولاى حق صـــدق	جميع ما يفعل هــذا الخـــلق
ليـــس الذى ترى من الغرائب	فنحن فى مملكة العجـــــائب

هذه الصورة الضاحكة الباكية لمملكة العجائب ، وهى التعبير الدقيق لأحوال الحكم الفردى وما يشيع فى أرجائه من أوضاع مقلوبة وألقاب مكذوبة ..

ومن المحزن أن هذا الحكم كان من أعظم البلايا التى أصابت الاسلام وأمته فى الماضى والحاضر ..

إن الحكم المقبول هو ما كان ترجمة أمينة لرغبة الأمة ورأيها .

والحاكم الشرعى هو الذى ينظر إليه الجمهور على أنه وكيله وأمينه وحبيبه .

ومن الأقوال الشائعة : « ألسنة الخلق أقلام الحق » .. وهذه كلمة أصدق ما تكون فى موقف الأمة الإسلامية من حاكمها .

فإن كانت تُثنى عليه ، وينشرح صدرها به ، فهو حبيب الله ، وموضع رضاه ، وإن ضاقت به وازوَرت عنه ، وشهدت ضده ، فهو عدو لله ..

وفى الحديث عن ابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ ، قال : « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء وأنتم شهداء الله فى الأرض » .

والواقع أن الانتخابات الحرة هى الطريق الفريد لاختيار الحاكم الصالح ..

وأن الأمة الإسلامية يجب أن تتوفر لها جميع الضمانات المنتجة لهذا الاختيار الحر .

وإذا كان الحاكم الفرد شراً يجب اجتنابه ، فلنتذكر هنا أن الحكم الشيوعى لا يعرف إلا هذا الأسلوب الشرير فى تنصيب الحاكمين .

وأن مثالب الاستبداد التى تُنسب للملوك هى أقل شراً مما يفعل حكام الشيوعية حيث كانوا .

والشعوب فى ظل الأمراء الحمر أخفض صوتاً ، وأوطأ ظهراً ، وأضيع حقاً ، منها فى ظل أى حكم آخر ..

والنهضة الإسلامية التى تمد شعاعها اليوم ، تريد أن تُجنِّب البشر هذا الهوان ، أياً كان مصدره ، وتريد أن تحمى المسلمين من لوثات المستبدين ، ومن جنون العظمة الذى يجرى فى دمائهم ..!!

* * *

٢ - وللمال آثار بعيدة المدى فى معاش الناس ومعادهم ، وهو دون ريب قَوام الدنيا وسياج الدين ..

وفى الإسلام مجموعة هائلة من النصوص التى تُحكم تداوله وتوارثه وتُبيِّن كيف يُنفق وكيف يُكسب ..

ومعالم الحلال والحرام هى الدين كله . وفى الحديث : « الحلال بَيِّنٌ والحرام بَيِّنٌ وبين ذلك أمور مشتبهات لا يدرى كثير من الناس أمن الحلال هى أم من

الحرام ؟ فمن تركها استبراءً منه لدينه وعرضه فقد سلم . ومن واقَعَ منها يوشك أن يواقع الحرام . كما أنه من رعى حول الحمى أوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى . ألا إن حمى الله محارمه » .

وهذا الحديث لا يحتاج إلى تعقيب فى ضرورة تحرى الحلال الصرف ، وترك الحرام والتنزه عما جاوره ..

وضمائر المؤمنين هى المرجع الأول فى هذا المسلك الشريف ..

لكن دور القانون فى تنقية المكاسب ، وحراسة الحقوق الخاصة والعامة ، لا يمكن تجاهله ..!

وقديماً كان المحتسبون ينطلقون فى الأسواق يمنعون الغش ، ويرقبون الموازين، ويضبطون المعاملات التجارية بضوابط الشريعة ، ويؤدبون من يحاول الاعتداء على حدود الله .

ووظيفة المحتسب جزء من عمل الدولة قديماً فى تنقية المكاسب ونصب مصفاة للحلال والحرام ..

فهل بقيت مصافى الحلال والحرام مبثوثة فى أنحاء المجتمع الإسلامى ترد السُحت ، وتغرس العفة ، وتقيم حدود الله ؟؟

يبدو أن الحكام قديماً شغلتهم الشواغل عن القيام بهذا الركن !!

أهو فرط ثقة بضمائر الناس ؟ ربما !

أهو قلة اكتراث بتعاليم الدين ؟ ربما !

لكن الذى نقف عنده متأملين . أن الخليفة الأول قاتَلَ مانعى الزكاة ..

فهل قاتَل أحد بعده أولئك المانعين ؟!.

قد يُقال : إنهم لم يمتنعوا بعد ، أو امتنعوا سراً فلم تقم لهم عصبية مسلحة تقاومها الدولة بالسيف !

ومبلغ علمنا أن فريقاً كبيراً من المؤمنين حريص على إيتاء الزكاة فور وجوبها في ماله ، وأن فريقاً آخر يبخل بحق الله ، وأن الدولة المُقصِّرة فى وظيفتها لم تؤد واجبها فى استخراج هذا الحق ، وإيصاله إلى الفقراء والمحتاجين ..

والناس بإزاء المال صنوف ...

فيهم من يسميه العامة بالنهّاب الوهّاب ، والنهّاب الوهّاب رجل يجيد اصطياد المال حيث بدا له ، فإذا امتلكه لم يلبث فى يده إلا ريثما يعرف الوجهة التى يذهب إليها ، فهو كما قال الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق

وعيب هؤلاء أن رغبتهم فى الإنفاق الخاص والعام ، تُجرِّئهم على الكسب السليم والمريب ، وتدفعهم إلى استباحة أمور كثيرة ، وهم يعتذرون لأنفسهم فى ضمائرهم بأن لا حرج فى ذلك ما داموا لم يدَّخروا ما كسبوا ..!!

والإسلام يأبى هذا السلوك ، وعنده أن العجز عن النفقة فى الخير أشرف من السلب والتصدق ..!

وفى الحديث عن رسول الله ﷺ : « من اكتسب مالاً من مأثم فوصل به رحمه أو تصدَّق به أو أنفقه فى سبيل الله ؛ جُمِعَ ذلك كله جميعاً فقُذِف به فى جهنم » .

ومن نكت المصريين أن أحد حكامهم جمع مالاً خبيثاً . وبنى منه مسجداً فكانوا - على طريقتهم فى غمز الحكام الجائرين - يمرون بالمسجد ويقولون: « هذا هو المسجد الحرام » !!

وإلى جانب النهّاب الوهّاب ترى الجَموع المنوع ، وهذا صنف تتملكه شهوة الثراء ، والرغبة فى الاكتناز ، فهو يطوف بثروته كما يطوف الوثنى بصنمه .

وما يخرج منه شىء لله أو للناس إلا بخلع الضرس !!

والكانزون للمال على هذا النحو يحبسون خير الله عن التداول والنفع ، ويملأون المجتمع بالعقوق والحقد ..

وفيهم يقول الله ، جل جلاله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (١) .

ومع هؤلاء وأولئك ترى النقائض .

فهناك الورع الذى يترفع عن عنبة أو بلحة من طريق مريب ، ويُقيم رقابه دقيقة على فمه وما يدخل فيه ..

وهناك من يسرق الضياع الرحبة ، والقصور المشيدة ، ويمشى فيها مختالاً كأنه ما صنع شيئاً !!

واختلاف المسالك والمشارب لا غرابة فيه ..

لكن السؤال الذى تجب الإجابة عنه هو : هل الحكومة الإسلامية تقف محايدة بإزاء هذه المسالك ؟

---

(١) التوبة : ٣٤ - ٣٥

لقد صح أن رسول الله ﷺ ، قال : « يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ أمن حلال أم من حرام » .

فهل الدولة تتفرج على هؤلاء ؟

وجاء عنه ﷺ ، وقد سُئِل عن أكثر ما يُدخل الناس النار فأجاب : « الفم والفرج » .

فهل وظيفة الدولة تنتهى عند إيراد هذا الوعيد ؟

الواقع أن إقامة حدود الله فى الميدان الاقتصادى هو من صميم عمل الدولة .

وأن مصافى الحلال والحرام التى نوهنا بها آنفاً يجب أن تنصب عند كل مورد ومصرف تصل إليه يد القانون ..

* * *

وعندما نتفرس فى تاريخنا الماضى نجد الضمير المسلم كان يقظاً على الإجمال فى شئون الحلال والحرام ، وإن كانت الطبقات الحاكمة ، ومَن اقترب منها ، قد تخوَّضت فى مال الله بغير حق ، وألحقت بالإسلام وأمته إهانات وجراحات ..

بيد أن من الإنصاف القول بأن حساب الأرباح والخسائر يبقى حصيلة تجعل الأمة الإسلامية أعصى على الشيوعية ، وأبعد عن الإصابة بها ..!

ذلك أن جمهرة العمال والفلاحين فى أنكد العهود يطعمون ويكتسون أحسن مما يطعم ويكتسى فلاحو المزارع الجماعية ، وعمال المصانع المؤممة فى البلاد الشيوعية ..

ولا نحب أن نقارن بين شرين لنختار أهونهما ..

ولكنا نقول : إن المسلمين فى أسوأ ظروفهم كان لديهم بقايا من تعاليم الدين تُطعمهم من جوع وتُؤمِّنهم من خوف ..

على عكس المجتمعات الأوروبية والصينية وأشباهها ..

فإن الأزمات قد تمر برجلين ، أحدهما مكتنز ، والآخر نحيف . فينجو الأول ويهلك الأخير .

والثروة الطائلة من تعاليم الإسلام المالية قد يذهب الاضطراب الاقتصادى بالقليل والكثير منها ، بيد أن ما يبقى منها سيكون له أثره فى تماسك المجتمع ..

أما الديانات الأخرى فإن هزالها فى هذه التعاليم يعصف بكيانها كله ، وذاك سر انتشار الشيوعية فى أوروبا وآسيا ..

لقد امتدت فى فراغ ..

ومرة أخرى أرفض اعتبار هذا الكلام دفاعاً عن العوج الاقتصادى الذى عرا أمتنا فى الأعصار الأخيرة .

فإن خلوها من المصفاة الدقيقة المنسوجة من تعاليم الشريعة فى شئون المال ، جعل أغنياء كثيرون يثرون من سُحت .

وعاملين يكدحون دون عوض مكافىء

ومترفَين يمرحون فى ساحات البطالة ..

وناساً يتقدمون بقوة المال مع فراغهم من المواهب ..

وآخرين يتأخرون للإقلال الذى أحاط بهم دون سبب .. إلخ .

أتُرى هذا الفساد يُعالَج ببعض الأفكار الشيوعية ؟

إن ذلك كمن يُعالِج جريحاً نزفت دماؤه بقارورة دم من فصيلة أخرى !!

إنها لن تجدِّد حياته بل ستسلبه حياته ..

إن الأمة الإسلامية لا تستشفى من عللها - لو أرادت العافية - إلا بتعاليم دينها وحده ..

* * *

ومنذ أيام لقينى بعض الشباب ، لا أدرى أهم يساريون حقاً ، أم أنهم يُردِّدون – دون وعى – بعض الأفكار الحمراء .

قالوا لى : ماذا لو ألغيت الملكية الفردية ؟ أفى الدين ما يمنع ذلك ؟

واسترسلوا : لقد جاء الإسلام قديماً فوجد مجتمعات تقر هذا الحق فلم يشأ اعتراضها ، ولو وُجِدَت مجتمعات تنكر مبدأ التملك الفردى لتركها وما ترى !!

فقلت لهم : إنكم تريدون أن نقبل النظرية الماركسية باسم الإسلام !

أتعرفون هذه النظرية جيداً ؟

إنها قبل أن تكون إنكار حق التملك الفردى ، فهى انكار للعقائد والعبادات ، ورفض بات للألوهية والنبوة والوحى والبعث والجزاء .

وقد يهز بعضكم رأسه استخفافاً بهذه الأمور جميعاً ، ويقول : نحن نبحث فى الجانب الاقتصادى ..

وأقول لكم فى حسم : إن الأمر عندنا ليس إقامة مجتمع من الدواب المتخمة ..

إن أمعاءكم لو انفجرت من مقادير الطعام التى تزحمها ، فى ظل نظام يُوفِّر لها هذا العلف ، فهى عندنا مجتمعات حيوانية .. لا أكثر .

إن شئون العقيدة ، والعبادة ، وأساس السمع والطاعة لوحى الله كله ، أمور نُعدها نحن فى رأس القائمة لا فى ذيلها ..

ثم أجيبكم بعد هذا التمهيد إلى ما تطلبون :

إن الإسلام يصون الملكية الفردية صيانة تامة ، ما دامت تتكوّن وتؤدى ما عليها وفق تعاليمه ، والعدوان على هذه الملكية صنو الاعتداء على العرض وعلى الدم ..

وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ ﴾ [1] .

---

(١) النساء : ٢٩

وقال : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ [١]

وقال : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ ﴾ [٢] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ».

وتعاليم الإسلام المقررة فى جميع العقود التجارية والمعاملات المالية تقوم على هذا المبدأ ..

لكن يجب أن نعلم أن الإسلام كالكائن الحى ، تتعاون أجهزته كلها على القيام بوظيفة معينة .

فلنفرض أن مجموعة التعاليم المالية فى الإسلام تشبه الجهاز الهضمى .. فهل هذا الجهاز يؤدى عمله فى غيبة الجهاز الدورى ، وتوقف القلب والرئتين عن العمل ؟

وهل هما معاً يؤديان شيئاً ، إذا انكسر العنق ، أو طار الدماغ ..؟؟

إن الإسلام بضع وستون – أو بضع وسبعون – شعبة ، من الأعمال المتشابكة والتوجيهات المتماسكة .

وهى تمثل فى جملتها كياناً معنوياً لا يستغنى بعضه عن بعض ، ولا ينجح بعضه فى غيبة البعض الآخر ..

ومن ثَمَّ فنحن لا نفكر فى إصلاح اقتصادى ، ونُغمض العين عن الصلاة والصيام ..

وكارل ماركس وغيره من أصحاب الأفكار المهتاجة ليسوا هم الأساة لتقصير بعض الناس فى ماضينا أو حاضرنا .

إن هذا « الماركسى » وغيره من الحمر ، هم فى نظرنا نحن المسلمين مرضى يحتاجون إلى علاج طويل ..

---

(١) النساء : ٥ (٢) البقرة : ١٨٨

وثَمَّ شيء أخير نقوله نحن المؤمنين ولا يقوله غيرنا :

إن لبركة الله مدخلاً كبيراً فى الشدة والرخاء والبأساء والنعماء ..

فهو لو بارك فى ثمرات ستة ملايين فدان لجعل إنتاجها مساوياً لعشرة ملايين .

وهو لو شاء لفتح من خيرات البر والبحر ما يُشبع ويُقنع .

إن الشيوعيين يقبلون على الحياة بكل ما لديهم من ذكاء ونهم ، ويضعون إحصاء لكل ما يضع الدجاج من بيض ، ويُخرج الزرع من حب ، فكيف حالهم مع ما أبطنوا وأظهروا من كفر ؟

إن القشف والضنك هما حظ الجماهير ..

وعلى امتداد الأرض الحمراء لا ترى إلا الحاجة والضر ..

* * *

٣ - لا أدرى متى ظهرت بين المسلمين هذه العاهة المهلكة ، عاهة العجز عن الحياة ، والتخلف فى مضمارها ، وقصر الباع فى معرفتها والإفادة منها .!!

لقد ظلوا دهراً طويلا وهم قادة الحياة الراسخون ، وخبراؤها المبرزون ، ما شانهم قصور فى حرب أو سلم ، ولا انكسرت هممهم أمام بعيد أو وعر ..

ولكنهم - بغتة أو على مهل - جثموا على صدر الأرض لا حراك بهم ! كأنهم عابر طريق أصابه الشلل فحبسه فى جلده ، وخدَّر حواسه وأعضاءه فهو ميت حى !!

وحال المسلمين الآن لا تُنجحهم فى دنيا ، ولا تُربحهم فى دين .

إذا كان فى العالم فقر وجهل ومرض فحظوظهم من هذه الآفات - ونعوذ بالله - موفورة ، وقواهم فى دفعها محقورة ..

غيرهم يحكم الأمواج بأساطيله ، فأين سفنهم ؟

ويزحم البر بمنتجات السلام والقتال جميعاً ، فأين جهودهم ؟

ودعك من تفجير الذّرة وغزو الفضاء فليس للقوم هناك أثر !!

إن تخلفهم فى الحياة لا يساويه إلا تقصيرهم فى الإسلام ، وتفريطهم فى جنب الله ..!!

لقد فكرتُ ملياً : متى أُصيب المسلمون بهذا البلاء ؟

ووجدتُ أنهم فى الحروب الصليبية الأُولى هزموا دول أوروبا مجتمعة ، وأن ما عراهم من هزيمة أول الأمر كان لأسباب خُلُقية ، ترجع إلى نزاع الأمراء والملوك ..

والنزاع من خلائق العرب المحقورة ..!

فلما اجتمع الشمل اندحر الغرب وفَلّ سلاحه !

وكارثة الأندلس تعود للعلّة نفسها ، علّة الانقسام واتباع الهوى ..

وقد استطاع الأتراك أن يحتلوا شرق أوروبا ، وأن يبلغوا وسطها بعد ضياع الأندلس ..

ولم تكن قدرة المسلمين الصناعية مدنياً وعسكرياً دون خصومهم ، بل المأثور أن مدافع المسلمين كانت أبعد مدى ، وأن ملكة الاختراع كانت ناشطة فى أغلب الميادين ..

ولكن يظهر أن هذا التفوق الأخير لم يكن طبيعياً ، أو هو بقية الأصالة القديمة فى كيان العملاق ، الذى نبغ بعلمه وأدبه ، قبل أن تعمل جراثيم (١) الفساد الثقافى والاجتماعى على تبديد قواه وإطفاء بريقه ..

وهكذا شرع المسلمون ينسحبون فى كل ناحية ..

وما هى إلا جولة أخرى حتى كانوا مُصفّدين بين أيدى أعدائهم ..!!

---

(١) فى رأيى أن من أسباب انهيار الدولة الإسلامية استمساك العرب ببعض تقاليدهم الجاهلية لا التعصب القبلى وحده ، بل كراهية الاحتراف والضيق بالمهن الشريفة وازدراء الصناعة ، والفلاحة إلى غير ذلك من خصائص البدو ، وطبائع الأعراب ، وذاك سر حملة ابن خلدون عليهم .

ومن خلال النظام السائد . وُلِدَ فجر جديد ، وُلِدَ منذ نصف قرن تقريباً ولادة طبيعية ، إذ أخذ زعماء الإصلاح في إيقاظ البصائر الغافية ، وإعادة الرشد إلى الأمة التي فقدت رشدها وسعدها .

والنهضة الصحيحة لا تتم إلا بين يدي بعث علمي وقلبي ، رحب الأبعاد ! وذلك ما صنعه روّاد هذه النهضة ..

وأذكر منهم على سبيل المثال جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وحسن البنا ..

إن اليقظة العلمية والعاطفية التي قادها أولئك النفر ، أمدّت المسلمين بروح جديد ، وردّت خصومهم مهزومين في أكثر من ميدان ..

وقد استطاعوا في غير تكليف أن يربطوا الأجيال الناشئة بدينها ، وأن يدفعوها في آفاق الأرض تحمل شعاره ، وتتحرى وجهته ، وتحيا ظاهراً وباطناً وفق تعاليمه ..

وقد نُسبت إلى هؤلاء القادة الكبار أخطاء سياسية كبيرة وصغيرة !

ليكن ، فهم ليسوا أنبياء ولا أشباه أنبياء ..

بيد أن ما أجرى الله على أيديهم من خير لا يجحده إلا مكابر .

وحسبهم أنهم مزّقوا حُجب الغفلة عن أمة تائهة .

وعرّفوها بنفسها ومكانتها ، ثم قاموا إلى جانب ذلك بأمرين جليلين :

(أ) نوّهوا بالإسلام وعظمته في وجه حكومات ارتدت عن شريعته ، أو كانت في طريقها للارتداد .

(ب) جعلوا المثقفين يوائمون بين معارفهم وعقائدهم ، وعلّموهم كيف يُسخّرون الدنيا للدين ، فإذا المهندسون والكيماويون والأطباء والصنّاع المهرة في كل فن يستفتحون أبواب الحياة باسم الله ، ويجعلون ساحات الكون العريض محاريب عبادة .

التسبيح فيها هو العمل في الحياة لرب الحياة والأحياء !!

وهذا أخصر طريق لإحياء أمة ماتت ، ونُهِبَ تُراثها ، وجاس العدو خلال ديارها .

بل لا طريق إلا هذا التفوق الساحق في آفاق الحياة ..

إن أسلافنا - إبّان العصور الأولى - لم يكن خصومهم أقدر على الحياة منهم ، فما كان « أبو جهل » أذكى من أبي بكر ولا أبرع .

وما كان « ريتشارد » أذكى من صلاح الدين ولا أبرع .

وما كان المسلمون وراء ساستهم وقادتهم دون أهل الأرض في الخصائص الإنسانية العادية ، بل كانوا في أغلب الأحيان أرجح كفة وأطول باعاً .

والأمر الآن يحتاج إلى مزيد من الخبرة والقدرة .

لماذا .. ؟

لأن عبادة الحياة شاعت بين الناس شيوعاً جعلهم يستميتون في الإكثار من ثرواتها وزهراتها ..

وهذه الوفرة في المتاع والحطام ساندت المبادىء الباطلة على الانتصاب والتطاول ..

فإذا لم يدعم الحق جانبه بالسلاح نفسه ، فالفشل مصيره ..

وقد لفتُ النظر في كتبي الأخرى إلى بعض الانحرافات الثقافية في مواريثنا . تلك الانحرافات التي لا تزال متداوَلة هنا وهناك ، في كتب التصوف والكلام والفقه ، بقايا من عللنا الموجعة ، ورواسب من أيام الانحلال العلمي الذي حل بنا وأساء إلينا ..

* * *

إن الإسلام الذي ندعو إليه ، ونبني النهضة على قواعده ، لا نجيء به من

المريخ ، إنما نرجع فيه إلى كتاب الله بين أيدينا ، وإلى نبوّة واضحة السُنَن عالية الراية .

وقد ننحرف نحن عنه أو ينحرف من قبلنا ومن بعدنا ، غير أن ذلك لا يُعكِّر صفوه ولا يُطفئ سناه .

والأمة الإسلامية الكبيرة تعرف هذا الدين !

وعندما نُوشدت به وُردت إليه ، حثت الخُطا إلى صراطه المستقيم ، وثابَتْ إليه من كل ناحية .

ولكن الاستعمار الذي هزمها عسكرياً ، وضع ألف عائق دون هذه العودة .

ولعل أنكى هذه العوائق وأقساها أولئك النفر من المسلمين الذين يرفضون إمضاء أحكام الله ، وإقامة شعائره وشرائعه ..!!

فإذا ناقشتَ أولئك ، سمعتَ كلاماً مريضاً عما يقع في ظل الدين - الدين مطلقا - من استبداد سياسي ، وعوج اقتصادي ، وتخلف عمراني !!

وهي شبهات بدَّد العلماء غيومها ، ورأيت في السطور الآنفة قيمتها ..

ونحن ما نقبل استبداداً ولا عوجاً ولا تخلفاً ، وما ندعو إلى الإسلام إلا لنقي بلادنا والعالم كله هذه السيئات .

إن الاستعمار الصليبي وطئ بلادنا من ثلاثة قرون تقريباً ، أما الاستعمار الشيوعي فقد طرق الأبواب من خمسين سنة (١) .

وهو - كما قلنا - يضم إلى أرباحه كل ما ألحقته الصليبية بالإسلام من جراح ومتاعب ، وكل ما وضعته في سبيله من سدود وعوائق ..

وأول هذه العوائق والسدود فصل العقيدة عن الشريعة والحكم عل الأخيرة بالإعدام السريع ، والحكم على الأولى بالإعدام البطئ .

---

(١) أعني منطقة الشرق الأوسط ، وإلا فهو يقص أجنحتنا منذ قرنين كما قرأت هنا .

وإقامة حكومات أو الرضا بحكومات تجعل عنوانها الحكم اللاديني . أو تسير على خطة تنتهي بالحكم اللاديني .. !!

وقد ماج العالم الإسلامي بفوضى هائلة خلال هده المحاولات ، تضاعفت فيها آلامه ، وتعقّدت فيها قضاياه !!

فلنترك أولئك الذين يصفون الدين بأنه رجعية بالية - والدين هو الإسلام لا غير !! - فإن هؤلاء الخرّاصين بين جاحد يعرف مكابرته أو كاذب يعرف قصوره ..

ولننتقل إلى نوع آخر من الناس أشد خطورة من سابقه .

هذا النوع من الناس يزعم الإيمان ، بل لا تنقصه الجراءة ليقول لك : إنه أعرف منك بالله وأغير علي دينه ..!!

ولكنه يفهم الإسلام بعقل مرن ، وتفكير متحرر ، لا كما يفهمه الجامدون من الشيوخ .

حسناً ، فلنر نماذج من هذا التجديد في تفهم الدين ..

سمعتُ أحد هؤلاء يذكر أنه يأكل لحم الخنزير ! لماذا وقد حرّمه الله ؟

لا .. إن ذلك يوم كانت المراعي رديئة موبوءة ، أما في عصرنا حيث الاشراف الطبي على المراعي والحظائر فلحم الخنزير مباح ..!

وسمعتُ آخر يطلب المساواة في الإرث بين الرجل والمرأة . لماذا وقد جعل الله نصيب هذا ضعف نصيب تلك ؟

لا .. ذلك يوم كان العلم والعمل وقفاً على الرجال . أما الآن فالمرأة والرجل سواء في العلم والعمل . !

ورأيتُ آخر يَدَع الوضوء والصلاة ، ولا تنقصه الصفاقة ليقول : إنه أعرف بالله من الرُكّع السجود . !

لكن لماذا لم تُصلِّ وقد أمر الله المؤمنين بأداء الصلوات الخمس ؟

لا .. ذلك كان لتدريب الناس على الأخلاق الحسنة ، وقد استكملنا أكثر من غيرنا تلك الخِلال . ؟

ويُفطر أحدهم في رمضان ، ويأمر الآخرين بالفطر ، ويضع قدماً على أُخرى في مكتبه ، وهو يهتك حُرمة الشهر ، ويشرب القهوة والدخان !!

لكن لماذا تفعل ذلك ، وقد قال الله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (١) .

لا .. إن هذا الصوم يُضعف الإنتاج !! ونحن في عصر يتطلب المزيد منه . !

ويقضي أحدهم زهرة شبابه يسطو على الأعراض ، ويقترف الفاحشة فإذا اعترضت طريقه ... قال : هذه طبيعة لا بد أن تُجاب .!

لكن الزنا جريمة تستحق سوء العذاب ، الجَلد في الدنيا ، والجحيم في الأُخرى.

وهنا يتضاحك على حدود الله من جَلدٍ ، ورَجمٍ ، وقطع ، وعلى التخويف بالآخرة .. !!

وليس يختلف مسلم ومسلم في أن جحد الفرائض واستباحة المحارم كفر بالله والمرسلين .

وأن دعوى هؤلاء الناس للإسلام مرفوضة جملة وتفصيلاً .

وأن حقائق الدين أصلب من أن تسيل مع ميوعة هؤلاء الأفّاكين ..

وفي أثناء الاحتلال الغربي للبلاد الإسلامية بين المحيطين الهادي والأطلسي ، صنعت أجهزته الثقافية أُلوفاً مؤلّفة من هؤلاء المأفونين .

فلما انسحب عسكرياً ترك شئون البلاد الإدارية والسياسية بين أيديهم !!

أتُراه خرج وقد استخلف من بعده هؤلاء المارقين ؟

---

(١) البقرة : ١٨٣

وهذا الصنف من المسلمين - عرباً أم غير عرب - هم دعاة الحكم المدني المبتوت الصلة بالإسلام .

هم القائلون بأن الدين علاقة شخصية بين الإنسان وربه ، لا تتعداهما إلى المجتمع .!

وأخيراً .. هم الذين اعتنقوا الشيوعية ، لمَّا راق لهم اعتناقها ، وانبثوا في كل نادٍ يُهوِّنون كفرها ويُزيِّنون شرها ..

ونحن لا نستغرب كفر كافر ولا معصية عاص ، إنما نستغرب إصرار هؤلاء على دعوى الإسلام مع فراغ قلوبهم منه ، وإباءهم الانقياد لتعاليمه وأحكامه ..

ويظهر أنهم وجدوا هذا التظاهر لعبة سياسية ناجحة . أو خدعة تدفع غضب العامة من المؤمنين فاستمسكوا بها لفائدتها فحسب . !

وبين يديَّ وأنا أكتب هذا الفصل كتاب عنوانه « المغرب المسلم ضد اللادينية » ألفه السيد إدريس الكتاني ، نضر الله وجهه ، وبارك جهاده .

والمؤلف في كتابه القيم يحارب نزعة الحكم اللاديني ، التي نبتت في المغرب غداة تركته فرنسا بعد جهاد إسلامي صميم !!

هكذا يلد الاستعمار العسكري استعماراً ثقافياً يحل محله !!

ووقَّفني وأنا أقرأ الكتاب حوار بين المؤلف وصديق له من رجال حزب الاستقلال ، كان المؤلف يعتب على صديقه هذا تأييده إقامة حكم لا ديني في البلاد ويقول له : كنتَ آخر شـخص يمكن في نظري أن يؤيد اللادينية في الحزب ، لما أعرفه من تربيتك الإسلامية وغيرتك الدينية ، وكم يؤلمني أنك سايرت القافلة .. !!

قال : أي خطر في اللادينية ؟ إنها شيء ينسجم مع الديمقراطية التي نؤمن بها ، والإسلام نفسه لم يعارض في منح المواطنين - بقطع النظر عن أديانهم - جميع الحقوق المدنية على قدم المساواة ، كما هو الحال في مصر ، وهذا ما نريد أن يتحقق في المغرب أيضاً . ! !

قلت : إنك تناقض نفسك . فمصر التي تحتج بها دولة إسلامية أثبتت في دستورها الملكي القديم والجمهوري الجديد ، المادة التي تنص على أن « دين الدولة هو الإسلام » . وهذه حجة عليك تُثبت أن الدولة الإسلامية لا تحرم أي مواطن من حقوقه المدنية ولا السياسية ، كما هو الشأن عندنا اليوم في المغرب حيث لا نزال – بحمد اللّه – دولة إسلامية .

على أن اللادينية ليست كما فسرتها . فهي أخطر من ذلك . إذ هي الفصل بين الدين والدولة . أي تجريد الدولة بجميع مؤسساتها من كل صبغة دينية ، هذا إذا لم تقع محاربة الدين علناً كما حدث في تركيا ، أو مداورة كما يحدث في البلاد الإسلامية المنكوبة بحكم مدني صفيق .

وهذا الفصل إذا كان له ما يبرره في الدول المسيحية فالأمر بخلاف ذلك في الإسلام .

قال : ولكننا لا نفهم اللادينية هكذا ، ولن نطبقها بهذا الشكل [١] .

قلت : هذه هي اللادينية كما يفهمها السياسيون وتطبقها الحكومات اللادينية في العالم ، ولن يغير من هذه الحقيقة أنك تفهمها بشكل متواضع .

قال : إن الأمر يعنينا نحن لا غيرنا . وعندما يحين وقت تطبيقها سنفسرها نحن كما نفهمها ، ونطبقها حسب مصالحنا !

قلت : في ذلك الوقت لن تُسئل أنت عنها ، فالذين أوحوا بها لا يجهلون حقيقتها وأهدافها البعيدة ، واعتراضك أو تأويلك يومئذ سيكون متأخراً عن وقته .

فالسيد عبد القادر بن جلون يوم أعلن « لا دينية حزب الشورى والاستقلال » للصحافة في – إيكس ليبان – لم يستشر الحزب في ذلك .

---

(١) ساسة الغرب جعلوا المثقفين في العالم الاسلامي يكفرون على أقساط . بالتعبير «التجاري»! فهم يخلعون المسلمين من دينهم جيلاً بعد جيل أوجزءاً بعد جزء . وهم يرون أن الزمن معهم ليبلغوا النهاية التي يريدون .. والنهاية التي يريدون هي سحق الإسلام بالتدريج إن عز سحقه دفعة واحدة . !!

ويوم يصبح في الحكم ، ويستطيع فرض النظام اللاديني على الدولة ، لن يستشير الشعب المغربي ، ولن يأخذ رأيك في الموضوع .

قال : إن الذي دفع الأستاذ ابن جلون لتصريحاته في ايكس ليبان ، هو الرغبة في كسب عطف اليهود [1] في وقت كنا فيه محرومين من كل شيء في بلادنا . فهي للاستهلاك الخارجي فقط .

قلت : هكذا ظننت يومئذ ، ولكن حرص ابن جلون على نشر هذه التصريحات في جريدة « مارك بريص » بالمغرب ماذا كان يعني ؟

قال : ليطلع عليها يهود المغرب .

قلت : ومسلموه أيضاً في نفس الوقت . فهل يصح أن نقول أيضاً : إنها للاستهلاك الخارجي فقط ؟

وتسرب اللادينية بعد ذلك إلى مبادئ الحزب وصحافته ، ومحاضرات قادته ، وتوجيهاتهم وسياستهم ، رغم استقلال المغرب ، وزوال أسباب التملق والتقرب ، هل كل ذلك لمجرد الاستهلاك الخارجي أيضاً ؟!

والذي حدث في المغرب ، على شاطئ الأطلسي ، صورة تشبه ما حدث في كل الدول الإسلامية ، حتى شاطئ المحيطين الهندي والهادي ..

لقد خرج الاستعمار العسكري تاركاً وراءه خطة دقيقة لإقصاء الاسلام عن ميادين الحياة العامة جمعاء ..

فالدولة لا تأذن لشريعته بدخول المحاكم ، ولا لفقهه وتربيته بدخول المدارس ، ولا لصبغته وشعاراته بالظهور في اتجاهاتها الداخلية والخارجية .

---

(١) تدبر هذا التفكير ، يعلن العرب ترك دينهم كسباً لعطف اليهود !! أي يهود ؟ اليهود الذين أقاموا دولتهم على أنقاض العروبة والإسلام ؟! . ولكن الحكم المدني يفعل أكثر من ذلك . ولولا قرب العهد بفجيعة فلسطين ، ولولا بقايا الإسلام النابضة بالحياة ، لفعلت الحكومات المدنية ما هو أدهى وأمر ، فجهرت بالانسلاخ عن الإسلام ، وبترك ما يريد الاستعمار تركه لليهود وغير اليهود .

والتقاليد في البيت والشارع لا تلتفت لحلاله ، ولا لحرامه ، ولا تكترث بفرائضه أو نوافله .. !!

ربما استُبقيَت بعض المساجد لمن شاء أن يزورها ..

ومن لا يريد فلا حرج عليه من ترك الصلاة ونسيان الله ! !

* * *

وفي سبيل الشغب على الإسلام استعملت كلمة العروبة استعمالاً ينطوي على الختل والعبث والتناقض .

فقد تسمع الحديث عن الاشتراكية العربية فتسأل : من أين انبجست ينابيع هذه الاشتراكية ؟

من شعر امرئ القيس أو عنترة ؟

من خطب قِسّ بن ساعدة أو كذّاب اليمامة مسيلمة ؟

إن العرب لم تعرف تنظيماً سياسياً ولا اقتصادياً إلا بعد ظهور الإسلام .

بل لم تعرف التجمع فى إطار قومية عامة ، تجعل منها أمة بعد أن لم تكن أمة إلا بعد ظهور الإسلام .

فما سر الحرص على بتر العنوان الدينى ، وإبعاد الصفة الإسلامية ؟

إن إبعاد العنوان الإسلامى مقصود فى ميادين شتّى كأن الإسلام شبح مفزع .. !!

وإخفاءً لكلمة الاسلام توضع أحياناً هذه العناوين : « رسالات السماء »، « القيم الروحية » ، « المثل العليا » ، « عاطفة التدين » ، « المواريث الثقافية » أو « الإيمان ... »

الإيمان بماذا ؟ الإيمان فقط ... لكى يفسره مَنْ شاء بما شاء !!

والغموض أو الميوعة مقاصد قد تروج فى ميدان السياسة ، حيث التلاعب بالألفاظ ، ومخاتلة الخصوم ، والضحك على الذقون ..

أما فى ميدان التربية فالوضوح التام أساس التعليم والتقويم والتوجيه والتنشئة ، ولا مكان لإبهام أو لَبْس أو إخفاء .

ووقع صلح أخيراً بين ما يُسمى بـ « القومية الإفريقية » والقومية العربية !!

والقومية الإفريقية مولود جديد فى عالم السياسة ، ونحن أشد الناس ترحيباً بمحو الألوان الأجنبية عن سكان هذه القارة المحروبين ، وأشد الناس رغبة فى أن يشقوا مستقبلهم بأنفسهم دون أثقال على أفكارهم أو ضمائرهم .

لكن هل سماسرة الغرب الصليبى ، وأولهم حكام « أثيوبيا » يستهدفون ذلك ؟

أم يريدون اللَّعب بمستقبل الشعوب المسلمة فى هذه القارة وقطع الطريق عليها ؟

وهل سدنة البعث العربى يشدون أزر العرب والمسلمين المناضلين فى هذه القارة ؟ أم يلوذون بالصمت المطلق إزاء كربات المكروبين فى « أرتيريا » و « الصومال » وغيرهما ؟

ان العروبة حين تتنكر للإسلام فهى تبخع نفسها ، وتُنَكِّس رأسها وتلغى وجودها ، وتطوى أذيال النسيان على تاريخها كله من حاضر وآت !!

وتسأل بعدئذ : أأولئك عرب حقاً ، متعصبون لجنسهم ولغتهم وتقاليدهم وتاريخهم ؟ فتجد الوقائع ضد هذا الزعم .. !!

إذا ثار نزاع بين اللُّغة العربية واللُّغة العامية ، رأيتَ هؤلاء العرب مع العامية ينصرونها ويخذلون العروبة !!

فهم يؤيدون أن تكون العامية لغة الإذاعة المسموعة والمرئية .

وهم يحاربون الشعر القديم ، ويلتفون حول هراء اسمه الشعر المنثور أو النثر المشعور !!

وهم فى ميدان العلم يؤيدون أن تكون الإنجليزية لغة كلية الطب وغيرها ..

ومن هنا بدأت اللُّغة العربية تنكمش انكماشاً خطيراً ومعيباً ، فى آفاق الفنون والمعارف والصناعات ، بل حتى فى أثاث البيوت . لأن ألوفاً مؤلَّفة من الكلمات المحدَثة والمصطلحات الجديدة فرضت نفسها بلغاتها الأولى ، مع ترحيب وسماحة عرب آخر الزمان ..

والمعروف أن العرب يغارون على الأعراض ، وأولئك لا غيرة لهم .

والمعروف أن محمداً ﷺ لو لم يكن نبياً لكان معجزة العرب ، وفخرهم الى آخر الدهر .

وأولئك تضيق صدورهم بمحمد ﷺ ورسالته !!

فأى عروبة هذه ؟

الحق أن الأمر من أوله الى آخره لا يعدو محاربة الإسلام فى الفرد والمجتمع والدولة .

وهى محاربة شبت نارها لحساب الصليبية الغربية بدءاً ، ثم لحساب الشيوعية ختاماً ، والعرب المسلمون هم الضحية ..

* * *

إننا نحن المسلمين لا نستطيع أن نُقسِّم القرآن نصفين ، نصف نقبله ونصف نهمله .

ونحن نعرف آثار الضعف البشرى ، ونعرف أن كثيراً من الناس يعجزون عن بلوغ الكمال وتحقيق الخير .

لكن هذا شئ ، وتعمد إماتة الوحى الإلهى شئ آخر !!

قد يستخفى امرؤ فى جنح اللَّيل ويقترف رذيلة ما .

وقد ينتهز فرصة انعدام الرقابة ليفعل ما لا يليق .

وقد يُفَرِّط فى أداء واجب لخمول فى إرادته ، أو يتهاون فى فريضة لغلبة فى شهوته ..

تلك كلها معاص تشين الإنسان ، وقد تُتصور ويُتصور معها إيمان عليل ..

لكن الذى لا يُتصور ، أن يتضافر مجتمع فى وضح النهار وعلى ملأ من الناس ، وعلى بينة مما يقصد ، ويقرر ترك الفرائض المقررة ، وارتكاب الأثام المحظورة ، ثم يزعم أنه مؤمن !!

اننا نحن المسلمين نقرأ كتابنا وسُنَّة نبينا ، فنحس أن ديننا كيان اجتماعى تام ، وليس رباطا سريا أو علنيا بين رب العالمين وامرئ فذ من خلقه .

والمجتمع الإسلامى يقوم على الإقرار بوحدانية الله ، والشعور بالخضوع له فى كل ما أمر به ونهى عنه ..

إن الله خلقنا لنذكره لا لننساه ، ولنعيش وفق ما شرع لا لنعيش وفق ما نهوى .

وقد قامت دولة الإسلام الأولى على هذا الأساس المبين .

فإذا كانت روسيا مثلاً تُربِّى الناشئة على أنه « لا إله » وبالتالى ترسم لهم فى علاقاتهم مناهج من وضعها ، فنحن المسلمين نربى الناشئة على أن الله حق وأن ما أوحى به إلى رسله الأكرمين هو أسلوب حياتنا .

ولا انفكاك أبداً بين الإيمان به ، والانقياد لشرعه ..

فإذا قال أحد : نؤمن به ولا نصلى له ، نقول له : كذبت .. !!

وإذا قال : نؤمن به ولا ننفذ أحكامه فى المواريث والجنح والجنايات . نقول له : كذبت ..

الإسلام كُلٌّ لا يتجزأ ، والرضا بخرق آية كالرضا بخرق الدين كله ..

ورجال الحكومات المدنية بتأثير التربية الاستعمارية يمارون فى ذلك جهرة أو مخافتة ، ويحاولون تغطية موقفهم بقبول بعض المراسم الإسلامية المحدودة .

وهذا بيقين ذريعة الإجهاز على الدين جملة ، خلال سنين تقصر أو تطول ..

إن الله بعث محمداً ﷺ ليعالج به فساد أهل الكتاب ، ولينفض الغبار عن وجه الإنسانية الوضئ .

وقد تميز دينه بالحفاظ التام على الحقيقة كلها ، ورفض أى خدش لها ..

وقد رأينا من عيوب أهل الكتاب فى عصرنا هذا ما زادنا اعتصاماً بالإسلام، واستماتة فى الدفاع عن حقائقه ..

لقد رضوا بمجتمع تسوده رذائل الرِّبا والزنا والسُكر ... وأخيراً اللّواط .

وسكت المتحدثون الرسميون باسم الدين عن هذه المناكر .

ورضوا بمجتمع تسوده التفرقة العنصرية ، والمظالم الاجتماعية ، وإذلال الشعوب ، وسرقة خيراتها ...

وسكت المتحدثون الرسميون باسم الدين عن هذه المناكر .

ومن قبل ذلك سكتوا عن جوهر التوحيد ، وهو يلتبس بالتعدد والشرك ، وسكتوا عن الحلال يُحرَّم والحرام يُحَل ..

ووصف القرآن هذه الأحوال الشنعاء فقال :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [١] .

ونحن المسلمين نأبى لرسالتنا هذا المصير .

نريد بناء دولة توالى الله ، وتوقّر اسمه ، وتُسبِّح بحمده ، وتحترم وصاياه فى العبادات والأخلاق ..

---

(١) المائدة : ٦٢ - ٦٣

وهذه الدولة قامت القرون الطوال ، فوقع التعصب عليها ولم يقع منها .

كفلت رعاياها من غير دينها فما فتنتهم ولا أفزعتهم .

أما غيرها فتاريخه ناطق باضطهاد المخالفين ، أو استئصال شأفتهم .

ماذا على النصرانية لو تركت الإسلام يأخذ طريقه فى الحياة ، دون منغصات وعوائق ؟

من يدرى ؟

قد يكون أقدر منها على محاربة الإلحاد الذى يهددها ويهدده .

إن الضغط الصليبى على دول الإسلام اليوم ، هو سناد الحكومات المدنية فى إطراح تعاليم الاسلام .

ومعروف أنه فى جو الحرية التامة سيقيم المسلمون حكومات تُحيى العبادات التى همدت ، وتُعيد القوانين التى أقصيت ..

بيد أننا سنظل نجاهد هذا الضغط ، وقرينه الجديد ، الزحف الأحمر ، حتى يتم الله هذا الأمر أو نهلك دونه ..

* * *

ورأينا أن الدول الإسلامية فى العالم كله ، وقد اكتنفتها ملابسات تردها إلى الله ، وتدفعها إلى صراطه المستقيم ، فإن الدول الغربية مُصِّرة على انتهابها وتمزيقها ... وإبعادها عن دينها اليوم أو غداً .

والدول الشيوعية طامعة أشد الطمع فى استغلال حاجتها ، وسلخها عن دينها كذلك طوعاً أو كرهاً ..

فهل نرجو أن يثوب الحكام المسلمون إلى ربهم ، ويعزموا عزماً وثيقاً على إحياء الإسلام ، وإعلاء رايته ؟

إن هذا يتطلب نية واضحة ، وثقة فى الله ، وانفراداً بالتصرف دون وجل من بشر ..

وإذا أُوجِدت هذه النية وصاحَبها العمل الصادق ، فإنه على مر الأيام سيبرز على الصعيد العالمي كيان إسلامي شريف ، ينصر اليقين والفضيلة والعدالة والشرف ..

ونقول : على مر الأيام ! لأن ما فسد خلال سنين طوال لا نرتقب صلاحه على عجل . حسبناً - كما قلت - أن ننوي العودة إلى الإســلام ونبدأ العمل من أجله ، ولن يطول بنا عهد حتى نصنع للّه مجتمعاً يؤمن به ، ويُعلي كلمته ، ويسعد ببركاته ، ويُؤدي رسالته ، ويستعيد أمجاده الأُولى ..

وتقتضي هذه النية المنشودة أن يقوم الحكام المسلمون ، في العالم أجمع ، بأمرين ، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج .

أما في الداخل فلا بد من إصلاحات شاملة للقوانين ترد للشريعة الإسلامية مكانتها في القضاء والفتوى .

وإصلاحات مماثلة في ميادين التربية والتثقيف ، تصون العبادات المفروضة يومية أو أسبوعية أو سنوية ، وتحمي الآداب والتقاليد ، فلا تأذن بتبذل أو انحلال .

لقد ذهبتُ يوماً لصلاة الجمعة ، فرأيتُ مجموعة من الغلمان يلعبون الكرة غير بعيد عن المسجد ، ما أبهوا لنداء ، أو احتفوا بذكر اللّه !! ..

فقلت : هذا هو الجيل الهابط !

ونظرتُ إليهم وأنا أتذكر الأخطار التي تهددنا من الصهيونية العالَمية ومَنْ وراءها ، وكاد يساورني القنوط ، فما بهؤلاء يقترب النصر !!

والغريب أن لعب الكرة عندنا في مبارياتها الرسمية يتم في رمضان واللاعبون مُفطرون !! وبالتالي لا يُصلُّون !!

إن الدولة الإسلامية لا تقبل بتة هذا العصيان

إنه لو خُصِّصت في الصحف صفحة للتربية الدينية ، كصفحة الألعاب الرياضية لكان لها بعض الأثر !!

ولكن أنّى يتم ذلك وعاطفة التدين ناضبة ؟

إن الدول العربية الآن نوعان : نوع يُوصَف بالتقدم ، وآخر بالتخلف .

ذلك حسب ميلها إلى النظم الاشتراكية .

ورأينا أن هذه وتلك تنقصها أمور جوهرية لتستكمل الصبغة الإسلامية ، وهي عندنا الهدف الأكبر والأرشد ..

فإن أصول الحكم في بعض هذه الدول لا تتسق مع مراسم الشورى الإسلامية، أو ما يُسمى في عصرنا - الديمقراطية الحديثة - كما أن أصابع السلطة الفردية تعبث في المال العام بأسلوب فيه افتيات على الجماهير ، وفيه من قبل ومن بعد انحراف عن تعاليم الدين ..

وتلك حالة نستنكرها ، وما يشفع في قبولها صيام أو قيام .

أما الدول الموسومة بالاشتراكية ، ولنبدأ بالجزائر ، فلنا عليها عتب قصير !!

لقد كان الاسلام سلاحها في كفاحها ، وكان لفظ « الجهاد » ، العنوان الشرعي لقتالها المرير مع الفرنسيين .

فلما كلل الله جهادها بالنصر ، تسمت بأسماء كثيرة ليس من بينها الإسلام ، فهي الجمهورية العربية الديمقراطية الشعبية الجزائرية .. على ما أذكر ؟؟

حتى صحيفة « الجهاد » سُميت صحيفة « الثورة » !!

نحن واثقون من أن الشعب الجزائري وَفيٌّ لدينه ، بيد أننا نوقظه إلى دسائس السياسات العالمية المعادية للإسلام ، حتى يبقى على دربه القويم القديم .. !!

ومن حقنا - ونحن نتحدث عن الاشتراكية - أن ننوِّه بما كتبنا في الأربعينات[١] من رسائل إسلامية في هذا الموضوع ، زلزلت القارونية الكانزة ، كما أقلقت الفرعونية الحاكمة .

---

(١) التاريخ الميلادي هو الغالب عندنا للأسف .

ولا نفخر بهذا - معاذ الله - بل نُنبِّه إلى أن الدعاة المسلمين كانوا أسبق من الكل إلى الإصلاح الاقتصادي بوحي من دينهم ، وباعث من إخلاصهم لله وعباده ..

ونحن ما زلنا متحمسين لكفاية الإنتاج وعدالة التوزيع .

لكننا نرى هذه الإصلاحات جزءاً من البرنامج الإسلامي ، الذي يشمل الجسد والروح ، والدنيا والآخرة ، والصلاة والعفاف ، وتحريم المحرَّمات وإقامة الأركان .. !!

ذلك ما ننشده في الداخل ، ونعده تحصيناً لبلادنا ضد الإلحاد الأحمر والأغبر ، الواردين من الشرق والغرب .

أما في الخارج : فهناك دول ارتدت عن الإسلام كتركيا ، وهذه يجب أن تعود لدينها ، وتتمشى مع الكثرة العظمى من شعبها .

والشعب التركي يحن إلى الإسلام وما يُذاد عنه إلا بالسيف والنار ...

وهناك دول لا تهتم بأمر المسلمين ، وإن استبقت اسم الإسلام وهي الدول التي تتعاون مع إسرائيل وتوالي من أقاموها !!

وواجب هذه الدول أن تقطع علائقها مع أعداء الله ، الذين استباحوا ديارنا وأموالنا ، وأهانوا كرامتنا وتحزَّبوا ضدنا ..

ولنا بعد ذلك كلام مع دول الجامعة العربية .

إن التصاقها بالإسلام أصبح ضرورة لحياتها وبقائها ، ولا معنى لتجاهل التاريخ والواقع .

إن قضية فلسطين إسلامية ، وليست محلية ، فلماذا تُبعد إبعاداً عن الإسلام؟

ثم إلى متى تتجاهل الدول العربية آلام المسلمين في أنحاء الأرض ؟

لقد سلَّمت دول الجامعة أريتيريا إلى الحبشة ، وهي تعرف أن مسلمي الحبشة يذوبون في أتون التعصب الكالح العنيد .

فماذا حدث ؟

أكلت الحبشة الإسلام والمسلمين ، في القطر المضموم إليها ، والجامعة لا تهتم ولا تريد أن تهتم بشيء من ذلك ..

واغتصبت الحبشة أجزاء من الصومال المسلم ، ويبدو أنها اتفقت مع فرنسا على اغتصاب البقية خلال العام القادم ، بعد أن تجلو فرنسا عما تحتله من هذا القطر المُستباح .

ومع ذلك فإن دول الجامعة العربية ترتبط مع الحبشة بأواصر صداقة متينة .

ذلك في الوقت الذي تعترف فيه الحبشة بإسرائيل ، وتمدها بمقادير هائلة من الأغذية والعتاد !!

فما معنى هذا كله .. ؟

أخشى أن أقول : إن نزعة البعث العربي التي أنضجها الاستعمار أخيراً قد جرأت العرب على خيانة رسالتهم ، ونبذ الولاء لدينهم ، وتجاهل المنتسبين إليه هنا وهناك .. !!

إن الحكومات العربية ينبغي أن تكون وفية للإسلام وشعوبه الكثيرة ، تحزن لآلامهم ، وتكترث لقضاياهم ، وتسارع إلى نجدتهم .

فإذا لم يكن لديهم العون الفعّال ، فليسعد النطق إن لم تسعد الحال ..

أما أن يُستقبل جلادو الإسلام وأهله بالتكريم والإجلال في عواصم الأمة العربية ، فذاك ما يندى له الجبين ، بل ما تقشعر منه الجلود ..

والآفة الكامنة وراء هذه العظائم المفزعة ، هي في الحكم المدني الذي يبتعد عن شارات التدين وعواطفه الطبيعية ، أو الذي يكره الإسلام كرهاً غريباً .

إما عدم إيمان به ، وإما بعداً عن الاتهام بالتعصب ..

وقد كشفنا سوءات هذا اللّون من الحكم في كتبنا الأخرى . غير أني قرأت للأستاذ إدريس الكتاني في كتابه « المغرب المسلم ضد اللادينية » بحثاً يتضمن

علماً زائداً ، وحقائق جديدة ، أرى أن أمد شعاعها في كتابنا هذا ، ليعرف من لا يعرف طبيعة الحكم الإسلامي وخصائصه ، والفروق بينه وبين الحكم الديني ، كما عرفته أوروبا .. قال :

١ - « لقد كانت المسيحية ديانة خُلُق وروحانية ، هدفها تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق للأجيال التي عاشت خلال القرون الستة التي سبقت الإسلام ، طبق استعدادها النفسي والاجتماعي والفكري في ذلك العهد .

فإذا عرفنا أن هذه الأجيال كانت تعيش في جهالة وبداوة ، أقرب إلى الطبيعة الحيوانية منها إلى الحياة المدنية ، أدركنا السر في أن الله تعالى لم يُزوِّد السيد المسيح بأكثر مما اشتملت عليه ديانته وقتئذ .

فلما جاء الإسلام بعد هذه القرون الستة ، كان نضج الفكر البشري وتطور الحياة الاجتماعية قد بلغا مستوى أصبحت معه المجتمعات البشرية على استعداد لتلقي وتطبيق تعاليم وأنظمة كاملة ودقيقة لبناء حياتها على أسس علمية جديدة ، وفي إطار اتحاد وتعاون أكبر ينسجم مع تقدم الفكر وتطور الحضارة .

وعلى خلاف المسيحية جاء الإسلام شريعة كاملة خالدة ..

ولم يكن ديناً فقط ختم الأديان السماوية التي أوحى بها في التاريخ ، إنه كذلك ، وبصفة خاصة مجتمع روحي واشتراكي ونظام سياسي وأسلوب للعيش . أو كما وصفه « روني كروس » : « أخوة تتوارثها أمم وأجناس في مجتمع متحد ، تحت رعاية الله لإنجاز إرادة الله » (١)

ويمتاز الإسلام ببساطة عقيدته ومرونة أحكامه .

وتأتي هذه المرونة من كون الإسلام عني بوضع القواعد الأساسية للأخلاق والحرية والعدالة ، والأصول التي يقوم عليها نظام الحكم والمجتمع . والعلاقات

(١) عبارة لمجلة « باري ماتش » الباريسية . من مقال كتبته عن محمد ﷺ في خمس صفحات.

الفردية والدولية ، تاركاً للأمة حق الاختيار في تطبيق أحسن الوسائل ، حسب إمكانياتها وظروفها الزمانية والمكانية .

ولكي تظل هذه المرونة حية مع الزمن اعتبر الإسلام « الاجتهاد »[1] أحد أصوله الأربعة في التشريع . وفي عصور الإسلام الذهبية كان علماء الاجتهاد يسيرون جنباً إلى جنب مع التطور الاجتماعي ، ويجدون حلولاً للمشاكل الجديدة ، ولم يخطر ببالهم أن الإسلام يمكن أن يعرقل هذا التطور في وقت من الأوقات.

فمن تلك البساطة وهذه المرونة ينبعث سر عظمة الإسلام ، وسر النجاح الذي عرفه العالم خلال قرون طويلة من التاريخ ، كما اعترف بذلك كثير من المستشرقين والنقاد .

٢ - إن بعض ما اشتملت عليه المسيحية من التعاليم ، في الحياة الاجتماعية والمدنية ، إذا كان صالحاً للقرون الستة الأولى للميلاد ، فقد أصبح التقيد به عسيراً بعد عصر النهضة ، فالزواج مثلاً تعتبره المسيحية عقدة دائمة بين الزوجين مدى الحياة لا يمكن فسخها مهما كانت الأسباب .

وهذ القانون لا يتطابق دائماً مع حاجات الناس ، ولا ينسجم مع طبيعة العلاقات الزوجية ، وقد تخلّصت منه بعض الشعوب المسيحية بتطبيق « النظام اللاديني » بينما ظلت الدول الخاضعة للسلطة المسيحية كأسبانيا وفية له حتى الآن .

ونتج عن ذلك انهيار خطير في بناء الأسرة ، فعندما ينفصل الزوجان عملياً ، ويصبح التفاهم مستحيلاً بينهما ، ثم يُمنعان من الطلاق رغم إرادتهما المشتركة ، يندفعان بطبيعة الحال إلى ربط علاقات أثيمة يُبيحها العُرف ويمنعها القانون ..

ومن جهة أخرى نجد أن القيود الشديدة التي وضعتها الدول اللادينية نفسها ضد الطلاق لم تحم الأسرة من هذا الخطر ، بل ربما لم تؤثر حتى في التقليل من نسبته .

---

(١) لعله يقصد القياس والاستصلاح .

فالاتحاد السويسري ، الذي يُعتبر مثلاً في الازدهار والاستقرار السياسي ، تفوق نسبة الطلاق فيه حد التصديق ، وتتجاوز بكثير نظيرها لا في فرنسا وأمريكا بل في مصر الإسلامية .

وبخلاف ذلك فإن الإسلام لم يجعل عقدة الزواج مستحيلة الحل - وإن كان يتمنى دوام العشرة - ولكنه أباح الطلاق بقيود معروفة . ورغم ما تُتهم به هذه القيود من السهولة في التطبيق بالنسبة للقيود التي وضعها « النظام اللاديني » فإننا عند المقارنة بين نسبة الطلاق في مصر وفي فرنسا مثلاً نجد أنها تكاد تكون متشابهة ، مع العلم بأن مستوى الحياة الاقتصادي والاجتماعي في مصر - وهو دون نظيره في فرنسا - من شأنه أن يبرر ارتفاع هذه النسبة فيها .

٣ - إن المسيحية لم تكن في أصولها الحقيقية المُنَزّلة تشتمل على أنظمة سياسة للدولة ، ولا على قوانين مفصّلة للحكم كما هو الحال في الإسلام ، وإنما كانت دين محبة ورحمة وأخلاق . أما ما يوجد فيها اليوم من هذه الأنظمة فإنما هو من الأشياء الموضوعة ، التي أُضيفت للمسيحية بعد زمن السيد المسيح .

ورجال الدين (١) فرضوها على الشعوب المسيحية ، إلى جانب أنظمة جديدة تحررية أخرى ، من وضع رجال السياسة باسم المصلحة الوطنية .

فالخطر في هذا التحول ليس عظيماً بالنسبة لأصول الديانة المسيحية المنزّلة من السماء .

بينما نجد الإسلام في أصوله المنزّلة - القرآن والسُنّة - يشتمل على أنظمة كاملة لسياسة الدولة ، وأُصول الحكم ، وأحكام المعاملات الاقتصادية والتجارية ، وقوانين الحرب والسلم ، والعلاقات الدولية ، وغير ذلك مما تمتليء به الشريعة الإسلامية . فتبديل هذه الأنظمة والأحكام الإلهية بقوانين « النظام اللاديني » الموضوعة ، معناه الحكم بغير ما أنزل الله .

---

(١٤) هذا حق ، ولكن النصارى يكلفون بشرائع العهد القديم في الحدود والقصاص وغير ذلك .

والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

ثم يكرر : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

ثم يعيد : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٤) .

ويقول : ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

٤ - إن المسيحية في طبيعتها تقوم على أساس الرهبنة ونظام « البابوية » الذي يمنح « البابا » السلطة الدينية العليا (٦) ويقع تتويجه رسمياً بمقتضاها ، ويقوم البابا بتعيين نوّابه في جميع البلاد المسيحية ، والإشراف على جميع المصالح والمؤسسات الدينية ، وهذا معناه أن المسيحية تتوفر فعلاً على إطار كامل لسلطتها الخاصة يترأسه « البابا » .

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) المائدة : ٤٥ (٣) المائدة : ٤٧

(٤) المائدة : ٤٩ (٥) المائدة : ٥٠

(٦) للبابا دولة مستقلة تسمى « الفاتيكان » وتقع في أطراف روما الشمالية الغربية ، وقد تكوّنت سنة ١٩٢٩ بموجب معاهدة « اللاتران » التي وقّعها موسوليني مع البابا ، وأعترف فيها باستقلال الفاتيكان ، ومساحتها ٤٤ هكتاراً وعدد سكانها ١٠٠٠ نسمة .

ويعتبر « البابا » أو « الحَبر الأعظم » الرئيس الروحي الأعلى للمسيحيين الكاثوليكيين المنتشرين في العالم ، ويمثل الفاتيكان لدى الدول الأجنبية أكثر من ٨٠ مبعوثاً ومندوباً ديبلوماسياً ، كما يتبعها ١٣٥٨ أسقفاً وبطريركاً في الكنائس الكاثوليكية .

وفي الفاتيكان مكتبات تحتوي على أكثر من مليون مجلد ، وعدد ضخم من المخطوطات النادرة ، التي لا نظير لها في العالم ، ويقوم البابا إلى جانب عمله الديني بوظيفة وزير خارجية الفاتيكان . ويشرف بنفسه على أعمال الدولة إشرافاً دقيقاً . ومما يُلاحظ أن الدول الغربية كثيراً ما تستشيره في الشئون السياسية ، خصوصاً ما يتصل بمعاملة المسلمين ، في أهم الشئون الثقافية والسياسية ..!!

وإذن فالنظام « اللاديني » إنما أقر الفصل بين سلطتين موجودتين مختلطتين ، إحداهما دينية والأخرى دنيوية ، وحدّد اختصاصات كل منهما .

وبعكس ذلك فإن الإسلام لا رهبنة فيه . وليس لرجال الدين فيه أي تمييز أو سلطة أو إطار خاص . بل إن التفرقة بين رجال الدين ورجال الدنيا من الأشياء التي لا يعرفها الإسلام ولا يقرها . فكل رجل في نظر الإسلام يجب أن يكون رجل دين ودنيا ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر لأن الإنسان يتكوّن من جسد وروح ، والجسد جزء من الدنيا التي يجب أن يعترف بها ويخضع لقوانينها ، والروح جزء من « عالم الغيب » الذي هو عالم الدين ولا يمكن أن نتنكر لمالك يوم الدين .

وما دامت الروح جزءاً لا يستغنى عنه الجسد فيجب التوفيق بين حاجاتهما ، وإقرار الانسجام والتعاون بين سلطتيهما .

وعلى هذا الأساس قامت فلسفة الدين الإسلامي ، وظهرت الحكومة الإسلامية التي هي حكومة دين ودنيا .

والتاريخ يشهد بالنجاح العظيم الذي لقيته هذه الحكومة ، خصوصاً في العصور الذهبية للإسلام .

ولذلك فإن تخلي الحكومة الإسلامية عن سلطتها الدينية – مع العلم بأنه لا يوجد في المجتمع الإسلامي ونظامه من يمثل هذه السلطة ، كما هو الحال في المسيحية – لا يعني إلا شيئاً واحداً هو إلغاء هذه السلطة بالمرة ، لعدم وجود من يمثلها عملياً [1] ، وخصوصاً في المغرب ، الذي لا توجد فيه لا

---

(١) إذا تخلت الحكومات الإسلامية عن الدين ، فقد الإسلام نهائياً من يقوم على شئونه ، فليس له « بابا » يمثله . والرؤساء الدينيون كشيخ الجامع الأزهر وغيره ، موظفون يخضعون خضوعاً تاماً لموظفين مدنيين قاصري الفقه ، بل ربما لا قدم لهم في الدين وتقوى الله .

ويستطيع أصحاب السلطة المدنية – حتى في ظل الإلحاد الأحمر – استئجار مشايخ يحققون لهم مآربهم في تفليب الأهواء الأرضية على شرائع الله .

ونظرة إلى أوضاعنا المعاصرة تؤكد هذه الحقيقة المؤسفة .. !!

ومن المناكر الشائعة أن يختار ممثلو الإسلام اختياراً يهبط بقيمة ديننا ، في الوقت الذي يقود الأديان الأخرى رجال ذوو مكانة محروسة مهيبة !!

« مشيخة الإسلام » ، ولا « مفتي الديار المغربية » ولا « مشيخة القرويين » . ولا حتى « شيخ جماعة » ، وهو آخر لقب كان قبل عهد الحماية ، وإنما تتمثل في حكومته الإسلامية ، وفي عهد رئيس الدولة الأكبر جلالة الملك محمد الخامس أيّده الله .

على أن مثل هذه السلطة ليست مما يُصنع باليد أو يُخلق خلقاً . ولقد حاولت تركيا أن تصنع إطاراً « لرجال الدين الإسلامي » ، لتقلد بهم القساوسة والرهبان المسيحيين فأخفقت ! وكان هذا أبلد أنواع التقليد التي حاولتها تركيا تحت شعار اللادينية .

٥ - إن المسيحية تشتمل على مذهبين رئيسيين متعارضين أشد التعارض ، وهما مذهبا الكاثوليكيين والبروتستانتيين ، وقد بلغت العداوة بين الطائفتين حداً جعل تاريخ العلاقات بين ملوكهما وأمرائهما عبارة عن سلسلة من الحروب الدينية الطاحنة ، إذ أن عقيدة كل منهما تدفعه - في تعصب جارف مع قساوة ووحشية - لاستئصال الطائفة الأخرى ، والتقرب إلى الله بسفك دمائها .

وبلغ هذا العداء قمته خلال القرنين السادس والسابع عشر [١] ورغم أن الملك « هنري الرابع » بذل كل جهوده لوضع حد لهذه الحروب ، وأصدر في أواخر القرن السادس عشر قراراً يُرخِّص للبروتستنتيين بمزاولة شعائر دينهم ، فإنه لم يحن عهد « لويس الرابع عشر » حتى عاد لعداواتهم وأصدر سنة ١٦٨٥ قراراً بنقض قرار سلفه ، فلم يسع البروتستانتيين إلا أن يهاجروا من فرنسا بأموالهم ومعاملهم .

وأخذ العداء بينهما سبيله للظهور والانتشار في أوروبا من جديد .

ولعل هذه الحالة الأليمة التي عاشها المجتمع المسيحي في أوروبا ، وعانى

---

(١) إن من أتيح له أن يشهد الفيلم التاريخي « الملكة ماركو » يستطيع وحده أن يتصور فظاعة الحرب الدينية . ومجازر التقتيل والتعذيب التي كانت بين الطائفتين بأوروبا .

من عذابها الأمَّرين ، كانت من أهم العوامل التي جعلت الرأى العام المسيحي بعد ذلك يُدرك خطر استمرار سلطتين دينيتين متعارضتين .

ودفعت قادة الفكر الأوروبي لابتكار نظام « اللادينية » - وقد ظهر فعلاً في القرن السادس عشر - كوسيلة للتخلص من حكم رجال الدين ، ووضع حد للحروب والعداوات ، التي أصبح من المستحيل استتباب سلام حقيقي ودائم معها ، طالما كان على رأس الحكم ممثلو إحدى الطائفتين .

والذي يعرف طبيعة الإسلام لا يشك في أن هذه الحالة ليس لها نظير في المجتمع الإسلامي . فليس في الإسلام مذاهب دينية تتعارض عقائدها ويتناحر رجالها بهذه الدرجة .

والحروب الداخلية التي نشأت بين طوائف المسلمين كالتي جرت بين الإمام عليّ ومعاوية . وما تلاها من ظهور الشيعة والخوارج وغيرهما ، لم يكن مبعثها الخلاف في أصل من أصول الدين ، ولكنها كانت حروباً سياسية أثارها التنازع على الحكم ، واستحقاق الخلافة ، وعزَّزتها العصبيات القَبلية التي اتخذت لتبرير مواقفها أشكالاً دينية .

ومن مجموع هذه الفروق ، بين طبيعة كل من الديانتين ، نشأ فرق آخر في المدلول اللُّغوي لكلمة الدين عند المسيحيين ، يختلف عن نظيره عند المسلمين ، وهذا الفرق الدقيق أشار إليه الأستاذ « علاَّل الفاسي » في بحثه القيم الذي نشرته أخيراً مجلة « دعوة الحق » . عدد يونيه سنة ١٩٥٨ بعنوان « التفكير الاجتماعي » حينما قال :

« فإذا نحن أخذنا الكلمة التي نستعملها عادة مقابل الدين ، وجدناها هى « ريليجيون Religion » ، ولكن هذه الكلمة لها معان أخرى غير ما أسلفناه . فهي تشير قبل كل شيء لنظام كهنوتي فيه الراهب ، وفيه الاعتراف ، وفيه سيطرة البشر على أخيه ، وتحكمه في غفران ذنبه ، وقبول توبته !

و« ريليجيوزيت Religiosite » تعني استسلاماً كاملاً لهذا النوع من

العبودية ، وإشراكاً في العبادة نفسها بالله ، عن طريق الامتثال لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهي .

وطبيعي أن هذا النوع من الفهم الغربي لمدلول الدين ، طبقاً للمحتويات التي كوّنتها ظروف المسيحية الأولى ، والتي كان الإسلام ثورة عليها ، وإصلاحاً لها ، كان له أثر متناقض في نفوس الغربيين منذ بداية عهد الإصلاح الديني البروتستانتي ، ثم أثر أخطر منذ طغى رجال الدين على أهل الدين وأصبحوا يمنعونهم من الدراسة ومن المعرفة ، ويحولون بينهم وبين التطور في نظام الحياة والأخذ بأسباب الرقي المادي .

ونشأ عن ذلك أن أحس المجتمع بضرورة التحرر من الدين بالمعنى الغربي . أي بالثورة على سيطرة الكنيسة وتحكم الرهبان والتحرر من الأرستقراطية الاقطاعية ، التي ما كانت تبحث عن مرضاة الشعب وربه بقدر ما كانت تبحث عن غفران الأب وربط أحسن الصلات بالبابا .. » .

وبعد أن أشار الأستاذ علاّل الفاسي إلى أن هذه الحالة كانت من أسباب الثورات المختلفة التي عملت للتحرر من الكنيسة . ودفعت بالدولة للانفصال عنها ، والحلول محلها في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية . وضرب لذلك مثلاً بالطلاق ، تابع قائلاً :

« فأما عندنا فقد نسينا مدلول « الدين » بالمعنى الإسلامي ، وهو مجرد تشريع ، وملأنا الكلمة بما تدل عليه الترجمة الفرنسية ، فأصبحنا بطبيعة الحال نفهم من معنى الدين ما تحتويه كلمة « ريليجيون » .

وأصبحنا نفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب ، وما نقرؤه من آدابه . تلك الآداب الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة وصعوبة الطلاق - ولو في حالة تلبس أحد الزوجين بالزنا - وقيام إقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتُستعبد معها الشعوب .

وهكذا وجدت عندنا مشكلة فصل الدين عن الدولة مثلاً ، ومشكلة الطلاق ، وما أشبه ذلك ، مما هو بعيد عن أن يكون مشكلاً في وطننا .

فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا ، والدولة والدين شيء واحد لأن الدولة لا بد أن تقوم على عقيدة أو خُلُق ، ولا بد أن تكون حامية للقانون ، وهى المسئولة عنه وعن إيجاده إذا لم يكن موجوداً ..

وكل ما هى مُطالَبة به أن تكون موافقة لرغبات الأمة في تصرفاتها وفي أعمالها .

فالدولة الإسلامية ليست دولة « إكليريكية » - كهنوتية - بالمعنى الذي يفهمه الغرب .

بل يمكننا أن نقول إنها مدنية بطبيعتها ، لا لأنها منفصلة عن الكنيسة ، ولكن لأن الكنيسة غير موجودة ، وليست هى من طبيعة الدين الإسلامي ولا جزءاً منه .. » .

هكذا وضع مفكر مغربي كبير أصابعه بلطف على الجرح الدامي للمشكلة ، التي برزت لميدان السياسة العربية في الشرق ، ثم ظهرت عندنا في المغرب ، ليلة إعلان الاستقلال ، والتي قاومتُها في صمت منذ ثلاث سنوات دون أن أجد سنداً أدبياً من كاتب أو مفكر مغربي يواجهها بصراحة ، حتى تعرَّض لها الأستاذ « علاَّل الفاسي » في آخر لحظة بينما هذا الكتاب تحت الطبع ..

والواقع أن عدم إدراك هذا الفرق الكبير في مدلول كلمة الدين عند المسيحيين وعند المسلمين كان عظيم الخطر في تضليل الكثيرين من المثقفين العرب الذين تلقوا تعليماً غربياً دون أن يحصلوا بجانبه على دراسة صحيحة تمكنهم من معرفة الإسلام على حقيقته .

ولما كانت الكلمات اللُّغوية إنما تعيش في المعاني الحية التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم ، فإن كلمة « الدين » لم تعش في ذهن هذه الطبقة من

المثقفين إلا بمدلولها الغربي الذي أشار إليه الأستاذ « علاّل الفاسي » إذ هو الذي تتحدث عنه الآداب والثورات والكتب والصحف الغربية التي تعيش عليها وفي جوها هذه الطبقة ..

وكما ضل الكماليون الأتراك في فهم الدين الإسلامي على حقيقته فسلكوه مسلك الدين المسيحي وأصدروا حكماً واحداً عليهما . فإن هذا التيّار الغربي المضلّل لا يزال جارفاً حتى اليوم ولا يزال يجرف معه كُتّاباً ومفكرين وسياسيين يقعون في خداعه غير شاعرين .

ففى إبريل سنة ١٩٥٨ كتب الأستاذ محمد النقّاش في مجلة الآداب اللبنانية مقالاً علق فيه على الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة الذي لم ينص فيه على دين الدولة [١] ولا دين رئيسها قائلاً :

« وإنها لخطوة مباركة ، فالدين دستور سماوي يقرر علاقة الإنسان بالله ، بينما دستور الدولة دنيوي يقرر علاقة المواطنين بعضهم ببعض !!.

والدولة الديمقراطية الحق تفصل بينها وبين الدين ، وتُبيح حرية المعتقَد لجميع مواطنيها ولا تُفرّق بينهم على أساسه .. » !.

وهذه العبارة هى نموذج مهذب لعبارات الكماليين التي سنذكرها فيما بعد .

فالدين الذي يقول عنه الأستاذ النقّاش أنه يقرر علاقة الإنسان بالله دون علاقة المواطنين بعضهم ببعض ليس هو الإسلام ، لأن الإسلام يُقرِّر جميع هذه العلاقات ويُحدِّدها .

والدين الذي لا يُبيح حرية المعتقَد لجميع المواطنين ويُفرّق بينهم على أساسه

(١) كان إهمال النص على أن الاسلام دين الدولة إرضاءً لحزب البعث العربي . وهو حزب يكره الإسلام كراهية شديدة . يستوي في ذلك جناحاه الشيوعي والغربي .. وإرضاء الحكام المصريين لهذا الحزب كان شؤماً عليهم وعلى المسلمين أجمعين .

ليس هو الاسلام فهذا يقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (١) . وإنما هو الدين المسيحي الكاثوليكي الذى حرَّم على البروتستانتيين ممارسة شعائرهم ، وأحل تقتيلهم وتعذيبهم ..

والذي أعلن الحروب الصليبية على المسلمين واضطهد اليهود وأحرقهم ، في الوقت الذي عاش فيه المسيحيون واليهود في الشرق العربي وفي أسبانيا الإسلامية متمتعين بكامل حريّاتهم الدينية .

فكيف نسحب حكم واحد على طبيعتين مختلفتين ؟

هذه بعض أمثلة للفروق الجوهرية العديدة بين طبيعة الإسلام والمسيحية تجعلنا ندرك الآثار التي يخلفها كل من الدينين في المجتمع الذي يؤمن به كما ندرك – نتيجة لذلك – أن ما يصلح لمجتمع مسيحي ليس من الضروري أن يكون صالحاً لمجتمع إسلامي وبالعكس ، لأن حاجاتهما الأصلية ليست – في الواقع – متساوية .

فإذا كانت هناك عوامل دينية واجتماعية وتاريخية أو حتى سياسية لفائدة الاستقرار والسلام الداخلي تُبرِّر – كما رأينا – أخذ الدول المسيحية الغربية بنظام « فصل الدين عن الدولة » فإن هذه العوامل تعتبر مفقودة تماماً في الدول الإسلامية .

وكذلك فإنه رغم الانقلابات والثورات المختلفة التي ظهرت في الأقطار الإسلامية منذ مطلع هذا القرن . سواءً في البلاد العربية أو في إيران وأندونيسيا وغيرهما لم تقم أية حركة سياسية ترمي لفرض « النظام اللاديني » وانتهاج سياسة مصطفى كمال في تركيا وهى البلد الإسلامي الوحيد الذي فُرِضَ عليه هذا النظام (٢) .

---

(١) البقرة : ٢٥٦

(٢) النظام اللاديني في تركيا يسنده السلاح وحده وقد قام على أشلاء المجاهدين المقهورين ، ولو تحرر الأتراك لعادوا إلى الإسلام فوراً ، إن الحكم اللاديني لا يستند إلى رأي عام في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، إنه يستند إلى الإرهاب السافر أو المقنَّع ، والملحدون يؤمنون بالحرب لأنفسهم وحسب ، أما غيرهم فيعامَل بالقهر والكبت ولو كان ملء الأرض !!

ويجب أن لا ننسى هنا شيئاً آخر ، هو أن الحملة التي يواجهها الإسلام من أعدائه إنما هى أثر من آثار الهجوم العنيف الذي وُجِّهَ ضد الأديان عامة من طرق الماديين .

ولقد كانت المسيحية – في الواقع – هى السبب المباشر والهدف الأصيل الذي وُجِّه إليه هذا الهجوم .

ولكن الحملة جرفت معها سائر الأديان وكان من نتيجتها زعزعة الإيمان بالدين كله وإعداد الرأي العام المسيحي لقبول النظام اللاديني .

ولكي نأخذ فكرة عن هذا الهجوم لنسمع إلى الأستاذ « إمري ريفز » وهو يحلل أسباب فشل المسيحية في كتابه « تحليل السلام » فيقول :

« إن القتل الواسع النطاق ، والتعذيب ، والاضطهاد ، والضغط ، والفتن التي شهدناها في منتصف القرن العشرين لأدلة قاطعة على الإفلاس الكامل للمسيحية كوسيلة لترويض الانفعالات الإنسانية الغريزية ولتحويل الإنسان من حيوان إلى مخلوق اجتماعي معقول .. !

وإن بعث البربرية والاستعمال المطلق للإبادة الجماعية في العالم بأسره لا يمكن اعتباره مسلك قلة من الأفراد الذين لا يؤمنون بالله أصابهم مرض التلذذ بالتعذيب « السادزم » أو جماعة من المتعصبين للشنتوية اليابانية .

لقد قُتِل ملايين من الأبرياء دون أن تهتز شعرة في جسم من قتلوهم ، كما نُهِب عشرات الملايين من البشر وجُرِّدوا مما يملكون ، ونُفُوا من بلادهم واستُعبدوا ، وقد لقوا هذا المصير على أيدي مسيحيين انحدروا من أصلاب أسر مسيحية انتسبت منذ قرون إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، أو إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية أو الكنيسة البروتستانتية .

ولقد ارتُكِبت فظاعات ومآس مفزعة ومجردة من كل مظهر إنساني لا على يد

ألمان ويابانيين فحسب ، بل على أيدي أسبانيين وطليان وبولنديين ورومانيين ومجر وفرنسيين وصرب وكروات وروس .

ولقد أغضت الكنيسة عن هذه الفظاعات وأغمضت عينها كل المجتمعات المسيحية على اختلاف مذاهبها [١] .

وليس قصدي هنا أن أتهم أو أصدر حكماً على أي دين منزّل (منظم) لإغضائه عن هذه الانفجارات الوحشية الشبيهة بحيوانية إنسان ما قبل التاريخ ، ولكن مجرد حصول هذه النكسة أو وقوع تلك الرجعة قاطع الدلالة على عدم كفاية الوسائل المسيحية في تكييف الأخلاق الإنسانية والتأثير عليها وحمل الإنسان على ترك ما تُوحي به غرائزه والاهتداء بالمُثل الروحية .

إنه من العبث نكران أن المسيحية عجزت عن التسرب إلى نفس الإنسان وعن غرس جذورها في تلك النفس .

لقد اقتصر نجاحها فقط على خلق قشرة رقيقة من السلوك الخُلُقي ، وطبقة خفيفة من الحضارة لم تلبث أمام القلاقل الاجتماعية التي شهدها القرن العشرون حتى مزقتها قطعاً » .

ثم يتابع تحليله قائلاً :

« إن ألفي سنة لزمن كاف للحكم على جدوى أية طريقة بصرف النظر عن المذهب الذي تطبقه هذه الطريقة ، وخلال هذه القرون العشرين خُيِّل إلى الناس أن المسيحية نجحت في تأنيس الحيوان الراقد في صدر الإنسان ، وفي ضبط وتقييد النزعات والخصائص الإنسانية المدمِّرة .

ولكن منذ حادت الكنائس عن رسالتها الإنسانية العالمية متحوِّلة إلى

---

(١) طبيعة الحكم المسيحي في الداخل ، وطبيعة الاستعمار الصليبي الغربي هى استباحة الخصوم ، والضراوة في السطو على ما يملكون .

« منظمات وطنية » مؤيدة الوثنية القبلية ، نستطيع القول : كم هي ضعيفة قبضة المسيحية على العالَم الغربي ؟!.

ذلك لأنها من أجل عرض الدنيا قد تخلت عن تعاليمها الروحية مستسلمة أمام غرائز الإنسان البركانية التي يحطم بعضها بعضاً ما لم يتداركها القانون ويلزمها حدَّها .

إن ما في المسيحية من قُدسية وبواعث للحضارة هو توحدها وعالميتها أي تعاليمها القائلة : إن الناس خُلقوا متساوين أمام الله ، وأنهم لعبيد لإله واحد يحكمهم قانون واحد . فتلك هي التعاليم المنطوية على الفكرة الثورية حقاً في تاريخ الإنسانية [١] .

ولكن لسوء حظ المسيحية – كدين منظم – أنها تحوَّلت شيئاً فشيئاً إلى هيئة ذات سلطة رئاسية مطلقة ، وقد أدى هذا إلى « Shism » ثم إلى التفرقة .

بذلك انحدر القانون الواحد العالَمي إلى ديكتاتورية من ناحية ، وإلى انتشار للفرق والمذاهب على أوسع نطاق من ناحية أُخرى .

وفي هذه اللّحظة بدأت الأوطان والقوميات الحديثة تتبلور ، كما بدأ الشعور الوطني يسود العالَم الغربي ويتفوَّق على الشعور المسيحي ، فانقسمت الكنائس المسيحية فيما بينها إلى عدد جديد من الفرق المذهبية ، وجعل كل فريق منها يؤيد المثل الأعلى الجديد المبتَدع ، أعني المثل الأعلى الوطني .

وما لبثت المسيحية أن تشابهت بالوطنية .

وفي كل وطن ، اعتُبرت السياسة الوطنية كأنها سياسة مسيحية لمناهضة الاتجاهات الاشتراكية والنزعات الحرة » .

(١) التفرقة العنصرية مختلطة بدماء الغربيين ، وقد عجزت المسيحية كل العجز عن إزالتها بل لقد أقرتها .

هذا نموذج للمطاعن التي وُجِّهت للمسيحية ، وهو غنى عن كل تعليق . فهل الإسلام كان كذلك ؟ وهل يمكن أن يُؤاخَذ بمثل ذلك ؟

إن وقائع التاريخ وحقائق الإسلام تجيب بالنفى .

ولكن الإسلام مع ذلك تأثر من هذه الحملة كما تأثر من طغيان الأفكار الوطنية والقومية عليه ، ليس فقط لأن الغربيين أصبحوا ينظرون إليه ويكتبون عنه باعتبار أنه نسخة من المسيحية كما يفهمونها ، بل لأن المسلمين الذين تعلّموا فى مدارسهم اللادينية أصبحوا يعتقدون ذلك بدورهم وينظرون إليه بنفس المنظار » !!.

* * *

ذلك ما كتبه السيد « إدريس الكتّانى » نقلناه على طوله لعموم جدواه ، ولأنه يدل على وحدة المرض العقلى والاجتماعى الذى تشكو منه أمتنا بين المحيطين .

ولا عجب فإن مصدر البلاء واحد ، ودول الغرب تنزع عن قوس واحدة فى ضغنها على الإسلام ، وإفسادها لأجياله الناشئة ، ولعبها بساسته الكبار ! من عرب وعجم وترك وهنود .

وإنى لأطوى فؤادى على احتقار شديد لأناس يسمعون أن الصينيين تركوا الدين واعتنقوا الشيوعية - والدين هناك هو البوذية - فيصيح هؤلاء هنا : اتركوا الدين - يعنى الإسلام لا غير - فقد ترك الدين غيرنا !!

وإذا ثار عبدة البقر فى الهند على مقدساتهم صاح مغفل فى القاهرة : أغلقوا الأزهر فلا مكان فى عصرنا لمقدسات بالية !!

وهكذا يتناول الإسلام باللّطمات من عصابات القردة التى أفسد الغزو الثقافى فكرها .

هاجمه أولاً أذناب الغرب الذين أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات .

ثم هاجمه ثانياً أذناب الشيوعية ممن يحاربون الألوهية ويرفضون الوحى ، ويعادون الإسلام ونظامه الشامل للفرد والمجتمع والدولة .

و« الحكومة المدنية » هى العنوان الذى يهربون إليه ويخادعون به .

ولو صرَّحوا بذات أنفسهم لقالوا : لا نريد الإسلام . فدعونا من ذكره ، لا تضايقونا بعرض تعاليمه !!

إنه شيء مضى أوانه ولا دعوة إليه !!

* * *

ونحن ما فى طاقتنا أن نمنع الارتداد ، فليذهب إلى الجحيم من أراد .

لكن الذى فى طوقنا أن نذكره ، وأن نُكرِّره ، أن هؤلاء المرتَّدين يبغون فساد جمهور الأمة بالقوة .

فهم يستغلون السلطات التى سرقوها لنشر الإلحاد والانحلال ، وتفريغ القلوب مما بها من إيمان بالله وطاعة له .

ووجب على جماهير المسلمين أن تهتك الأستار التى يختفى وراءها هؤلاء الشيوعيون ، وأن يستبينوا طواياهم على ما بها من شر .

إن الحكم الصحيح ما يكون إلا صورة كاملة دقيقة لرغبات الأمة الروحية والمادية ومصالحها الاجتماعية والاقتصادية .

والمسلمون فى كل قارة أوفياء لدينهم مستمسكون بشرعه .

وليس من حق بشر أن يلويهم عن وجهتهم بالسيف أو بالختل ..!!

وطريق الحكم الإسلامى واضح لا يشينه جهل جاهل ولا يؤوده جحد جاحد .

وأنا أعلم أن كُلاًّمن الغرب والشرق يضيق بعودتنا إلى الإسلام الحق .

فليمت من شاء ضيقاً .

أما نحن فليس أمامنا إلا طريق واحد ، نعرفه بفطرتنا ، ونشتاق إلى السير فيه ! هو ديننا .

فلنصطلح مع الله وحده ، ففى كنفه ما نرجو من رزق كثير ، ونصر عزيز .

﴿ أمَّنْ هَذَا الَّذى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ، إنِ الكَافِرُونَ إلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ [1] .

﴿ أمَّنْ هَذَا الَّذى يَرْزُقُكُمْ إنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بَل لَّجوُّا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [2] .

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أهْدَى أمَّنْ يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [3] .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... ﴾ [4] .

* * *

(١) الملك : ٢٠ .
(٢) الملك : ٢١
(٢) الملك : ٢٢
(٤) الملك : ٢٩

الفصل السابع

فلسطين والشيوعية وواجبنا العام

إنجلترا تقرر إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين - الرعاية الغربية تقيم إسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطينى - تحول قضية فلسطين إلى قضية عربية محدودة بعد أن كانت إسلامية واسعة - روسيا تؤيد وجود اسرائيل وتقر إزالة أهل فلسطين - الشيوعيون العرب يقبلون قيام إسرائيل ويطالبون بقبول الأمر الواقع فى فلسطين - الشيوعية تخطط لملء الفراغ العقيدى والاجتماعى والسياسى لدى العرب - على المسلمين أن يتوافقوا مع دينهم ومصلحتهم .

أشرنا فى صدر هذا البحث إلى موقف « روسيا » الأخير من كفاح العرب ضد الصهيونية والاستعمار وكيف أن الشيوعية تسللت إلى العالم العربى والإسلامى مع هذه المساعدات التى دعّم بها الروس مقاومة العرب لعدوهم .

والموضوع كله يحتاج إلى تفصيل وكشف ، فإن اللّغط الباطل الذى طال طنينه هنا وهناك كاد يطمس أعلام الحقيقة الخطيرة .

* * *

لقد قرَّرت إنجلترا منذ خمسين سنة إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وكانت إنجلترا يومئذ قائدة العالم الصليبى ، والدولة الأولى فيه .

وكانت تحصل على نصيب الأسد من تركة الرجل المريض ، أى من أشلاء الأمة الإسلامية التى ذهبت شذر مذر ، وجثم الذئاب فوق كيانها المستسلم يقتطعون منه ما شاءوا .

وكافح عرب فلسطين كفاح المستميت ، وكافح معهم الجيرة الأقربون من إخوانهم فى الشرق الأوسط .

وكانت الروح الإسلامية كامنة وراء الجهاد الحزين الباسل الذى أطفأ الإنجليز جذوته ، ونكّسوا رايته ، وأذلوا أهله .

ومضت السنون والاستعمار الغربى يقطع الطريق إلى غايته فى القضاء على الإسلام وأمته .

وقامت إسرائيل فى أحضان الرعاية الغربية التى كفلت لليهود أسباب البقاء والنماء ، وأمدتهم بتأييد اقتصادى واسع وتأييد سياسى أوسع .

حتى لكأن وجودهم على أنقاض شعب فلسطين البائس قد غدا حقيقة عالمية لا ريب فيها ..!!

وزاد الطين بلّة أن الغزو الثقافى الصليبى للعالم العربى والإسلامى أفلح فى دحرجة الحكام المسلمين عن دينهم ، وفى جعل النزعات القومية تستبد بهم .

فإذا قضية فلسطين تتحوّل إلى قضية عربية محدودة تافهة بعد أن كانت قضية إسلامية واسعة مخيفة .

وذلك فى الوقت الذى يعانى فيه العرب تعصباً دينياً أعمى ، سواءً من اليهود الذين يواجهونهم أم من الأمريكيين وحلفائهم الذين يطفحون حقداً على الإسلام والمسلمين .

وعندى أن الحال التى وصل إليها العرب والمسلمون فى هذه الأيام ، لا نظير

لها فى تاريخهم الطويل ، وأن الخط البيانى لوجودهم الروحى والعسكرى يمس القاع .

وأنه إذا لم يوضع حد لهذا الارتداد عن دين الله فليس أمام العرب إلا القبور .

* * *

وُلِدَت دولة اسرائيل فى وقت هان المسلمون فيه على الله وعلى الناس وعلى أنفسهم .

فالغرب الصليبى فى عنفوان قوته ، وعندما قرّر إقامة إسرائيل لم يحسب للعرب أى حساب ، ولم يُقدِّر لوجودهم الشعبى أو الرسمى أية قيمة .

أما العالَم الشيوعى الذى تبوأت روسيا قمته فكان كذلك ينظر للعرب والمسلمين على أنهم أُمة تائهة ، ويرمق ملوكهم ورؤسائهم بازدراء ، لأنهم فى جملتهم كانوا يدورون فى فلك السياسة الغربية ، وكانوا يحاربون الشيوعية بقسوة - خوفاً على سلطانهم وثرواتهم لا خوفاً على دين الله .

ومن ثَمّ أيدت روسيا وجود إسرائيل ، وأقرّت إزالة أهل فلسطين ، وشاركت الدول الغربية فى أقذر جريمة سياسية ودينية شهدها العصر الحديث .

ولستُ ألوم الروس على هذا المسلك ، فالروس قوم يخدمون مصالحهم ومبادئهم ، وقد تجاوبوا - بهذه السياسة - مع طبيعتهم وظروفهم .

إنما تقع اللائمة على العرب الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

العرب الذين يأبون الإسلام شعاراً لهم فى المجال العالَمى ، أو حياة لهم فى الميدان الداخلى ..!!

* * *

وقامت « إسرائيل » على قدميها وسط العرب المشدوهين .

وشرعت روسيا ترمق الموقف فى الشرق الأوسط بذكاء ودقة .

إن عناصر إسلامية كثيرة أخذت تستعد لجهاد جديد ، وعناصر وطنية أخرى لم ترض الواقع الأليم وبدأت تقاومه .

وهؤلاء وأولئك لا تربطهم بروسيا علاقات ود .

من أجل ذلك تجهمت روسيا لهذه الحركات ، وأصدرت أوامرها للشيوعيين العرب – وكانوا يومئذ قلة منكورة – أن يقبلوا قيام إسرائيل ، وأن يسكبوا الماء البارد على العداوة المشتعلة ضدها بين الجماهير .

وقد لمسنا بأيدينا هذا الاتجاه ، ورأينا الكُتّاب المشهورين المائلين إلى اليسارية يخشون المجاهرة فيجنحون إلى تعليقات ساخرة على السياسة العربية الرجعية ! أو يقومون بهجوم بذىء على الرجال الكبار الذين يقاومون الصهيونية بصلابة .

أما الخلايا الشيوعية المبعثرة فى المجتمع العربى فلم تنقصها الصراحة فى المطالبة بقبول الأمر الواقع فى فلسطين .

ونثبت هنا ما سجّله الأستاذ محمد جلال كشك من تصريحات وتوجيهات لهؤلاء الحمر تحت عنوان « عارهم فى فلسطين » [1] قال :

« لقد خرجت جريدة « القاعدة » لسان حال الحزب الشيوعى العراقى فى سنة ١٩٤٨ تقول : « ناضلوا فى سبيل إنهاء حالة الحرب . وإعلان تأليف الدولة العربية المستقلة الديمقراطية فى القسم العربى من فلسطين » .

وأصدر الشيوعيون العراقيون كتاباً سموه « أضواء على القضية الفلسطينية » ختامه : فليحيا التعاون والتحالف بين الوطنيين والديمقراطيين العرب واليهود لإحباط خطط الاستعمار والرجعية . ولتحيا الصداقة العربية اليهودية .

---

(١) الرسالة : العدد ١١١٤

وحتى سنة ١٩٥٣ كانت جريدة « القاعدة » تقول : « إن الشعب العراقى يرفض بإباء أن يحارب الشعب الإسرائيلى الشقيق » .

« لا مصلحة فى الحرب للكادحين العرب واليهود بل للبورجوازية العربية العفنة » !

وصحيح أن بعض التنظيمات الشيوعية فى الوطن العربى قد عارضت مشروع التقسيم عند صدوره ، ثم عادت فاعتذرت وأدانت موقفها وأيدت التقسيم بمجرد أن اتضح موقف الاتحاد السوفييتى .. عندما قال « جروميكو » أمام الأمم المتحدة : « إن الدول الغربية ، قد أثبتت عجزها فى الدفاع عن الحقوق الأولية للشعب اليهودى ، وهذا ما يبرر طموح اليهود إلى إنشاء دولتهم بأنفسهم .. ومن غير العدل ألا نوافق على هذا الطموح أو أن ننكر حق الشعب اليهودى فى تحقيق ما يصبو إليه » (١) .

عندئذ انقطع كل نقاش ، ووارت التنظيمات الشيوعية التى عارضت التقسيم خجلها .. ورفضت جميعها الحرب مستندة إلى التفسير الذى أعلنه « جروميكو » عندما قال : « إن الهجوم العربى على الشعب اليهودى المسالم يعتبر عملاً وحشياً ضد شعب لا يريد سوى تقرير مصيره » .

وانطلق الشيوعيون يعملون ضد الحرب التى « دبَّرها الاستعمار وأرادتها الرجعية » .

كما وصفها تقرير الرفيق خالد سكرتير الحزب الشيوعى المصرى المنحل ..! « وحقَّق الشيوعيون العرب فى « كفاحهم » ضد الحرب ما عجزت عنه الأحزاب الماركسية فى أوروبا .. عندما أصرَّت أحزابها على خوض الحرب الوطنية دفاعاً عن وطن الآباء ، وألقت إلى الأرض بشعار الأخوة البروليتارية » .

وهذه النقول نماذج قليلة لموقف الشيوعية من قضية فلسطين ، قبل أن تقع فى

(١) هذا هو الموقف الرسمى لروسيا الشيوعية وحلفائها غداة قيام إسرائيل أو اشتباك العرب فى حرب معها لاستنقاذ فلسطين .

المنطقة كلها الأحداث الكبيرة التى جعلت روسيا وشركاءها يتخذون موقفاً آخر ، يجب أن تُعرف أبعاده وبواطنه وبواعثه .

إن إسرائيل التى وُلِدَت وسمنت فى أحضان الغرب الصليبى لم تنس جميل سادتها ، ولم تُفرِّط فى حقوقهم لديها .

وقد كشفت الأيام للروس وأتباعهم أن إسرائيل أضحت قاعدة للرأسمالية الغربية ، وامتداداً سياسياً وعسكرياً لأمريكا وإنجلترا .

كما ظهر أن الحزب الشيوعى الإسرائيلى لا أمل فيه .

فما مصلحة روسيا فى الحفاظ على ود مزهود فيه ؟

ذلك فى الوقت الذى بدأت أحوال العرب تتغير فيه تغيراً ظاهراً .

لقد كان العرب يعطون الخد الأيسر من يلطمهم على الخد الأيمن .

كانوا على الصَعيد العالَمى موالين أو شبه موالين لدول الغرب الكبرى ، يبتلعون إهاناتها ويتجاهلون مساءاتها .

بيد أن ترادف الجراح أيقظ نخوتهم ، وحرَّر مشيئتهم ، ومن هنا قرَّرت دول عربية شتَّى أن تلتزم خطة أشرف ، وأصون .

قرر العرب أن يقولوا : لا ، فى مواطن كثيرة .

لكنهم عجزوا فى أغلب الأحيان عن الوفاء بما تتطلبه « لا » من تكاليف .

إن البلبلة النفسية والاجتماعية التى خلقها الاستعمار بينهم كانت شنيعة الآثار .

وأسوأ ما فعله الاستعمار قضاؤه على العناصر التى كانت تمثل الإيمان والبطولة .

وقد انتشرت الزلازل فى البيئات المؤمنة حتى أصبح لزاماً على طُلاَّب الأمان أن يكونوا ماجنين أو مؤمنين بالشكل لا بالموضوع !!

في هذه الظروف التى باعدت بين العرب ودينهم ، وبين العرب والدول الاستعمارية الكبرى تقدّمت الشيوعية لتعمل وتكسب وأمامها حقائق ثلاث :

١ - أن العرب يرفضون كل الرفض الاعتراف بوجود إسرائيل ، ويُسقطون أى حاكم يصالحها ، ويرجون مع الغد زوالها . والغرب الصليبى مُصِرٌّ على فرض إسرائيل بالسلاح وهو يحبط خطط العرب لإضعافها ويأمل مع الزمن أن ينسى الفلسطينيون وطنهم السليب .

٢ - أن مكانة الإسلام تضعضت فى تربية النفوس ونظام الجماعات ، وأن جماهير كثيفة من المثقفين والموظفين والقادة غرباء على دينهم الموروث ، وأن المجتمع العربى الرسمى قد تخلّى عن روابط العقيدة وإيحاءاتها فى مختلف الميادين الداخلية والخارجية .

٣ - أن الأجيال الجديدة ببواعث النقمة على الاستعمار الذى أذل جانبهم والتطلع إلى حليف يسند كفاحهم سوف يرنون بأبصارهم إلى الروس .

وعندئذ يتقدم هؤلاء لملء الفراغ العقيدى والاجتماعى والسياسى الذى يسود المنطقة المحروبة .

وقد مضى الشيوعيون فى إنفاذ هذا المخطّط ، وأصابوا نجاحاً ملحوظاً فى بلوغ أهدافهم القريبة .

ولم يرجع هذا النجاح إلى ما أوتوا من ذكاء قدر ما يرجع إلى خسة الساسة الغربيين ، واصطباغ سرائرهم بأحقاد دينية تستكثر على العرب وعلى دينهم حق الحياة ..!!

وقد أسأل نفسى : أإذا شعر اليهود بخطر التدخل الروسى ، قرروا الانسحاب من فلسطين المحتلة وتركوها للعرب العائدين ؟؟

كلا .. سيكون حل المشكلة فى متناول أيديهم !!

سيُعلنون اعتناق المذهب الشيوعى ! وعندئذ يقول الروس لنا ولهم : إنكم إخوة .. وعليكم أيها الرفاق أن تعيشوا متجاورين !!

إن الشيوعيين لم يخاصموا إسرائيل اليوم لله ولم يصادقونا نحن العرب لله .

إن منطق المصلحة القائم على حساب الجمع والطرح هو الذى جعلهم يظاهرون اليهود أمس القريب ، ثم يظاهروننا هذه الأيام .

* * *

ولقائل أن يقول : ماذا تريد ؟؟

والجواب : أريد أن يتوافق المسلمون مع دينهم ومصلحتهم كما يتوافق اليهود مع دينهم ومصلحتهم ، وكما يتوافق الشيوعيون مع مذهبهم ومصلحتهم ، وكما يتوافق الغرب الصليبى مع عقائده ومصالحه ..!!

إن المسلمين وحدهم هم الجبهة المفككة روحياً ومادياً ، الحافلة بالمتناقضات ، المتعثرة الخُطى .

وكيما يزول هذا الوضع المستنكر الكريه يجب أن نبصر الحقائق التالية ، ونتجاوب مع وحيها الحاسم :

١ - يجب أن تُردم الفجوة التى بيننا وبين الإسلام ، وأن تقف فوراً الحرب الفاجرة المعلنة على تعاليمه وأشياعه .

لقد تضافرت جهود ضخمة لسحق الدين ومحو آثاره النفسية والفكرية فماذا حدث ؟

ضاع الإسلام من قلوب كثيرة ، وشبّت أجيال لا إيمان لها ، ولم يستطع « فكر » آخر أن يشغل مكان العقيدة المضطهَدة .

فلما خلا المجتمع العربى من الإيمان الحى انهارت الأخلاق ، وعربدت الشهوات ، وطغت الأثرة .

والمجتمع الذى خلا من العقيدة لا يصلح أبناؤه فى حرب ولا سلام ، مهما زعم لنفسه من تقدم .

بل إن أصحاب العقائد الوثنية يستطيعون سبقه فى ميدان الإنتاج والنيل منه فى ساحات الوغى .

وهناك حُكّام مسلمون كثيرون شغلوا أنفسهم بإهالة التراب على الإسلام وتقديم بديل آخر يُغنى عنه فى توجيه الضمائر والشعوب .

وهيهات ، هيهات ، إن هؤلاء فى الحقيقة كانوا عوناً على أمتهم و« طابوراً خامساً » للصهيونية والاستعمار مهما زعموا لأنفسهم من عبقرية ووطنية .

٢ - يجب أن تُردم الفجوة بين الحكّام والشعوب ! وأن تزول النُظم التى تُؤمّر على الأمم أشخاصاً لا يمتُّون إليها بآصرة إخلاص وحب .

فالمفروض أن تكون الحكومة صورة أمينة للجمهور ومشاعره وآماله . بحيث يجد الشعب نفسه فى رجالها كما يجد المرء نفسه فى مرآة مصقولة .

وإنى لأشعر بأسى غالب عندما أرى الغربيين يستمتعون دون عناء بهذا اللّون من الحكم الطبيعى القائم على الاختيار الحر والثقة المتبادلة .

أما فى الشرق العربى فهناك حكومات تشبه أن تكون استعماراً داخلياً [(١)] ، والاستعمار الداخلى شر وأنكى من زميله الأجنبى ، ويعجبنى قول الشاعر :

بلدى : كم صنم مجدته ... لم يكن يحمل طُهر الصنم !

لا تلومى الذئب فى عدوانه ... إن يك الراعى عدو الغنم !!

إن المسلمين من قديم يَحملون على كواهلهم خطايا حكامهم ، فمتى تنقضى هذه المآسى ، وتحكم الشعوب نفسها بنفسها ؟؟

---

(١) أشرنا إلى ذلك فى أول كتاب لنا صدر من ربع قرن .

٣ - لقد تقاربت دول العالَم وتشابكت مصالحها فى عصر تكاد تذوب فيه المسافات وتنعدم فيه العزلة السياسية .

ونحن لا نستوحش من هذا القرب ، بل نرحب به ، فإن لنا شخصية عالَمية راسخة الأصول ، رفيعة القدر ، جليلة التاريخ ، سامية المُثل .

وقد يستصحب الآخرون فى معاملتنا ذكريات حسنة أو سيئة .

ليكن ، فما نضيق بماضينا الذى يرجع بماضى غيرنا فى ميزان الإنصاف .

إن أوروبا - وأمريكا معها - ما زالتا تنظران إلى العرب على أنهم حملة رسالة محمد عدوهم اللّدود ..!!

وما زالتا تضيقان بالإسلام وسيره خلال التاريخ الغابر والحاضر .

وقد انضمت روسيا إلى هذه الجبهة إذ هى تحارب أصل الإيمان وتخاصم الإسلام فيما تخاصم من دين ، ونحن ما يروعنا هذا الشعور الجارف مهما كانت مصادره .

وكل ما نُوصى به أن نحاكم الخصوم والأصدقاء جميعاً إلى مبادىء العدالة والمساواة والحرية التى يطبقون على احترامها ، ونطلب إليهم ألا يتناسوها معنا .

وفى زحام هذا العالَم المائج بالمذاهب والنحل يجب أن نعتصم بالإسلام وألا نُفرِّط فى ذرَّة منه ، وأن نتيح عرضه على الناس فمن شاء اعتنقه ومن شاء تركه .

٤ - الخلاف الدينى فى نظرنا ليس مثار عداوة ، فلكل إنسان الحق فى إيثار عقيدة ما يستريح إليها ضميره .

إن العداوة تنشب من الظلم والاستضعاف ، والبغى والاعتساف .

ومن حقنا نحن المسلمين أن نتعرَّف جيداً الجهات التى ترمينا بالضرر ، وتقدح لنا الشرر .

ومن حقنا أن نتحصن من أذاها ، وأن نكسر طغواها ، وأن نقبل العون ممن يؤازرنا ضدها .

وإنه ليؤسفنا فى المرحلة الحالية من تاريخنا أن يتواصى أهل الكتاب بحربنا ويتعاونوا على ظلمنا .

وأن يتقدم الروس وأحلافهم من الشيوعيين بصنوف المساعدات لرد هذا الاعتداء ..!!

إنه لسواد فى وجه الضمير الدينى أن تقع هذه المفارقات .

ولكن ما هذه أول مرة يخون فيها أهل الكتاب ربهم ورسلهم ..!

ونحن المسلمين – بداهة – نُرحِّب بالعون المبذول ، ونُقدِّره ، ونرى لزاماً علينا :

(أ) أن ندفع ثمنه المادى .

(ب) أن نُنوِّه بالجميل المسدى .

(جـ) ألا ترى الشعوب التى أحسنت إلينا منا شراً قط .

وليس يعنى هذا فى قليل ولا كثير أن نعتنق الشيوعية ، أو نُغمض العين عن كفرها بالله ، أو ننسى أحوال المسلمين الخاضعين لحكمها ..!!

إن الظروف السياسية مهما تعقَّدت لا تُغيِّر الحقائق الأساسية للأمم ورسالاتها واتجاهاتها (١) .

٥ – بقى على الأمة الإسلامية أن تَلمَّ شعثها وتُصلح شأنها وتُنقِّى منابع ثقافتها وتفقه الطور الإنسانى الذى تجتازه ويجتازه معها الآخرون .

إن المسافة لا تزال بعيدة بين المسلمين ودينهم علمياً وعملياً ، وفى مراحل هذا البعد تجد المذاهب المناوئة والأعداء المتربصون ألف ثغرة للنفاذ إلى قلب العالَم الإسلامى .

وذاك سر النقائض الكثيرة التى تدع الحليم حيران .

* * *

(١) ألف هذا الكتاب قبل وقوع الحرب الأخيرة بين العرب واليهود ولذلك لم أشأ التعرض فيه لمأساة « سيناء » وما أعقبها وما أدى إليها .

محتويات الكتاب

* * *

رقم الايداع بدار الكتب المصرية : ٩١٣٦ / ١٩٨٩
الترقيم الدولى : ٧ – ٢٠٣ – ٣٠٧ – ٩٧٧